

سلسلة الفنون
٢٠٠٩
لغز أم كلثوم
http://arabicivilization2.blogspot.com
Amly
رجاء النقاش


لغز أم كلثوم





المشرف العام
د . ناصر الأنصاري

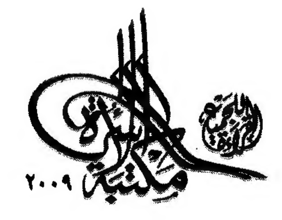
الجهات المشاركة
جمعية الرعاية المتكاملة المركزية
وزارة الثقافة
وزارة الإعلام
وزارة التربية والتعليم
وزارة التنمية المحلية
المجلس القومي للشباب
وزارة التنمية الاقتصادية

تصميم الغلاف
د . مدحت متولي

التنفيذ
الهيئة المصرية العامة للكتاب



رجاء النقاش



لغز أم كلثوم

لوحة الغلاف من أعمال الفنان: منير كنعان

النقاش ، رجاء .

لغز أم كلثوم/ رجاء النقاش .ـ القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ٢٠٠٩.

١٧٦ ص ؛ ٢٤سم (أسرة ٢٠٠٩- فنون)

تدمك : ٤ - ٠١٧ - ٤٢١ - ٩٧٧ - ٩٧٨.

١ ـ أم كلثوم، فاطمة إبراهيم البلتاجى -١٨٩٨- ١٩٧٥ .

٢ - الفنانون المصريون .

أ - العنوان

رقم الإيداع بدار الكتب ١٦٦٠٠ / ٢٠٠٩

I.S.B.N 978-977-421-017- 4

ديوى ٩٢٧

توطئة

انطلقت فعاليات الحملة القومية للقراءة للجميع فى دورتها التاسعة عشرة هذا العام تحت شعار «مصر السلام». هذا الشعار الذى ظلت السيدة الفاضلة سوزان مبارك تطرحه منذ بداية تنفيذ حلمها ليصير الكتاب زادًا متاحًا للجميع، وتصبح القراءة عادة لدى الأجيال الجديدة. لقد ظلت الدعوة للسلام تحلق فى فلك دورات المهرجان السابقة. فهى جزء من تاريخ مصر العريقة، التى بدأت الحضارة على أرضها، منذ وقّع رمسيس الثانى أول معاهدة سلام. لم يكن هناك حينئذ من يضاهيه تقدمًا أو قوة، ولكنه كان يُعلِّم العالم أن من شيم الأقوياء التوق إلى السلام.

لقد جرت فى النهر مياه كثيرة منذ حازت السيدة الفاضلة سوزان مبارك جائزة التسامح الدولى لعام ١٩٨٨ من الأكاديمية الأوروبية للعلوم والفنون التى جاء فى تقريرها «إن الأكاديمية منحت الجائزة للسيدة سوزان مبارك عرفانًا بدورها الكبير فى إذكاء روح التسامح وطنيًا وإقليميًا وعالميًا، وتقديرًا لجهودها الجادة»، وأصبحت القراءة للجميع من أهم المشروعات الثقافية العملاقة فى العالم العربى، وتم اتخاذه نموذجًا يحتذى به فى بلاد آخرى.

ومازالت مكتبة الأسرة، كرافد رئيسى من روافد القراءة للجميع، تقوم بدورها فى إعادة الروح إلى الكتاب كمصدر مهم وخالد للمعرفة فى زمن تزحف

فيه مصادر الميديا المختلفة. فالكتاب هو الجسر الراسخ الذى يربط ذاكرة الأمة وتاريخها وإنجازاتها بأبنائها، وهو الفضاء الساحر الذى يلتقى به المثقفون والمفكرون والمبدعون بالأجيال المختلفة.

وتواصل مكتبة الأسرة هذا العام نشر أمهات الكتب، وستستكمل نشر تراث الأمة الإبداعى، وستعمل على ربط الكتاب بمصادر المعرفة الحديثة كالإنترنت، وعلى التوسع فى إصدار كتب الفنون المختلفة كالمسرح والموسيقى إيمانًا منها برسالة الفنون الرفيعة لتنمية وتطوير وتهذيب روح المجتمع، وحمايته من ضروب التعصب والكراهية والعنف الدخيلة عليه.

وتصدر مكتبة الأسرة هذا العام من خلال سلاسلها المختلفة.. الأدب والفكر العلوم الاجتماعية والعلوم والتكنولوجيا والفنون والمئويات والتراث وسلسلة الطفل، وستشكل هذه السلاسل بانوراما معرفية وتاريخية وعلمية وإبداعية وفكرية، وتمثل مرآة لاجتهادات الفلاسفة والشعراء والعلماء والمفكرين عبر قرون لتحقيق السلام للبشرية من خلال حلمهم الدائم بتحقيق الخير والعدل والجمال.

مكتبة الأسرة

٢٠٠٩

هـذا الكـتاب

أسعدني الحظ بأن تكون لي علاقة شخصية بكوكب الشرق الفنانة العظيمة « أم كلثوم » (١٨٩٨ - ١٩٧٥) وذلك ابتداء من سنة ١٩٦٦ وحتى نهاية حياتها ، وقد سافرت معها مرتين ، مرة في أواخر سنة ١٩٦٨ إلي السودان ، ومرة ثانية في أوائل سنة ١٩٦٩ إلى ليبيا ، وكانت رحلتها التالية والأخيرة إلي موسكو في سبتمبر سنة ١٩٧٠ وبعد أن أعددت أوراقي للسفر معها ، طرأت ظروف منعتني من المشاركة في هذه الرحلة في آخر لحظة ، وتشاء الأقدار أن تصل أم كلثوم إلي موسكو ، ويموت عبد الناصر في ٢٨ سبتمبر وهو موعد الحفلة التي كان من المفروض أن تغني فيها كوكب الشرق علي مسرح « البولشوي » الشهير ، واعتذرت أم كلثوم عن عدم الغناء وعادت إلي مصر ، وبعد وفاة عبد الناصر بدأت الرياح تأتي بما لا تشتهي السفن ، وعاشت أم كلثوم خمس سنوات لم تشعر فيها بالسعادة ، فقد تعرضت لأزمات نفسية شديدة ، لأن عبد الناصر كان يحمل لها من التقدير والإعجاب والحماية ، ما لم تجد شيئاً منه بعد رحيله ، وعندما تتعكر النفس يصبح الجسم قابلاً للمرض ، وهذا ما حدث لأم كلثوم العظيمة ، فقد بدأ المرض يهاجم جسمها القوي ، فهو جسم فلاحة شديدة الصلابة والاستقامة والتنظيم ، والتدقيق في حياتها وطعامها ، والجسم تابع للنفس ، وكانت نفس أم كلثوم مليئة بحزن لم تعرفه في حياتها من قبل ولذلك انتصر عليها المرض فماتت وكانت النهاية.

وهذا الكتاب هو رحلة مع أم كلثوم بدأت سنة ١٩٦٥ عندما كتبت الدراسة الأولى المنشورة في هذا الكتاب وبعدها استطعت أن أحدد موعداً معها عن طريق صديقي الكريم المهندس محمد دسوقي ابن شقيقتها وموضع سرها والرجل الذي وقف إلي جانبها بقوة وشجاعة وأصالة حتى نهاية الرحلة ، وزرتها في بيتها بشارع « أبو الفدا » بالزمالك ، وهو البيت الذي تم هدمه لإقامة عمارة قبيحة مكانه ، وكان من واجبنا أن نحرص علي هذا البيت ونجعل منه متحفاً لأجمل الذكريات ، ولكن هذا هو ما حدث في مذبحة الانفتاح الاستهلاكي الذي جرفنا معه منذ أواسط السبعينيات ، فكان لابد أن ينهدم هذا البيت الجميل الذي كان يمكن أن يبقى مثل الهرم ، مصدراً للدخل المستمر الذي يقدمه آلاف الزائرين لمثل هذا المتحف المأسوف عليه ، وفي لقائي الأول مع أم كلثوم سنة ١٩٦٦ أجريت معها حديثاً طويلاً هو الفصل الثاني من هذا الكتاب ، ثم توالت كتاباتي عن أم كلثوم ، وخاصة بعد أن أذيع علي شاشات التليفزيون العربية مسلسل « أم كلثوم » في رمضان الماضي « ديسمبر ١٩٩٩ – يناير ٢٠٠٠ » وهو مسلسل كتبه الفنان الكبير محفوظ عبد الرحمن ، وأخرجته المخرجة النابغة « إنعام محمد علي » وقامت بتمثيل دور « أم كلثوم » فيه الفنانة الموهوبة « صابرين » وقد استطاع هذا المسلسل التليفزيوني البديع أن يهز الناس ويثير فيهم كثيراً من الدهشة ، وكثيراً من الأفكار والأشجان، وقد حركني هذا المسلسل فكتبت العديد من الفصول عن «أم كلثوم» وعصرها والرجال الكبار الذين كانوا حولها ، فخلقوا لها بيئة ثقافية وفنية وأخلاقية راقية ، وفي هذه البيئة تألقت أم كلثوم وأعطت لنا أفضل ما في نبوغها وعبقريتها وأصبحت نغمة صافية

للحب والسعادة بالنسبة للشعب العربي كله علي مدى نصف قرن كامل أو يزيد ، أي منذ أن جاءت القاهرة من قريتها « طماى الزهايرة» سنة ١٩٢٣ ، وحتى وفاتها سنة ١٩٧٥.

فالكتاب هو مجموعة من الذكريات والأحاديث والدراسات والأفكار المتنوعة المتفرقة والتي لا يربط بينها سوى رابط واحد هو « أم كلثوم » فأم كلثوم من الشخصيات الكبرى التي يمكن من خلالها أن نعرف الكثير عن أنفسنا وبلادنا وثقافتنا وجهودنا المتواصلة من أجل النهوض والتقدم ، وخاصة في مجال الذوق والتفكير ، وقد أدت أم كلثوم دورها العظيم ، وسوف تظل تؤديه جيلاً بعد جيل ، لأن الجسم يموت وينتهي ولكن الفن الجميل حي لا يموت.

وهذا الكتاب في صفحاته المختلفة محاولة لإضاءة بعض الجوانب من عالم أم كلثوم الغني ، ولا يمكن إضاءة كل هذا العالم الرحب إلا بمزيد من الجهود وآلاف من الشموع المشتعلة ، وهناك صعوبة دائمة في محاولة إضاءة عالم كله نور مثل عالم أم كلثوم ، ومع ذلك فنحن نحمل الشموع إلي هذا العالم لنتبين لأنفسنا طريقنا فيه وهذا الكتاب هو شمعة نحملها علي خجل واستحياء إلي دنيا من الجمال والعزة ، هي دنيا أم كلثوم ، وفي هذه الدنيا سوف يحمل غيري شموعاً أخرى كثيرة ، وكلنا يجاهد لكي يجد طريقه في حياة أم كلثوم وفنها ورحلتها الفريدة، ولا شك إننا فيما نحمله من الشموع لا نريد إلا التعبير عن حبنا لكوكب الشرق ، بحق ، وإلا الرغبة في أن نزداد فهماً وسعادة باقترابنا من هذا الكوكب المنير ، ولعلنا نهدف أيضاً إلي تحقيق مزيد من الثقة بأنفسنا وبلادنا ، فإذا كانت أمتنا

قادرة علي إنجاب شخصية مثل أم كلثوم فلماذا لا تكون قادرة علي إنجاب آخرين من الذين يستطيعون أن يملأوا الأرض بالحب والجمال وقوة الإرادة والعزيمة التي لا تتردد في قهر المشاكل والصعوبات ؟ ذلك ما نتمناه لأنفسنا وبلادنا ، وهو ما نرجو أن يتحقق بإذن الله مهما تكاثرت الغيوم في السماء ، وانتشرت الأحزان في القلوب ، وبدا لنا أن الظلام كثيف ، فالفجر لابد أن يشرق ، وصوت أم كلثوم سوف يظل يدفعنا دائماً إلي الأمام وإلي النور وإلي أزهار الأمل المتفتحة في القلوب وأمام كل العيون.

ولابد في النهاية أن أقدم خالص شكري وتقديري للأصدقاء الأعزاء الأساتذة: أشرف غريب وعلي محمود وفؤاد المنصوري الذين قاموا بمراجعة الكتاب مراجعة دقيقة وقدموا لي ملاحظات أفادتني كثيراً ...

رجاء النقاش

لغز أم كلثوم

عندما[1] ولدت أم كلثوم كانت عبئاً علي أبيها الذي كان يكسب بالتعب والعرق عشرين قرشاً في الشهر ، وبعد سنوات أصبح عبء أم كلثوم نعمة علي شعبه بأكمله .. فقد أصبحت جزءاً من وجدان هذا الشعب . فما هو سر أم كلثوم؟.. ماذا وراء لغزها الكبير ؟ كيف نشأت هذه العبقرية ثم انطلقت كالصاروخ من أعماق القرية المصرية ؟ كيف قطعت هذه الرحلة الطويلة في حياتها وحياتنا .. منذ أن كانت تتقاضى في الحفلة مليماً واحداً ، إلي أن أصبحت تكسب في حفلاتها كل ما القلوب من عواطف علي طول الأرض العربية وعرضها؟.

« في الساعة العاشرة ليلة أول كل يوم خميس في الشهر يحدث شيء غريب في الشرق الأوسط .. يهدأ الضجيج في شوارع القاهرة فجأة .. في الدار البيضاء التي تبعد ٢٥٠٠ ميل إلي الغرب، يكف الشيوخ عن لعب الطاولة في المقاهي .. وفي بغداد التي تبعد ٨٠٠ ميل إلي الشرق يحدث نفس الشيء .. الكل أذهانهم مشغولة بشيء آخر .. وبين هذين الحدين الجغرافيين علي طول الصحراء وعرضها يأوى الأعراب إلي خيامهم .. الكل ينتظرون برنامجاً معيناً يذيعه راديو القاهرة ، مدة هذا البرنامج خمس ساعات ، يذاع ثمان مرات في السنة ونجمته مطربة اسمها أم كلثوم » .

هذه الكلمات خرجت بها في يونيو سنة ١٩٦٢ مجلة لايف الأمريكية في

---

(١) هذا الفصل في الأصل دراسة عن أم كلثوم كتبتها سنة ١٩٦٥ – في حياة أم كلثوم – ونشرتها مجلة " المصور ".

تحقيق صحفي أعدته في صفحاتها الأولى عن أم كلثوم ، وكان كاتب هذا التحقيق هو مراسل المجلة في الشرق الأوسط « جوردون جاسكيل » .. وقال المراسل الأمريكي في تحقيقه الصحفي :

هنا في الشرق الأوسط شيئان لا يتغيران .

وقد أراد المراسل في هذه العبارة الماكرة أن يقول إن الشرق الأوسط مليء بالتقلبات السياسية والفكرية وأن أرسخ ما فيه : هو صوت أم كلثوم والأهرام ، فهما لا يتعرضان لأي تغير في مركزهما وقيمتهما واهتمام الناس بهما.

وكان إحساس المراسل الأمريكي إزاء صوت أم كلثوم صادقاً ..

فمنذ أن كانت أم كلثوم صبية صغيرة أثناء الحرب العالمية الأولى .. منذ ذلك الحين وأم كلثوم تصعد إلي عرش الفن دون أن تتراجع خطوة واحدة إلي الوراء ، بل ودون أن تكتفي بالتطور الهادئ .. لأنها كانت علي الدوام تقفز إلي الأمام في سرعة الصواريخ.

وقصة حياة أم كلثوم لا تقل عظمة وروعة عن قصة فنها الرفيع .

وكانت بداية القصة في الريف المصري ، لقد ولدت في قرية « طماي الزهايرة»، وكانت أمها فلاحة اسمها « فاطمة المليجي » أما أبوها الشيخ «إبراهيم البلتاجي » فكان إماماً لمسجد القرية ، كان يقرأ القرآن في الموالد ويغني بعض التواشيح والقصائد الدينية ، وجملة دخله في الشهر كانت لا تزيد علي عشرين قرشاً ، وفي هذا البيت الديني الفقير نشأت أم كلثوم ، وكان السبب في اختيار اسمها سبباً دينياً أيضاً .. فقد أراد والدها أن يتبرك بالنبي عليه السلام ، فسماها علي اسم بنت من بناته.

وهكذا ، خرجت أم كلثوم من القرية المصرية .. شأنها في ذلك شأن الكثيرين من عظماء تاريخنا الحديث في ميدان السياسة والدين والأدب والفن. فقد نشأ

معظم هؤلاء في القرية المصرية ، وخرجوا من بين الفلاحين المصريين ، فعرابي كان فلاحاً من قرية « هرية رزنة » ومحمد عبده كان فلاحاً من قرية « محلة نصر» وسعد زغلول كان فلاحاً من قرية « إبيانة ».وعبد الناصر فلاح من « بني مر» وطه حسين فلاح من إحدى قرى الصعيد.

إن القرية المصرية هي المنجم الذي ضم بين جوانحه معظم الكنوز البشرية في حياتنا وتاريخنا الحديث كله.

ومن هذا المنجم خرجت أم كلثوم ، وهي تصف لنا قريتها في بعض أحاديثها فنحس من هذا الوصف برائحة ترابها وحواريها وأزقتها وندرك تماماً أنها قرية صغيرة قابعة في أعماق الريف ، وليس لها أي علاقة بالمدينة من قريب أو بعيد.

تقول أم كلثوم في وصف قريتها التي تشبه جميع القرى في مصر وخاصة قبل الثورة : « كنا نعيش في قريتنا الصغيرة « طماي الزهايرة » ، مركز السنبلاوين وهي قرية متواضعة ، أعلي بيت فيها لا يزيد علي طابقين وأكثر مظهر للثراء فيها عربة حنطور يركبها العمدة وبضعة طرق ضيقة أخرى تسع لمرور حمير الخفراء وشيخهم ، وكنت أغنى في القرى المجاورة ، وكانت كلها قرى صغيرة وكنت أحسب أن مركز السنبلاوين هو أكبر مدينة في الدنيا ».

علي أن صلة أم كلثوم بالريف المصري وبالفلاحين المصريين ليست محدودة بمجرد الميلاد ، ولا لأنها غنت في عدد من القرى هنا أو هناك .. كلا .. لقد عرفت أم كلثوم ريف مصر كله ، ومشت في سككه الزراعية المليئة بالتراب، وعرفت كل شيء عنه قبل أن تخطوا بأقدامها إلي القاهرة ولذلك فهي تقول : « لقد مسحت بقدمي الصغيرتين القطر المصري كله قرية قرية قبل أن أنتقل إلي القاهرة » .

وهكذا لم تتعلم أم كلثوم في مدرسة ولا في جامعة ، بل تعلمت في الحواري والأزقة والأجران وتتلمذت علي الذوق المصري العربي في أبسط صوره وأصدقها ..

تتلمذت علي ذوق الفلاحين المصريين الذين طحنتهم الأيام ، وواجهوا الدنيا بصبر وعمل بلا حدود.

وليس من المبالغة في شيء أن نقول إن الصبية الصغيرة النابغة أم كلثوم كانت البلسم الشافي لجراح المصريين بعد الأيام الحزينة السود التي مرت بمصر خلال سنوات ١٩١٤ ، ١٩١٨ ، وهي أيام الحرب العالمية الأولى ، ففي تلك الفترة كان المصريون يساقون إلي الحرب بطريقة مؤلمة ، ولم تكن هناك عائلة في الريف المصري لم تمسها هذه الجراح بشكل من الأشكال ، وكانت الصبية الصغيرة أم كلثوم بأناشيدها الدينية وتواشيحها القديمة هي المواساة الحقيقية للشعب ، ولعل هذه الصورة التي يرسمها لنا المؤرخ الكبير عبد الرحمن الرافعي تبين لنا قيمة المواساة التي قدمتها الفنانة الصبية للشعب دون أن تدري ذلك أو تفهمه .. يقول الرافعي عن هذه السنوات المظلمة أثناء الحرب العالمية الأولى ، وهي نفس الفترة التي بدأت أم كلثوم ـ في أواخرها ـ تجوب البلاد طولاً وعرضاً وتملأ بالمتعة والسعادة قلوب الفلاحين :

« لقد جندت السلطة العسكرية العمال في مختلف أرجاء البلاد لاستخدامهم في أعمال الجيش البريطاني وبلغ تعدادهم نيفاً ومليون مصري وكانوا يؤخذون كرها باسم المتطوعين ، وما هم بمتطوعين ، ويعاملون معاملة المعتقلين ، ويجرون بالحبال ويساقون كالأغنام ويقام عليهم الحراس ، وينقلون بالقطارات في مركبات الحيوانات ، ويعاملون أسوأ معاملة ولا يعني بصحتهم ولا بغذائهم وراحتهم .. ومات كثيرون منهم في ميادين القتال ، أو في صحراء سيناء والعريش أو في العراق وفرنسا، وأصيب كثير منهم بالأمراض والعاهات التي جعلتهم عاجزين عن العمل، واجتمعت إلي تلك المظالم مظالم أخرى بما لجأت إليه السلطة العسكرية ، من مصادرة الناس في أرزاقهم وحاصلاتهم الزراعية ومواشيهم ودوابهم ، فقد استولت عليها بأبخس الأثمان وبأسعار تقل كثيراً عن أسعارها في الأسواق ، وفرضت علي كل مركز من مراكز القطر المصري مقداراً معيناً من الحبوب يورده إلي

الجيش بهذا السعر البخس ، فكان الأهلون يطلب منـهم في بعض الأحيـان أكـثر مما عندهم ، فيضطـرون تحـت تأثير الضغـط إلي شراء مـا يطلـب منـهم بأسـعار السوق، ويقدمونه كرهاً بالسعر البخس ».

هذا ما كتبه المؤرخ عبد الرحمن الرافعي في وصف أحوال مصر عندما كـانت أم كلثوم في صباها الأول .

وفي هذا الجو الحزين كانت « أم كلثوم » تمسح قرى مصر ، بحثاً عن رزقـها ورزق أسرتها ، في مقابل ما تقدمه من فن إلي جماهير الفلاحين .. وكانت تذهـب إلي هذه القرى المختلفة ، إما مشياً علي قدميها ، وإما راكبة علـي ظـهر حمـار ، وإما في عربة من عربات الدرجة الثالثة في قطارات الدلتا القديمة وما يشبهها.

وهكذا كانت أم كلثوم منذ اللحظة الأولى في حياتها تلعب دوراً سياسياً وإنسانياً في حياة الفلاحين . وكانت بالتأكيد تلعب هذا الدور دون أن تدري أنها تقوم به، وأنها تخفف عن الفلاحين آلامهم ومأساة حياتهم في ظل الحرب والإنجليز ، كل ما كانت تدريه هو أنها تطيع أباها وتساعده في الحصول علي رزقه ورزق الأسرة.

وكانت حياة القرية تفرض نفسها وتقاليدها علـي أم كلثـوم في اختيـار أغانيـها الدينية مـن ناحيـة ، وفي اختيـار ملابسـها الـتي كـانت تظـهر بـها في حفلاتـها المختلفة من ناحية أخرى ، لقد كانت تلبس العقال حتـى تبـدو كالرجـال ، فلـم يكن من السـهل أن تقـف فتـاة وتغـني بـين الفلاحـين دون أن يصيبـها رذاذ مـن الاتهامات الخلقية ، ومن ينظر إلي صورة أم كلثوم « الصبية » مع أخيها خالد ، يحـس أن والدهـا وأهلـها كـانوا يحـاولون أن يخفـوا وراء ملابسـها كـل مظـاهر الأنوثة.. حتى لا يكون هناك حرج وهي تقف وسط الرجال لتغني..

ووصلت سمعة أم كلثوم إلي القاهرة ، بعد أن تمت غزوتها المنتصرة لكل القـرى المصرية ، وجاءت أم كلثوم إلي القاهرة أول مرة لتغني في بيت « عـز الديـن يكـن بك» بحلوان ، وعندما رآها « البك » استهان بها ولم يقتنع بمظهرها ، ولا بـأن

هذه الفتاة الصغيرة قادرة علي الغناء « فركنها » في البدروم ، واستعان بالشيخ إسماعيل سكر ليحيي له حفلته ، وفي آخر الحفلة نادى أم كلثوم ليجربها ، فإذا بأم كلثوم تهز الحاضرين بصوتها .. وعلي رأس الذين اهتزوا « الشيخ إسماعيل سكر » ، نفسه فاخذ يشجعها ويدعوها إلي الإعادة والتكرار ، ثم عادت أم كلثوم إلي القرية من جديد.

وبعد ذلك جاءت إلي القاهرة سنة ١٩٢٣ لتقيم بها وتستقر فيها.

وفي هذه المرة وقعت لها حادثة مما كان يقع عادة للفلاحين البسطاء كلما جاءوا إلي القاهرة ، فقد سرق لص منها « تحويشة العمر » وكانت تبلغ ١٥ جنيهاً ، وقد أصيبت أم كلثوم بعد الحادثة بالصدمة الأولى للمدينة .. أصابها ما يصيب أي فلاح طيب ساذج ينزل إلي المدينة الكبيرة لأول مرة ، فيحتال عليه المحتالون ويسرقونه بطريقة أو بأخرى ويستغلون طيبته وجهله بما في المدينة من فهلوة ونصاحة ، وقد صور نجيب الريحاني بعد ذلك هذا النموذج كثيراً في شخصية «كشكش بك » العمدة الريفي الذي كان يحضر إلي المدينة بعد أن يبيع القطن ..

فيدفع معظم أمواله للمحتالين والمحتالات ويعود مفلساً خاوي الوفاض إلي قريته ! .

ولم تنس أم كلثوم هذه الحادثة بعد ذلك ، وقد ذكرتها مراراً في أحاديثها الصحفية ، لأنها تمثل « الطعم الأول » المر للمدينة الكبيرة في إحساس فلاحة بسيطة هاجرت من القرية .

وفي المدينة الكبيرة ـ القاهرة ـ لم تلبث أن أثارت الانتباه ، فأقبل عليها الجمهور ليستمع إلي صوتها الرائع ، واهتمت بها علي وجه الخصوص أسرة معروفة كبيرة من أسر القاهرة هي أسرة عبد الرازق التي لمع منها في حياتنا الفكرية اثنان هما : مصطفى عبد الرازق وعلي عبد الرازق.

واستفادت أم كلثوم من ارتباطها في البداية بهذه الأسرة ، ولست أعني بهذه الفائدة ما حاوله أفراد الأسرة ذات النفوذ ـ في ذلك الوقت ـ من أن يفتحوا أمامها مجالات العمل ، بل أعني الفائدة الفطرية ، لقد ساعدتها هذه الأسرة علي تحديد اتجاهها في تلك الفترة المليئة بالاتجاهات الفكرية المضطربة ، فقد واجهت أم كلثوم ولا شك في بداية حياتها بالقاهرة عدة أسئلة مختلفة : فهل تظل ملتزمة في غنائها بالأسلوب القديم ، تغني وحولها بعض المشايخ ينشدون وراءها كما كانت تفعل في القرية وفي بداية عهدها بالقاهرة ؟ أو تتبع الأساليب العصرية في الغناء المرتبط بألحان محددة مدروسة ؟.

وكان السؤال بعبارات أخرى :

هل تظل في فنها شرقية مائة في المائة ؟ أو تبحث عن أسلوب غربي مائة في المائة ؟

وكانت هذه الأسئلة هي نفسها ما يواجه كل فنان في بلادنا في تلك الفترة المضطربة بالذات .. سواء أكان هذا الفنان شاعراً أو موسيقاراً أو مطرباً أو كاتب قصة .

وساعدتها أسرة عبد الرازق علي أن تجد الحل الصحيح ، فكثيرون من أبناء الأسرة كانوا يلبسون العمامة ويتحدثون باللغات الإفرنجية الفصيحة ، كان مصطفى عبد الرازق مثلاً شيخاً معمماً ، ومع ذلك فقد تلقى دراسته في باريس وأتقن اللغة الفرنسية ، وظل بعد عودته محافظاً علي زيه الخاص ، رغم أن عقله كان قد ارتبط بالثقافة الغربية واستفاد منها الكثير.

وخلاصة الموقف الذي كانت تمثله أسرة عبد الرازق يقوم علي الجمع بين الشرق والغرب في كيان واحد ، هو المحافظة علي القديم وتقبل الجديد في نفس الوقت ، وهو المزج الأصيل الصادق بين العمامة والقبعة .

وهكذا فعلت أم كلثوم ، إنها لم تتخل عن أساليب الفن الشرقي نـهائياً ، بـل احتفظت بأصول هذا الفن وتقاليده وأضافت إليه وجددته.

وبدأت أم كلثوم هذه المحاولة في الجمع بـين القديـم والجديـد بدايـة شـكلية فخلعت العقال الذي كانت تلبسه في حفلاتها ، وذهبت إلي الحفلات وهي تلبـس الفساتين ، ومع ذلك فلو أتيح لك أن تراها في تلك الفـترة ـ حـوالي سـنة ١٩٢٦ ـ لوجدتها مازالت كما كانت « محتشمة متحفظة » وكأنها مـازالت تلبـس عقالهـا القديم ، ويمكننا أن نراها في هذه الفترة بعين الناقد الفني الصحفي جورج طنـوس الذي كتب عنها في ذلك الحين يقول :

« .. محتشمة في ملابسها كأنها تريد أن تقول أنا مغنية لا ممثلة ، ومغنيـة لا كسائر المغنيات ، في وجهها معاني التفكير ، والألم ، أكثر ممـا فيـه مـن معـاني الفرح والابتـهاج وفي وجهـها جمـال لا أسـتطيع وصفـه .. أهـو عربـي ؟ .. أم يوناني.. أم مصري عصري ؟ أم فرعوني ؟ هي في ربيع حياتها ، فلمـاذا تتعجـل الخريف ؟ لا أدري ! هي غصـن أملـد مثقـل بـالزهور ، ولكنـها تريـد أن تظـهر كشجرة تين في الشتاء .. جرداء من كل ورقة خضراء .. إن الحيـاة تبتسـم لهـا ، ولكنها لا تبادلها البسمات ، هي روح ثائرة متبرمة لكن ثورتـها داخليـة لا تعدو فؤادها الخفاق » .

هذه هي صورة أم كلثوم في ذلك الوقت ، صورة الألم الذي اعتصرهـا ، وصـورة الإخلاص الذي حملته في قلبها من أيامها في الريف ، وصـورة الإحسـاس العميـق بالحياة كأية فلاحة حساسة متفتحة الشعور والوجدان.

لقد تخلصت من العقال ، أي من ملابسها التي فرضتـها عليـها روح الحشـمة والتحفظ في القرية ولبست المدينة ، ولكن هذا كله لم يغير جوهرها فقد ظلت كمـا هي فلاحة متحفظة ، مخلصـة متفانيـة في عملـها الفـني ، لا تنظـر إلي شـيء ولا تهتم بشيء أكثر من نجاحها الفني.

ولو نظرنا إلي أم كلثوم اليوم بعد رحلتها الطويلة العظيمة المنتصرة في عالم الفن، لوجدنا أنها مازالت تميل إلي المحافظة والحشمة في ملابسها التي تظهر بها في حفلاتها وفي غير حفلاتها - رغم أناقتها الشديدة - ولا شك أن هذه الروح المتحفظة قد ترسبت في أعماقها من « الفلاحة » القديمة أم كلثوم.

وهكذا حافظت « أم كلثوم » من الناحية الشكلية - علي الجمع بين القديم والحديث ، فلبست الفساتين العصرية ولكنها لم تتخلص من روح الريف وتقاليده وعاداته .. وحشمته.

علي أن هذا الجانب الشكلي ليس هو المهم في التغير الذي حدث لأم كلثوم في تلك الفترة بعد أن استقرت في القاهرة .. فقد كان التغير الفني أعمق وأهم وأكثر دلالة.

وكان التغير الكبير الذي حدث في حياتها منذ سنة ١٩٢٣ هو مصاحبة الآلات لها في الغناء ، وكان هناك من يعارضون في تنفيذ هذه الفكرة التي دعاها إليها بشدة الأستاذ مصطفى رضا ، وكان من بين المعارضين لهذه الفكرة والدها الشيخ « إبراهيم » والشاعر أحمد رامي .. لقد كانا يصران علي أن تغني بالأسلوب القديم حيث تغني ومن ورائها التخت الشرقي المعروف.

ولكن الفكرة الجديدة انتصرت وبدأت أم كلثوم تغني بمصاحبة الآلات الموسيقية ، وكانت تجربتها الأولى في هذا الميدان تتمثل في قصيدة « لعلي الجارم » مطلعها :

مالي فتنت بلحظك الفتاك

وسلوت كل مليحة إلاك ..

واستمرت أم كلثوم تطور فنها حتى استطاعت أخيراً أن تصل إلي طريقتها الحالية في الغناء وهي الطريقة التي تجمع بين الجديد والقديم معاً . إنها تجمع

بين الأسلوب الشرقي القديم والأسلوب العصري الحديث .. لم تتخل عن القديم ولكنها لم تستسلم له في نفس الوقت ..

وصلة أم كلثوم بالتقاليد الفنية القديمة تعود إلي أيام ارتباطها بأستاذها الأول « أبو العلا محمد » .. كما يعود ارتباطها بالتقاليد الفنية الجديدة إلي سلسلة طويلة من الملحنين مثل : السنباطى ، والطويل ، والموجي ، وبليغ حمدي ، وأخيراً عبد الوهاب.

وقصة أستاذها الأول : أبو العلا محمد قصة إنسانية وفنية رائعة ، لقد عرفها الشيخ « أبو العلا » منذ صباها وتعلق بها بعد أن استمع إليها وأدرك ما يحمله صوتها من إمكانيات العبقرية الفنية.

وكان الشيخ « أبو العلا » فناناً كبيراً وموسيقاراً لامعاً ، وإن لم نكن نعرف عنه كثيراً الآن ، وكان يفهم بعمق أصول الفن الشرقي وقواعده .. وقد أخذ علي عاتقه أن يعلم أم كلثوم ، وأحبته أم كلثوم وتعلقت به ، وكانت تستمع بشغف إلي تواشيحه الدينية وإلي أغنياته العاطفية التي كان يعتمد فيها علي قصائد الغزل المعروفة في الشعر العربي مثل :

أفديه إن حفظ الهوى أو ضيعا.

ومثل :

وحقك أنت المنى والطلب.

ومثل :

غيري علي السلوان قادر.

وتتحدث أم كلثوم عن أستاذها الشيخ أبو العلا فتقول :

« كان الشيخ أبو العلا من أعظم الموسيقيين العرب ، وكان غزير العلم ، رقيق

الشعور ، وقد أتم ما بدأه الأولون وحافظ علي التقاليد الموسيقية العتيدة التي وضعها الأساتذة القدماء وكان آخر تلك السلسلة المرحوم عبده الحامولي ـ الذي توفى سنة ١٩٠١ ـ فاحتل الشيخ أبو العلا مكانه إلي أن توفى سنة ١٩٢٧».

ولا بأس أن نستطرد قليلاً مع أم كلثوم وهي تصف لنا الأيام الأخيرة للشيخ أبو العلا فتقول :

« كان في أيامه الأخيرة مريضاً بالشلل فتعذر عليه أن يلحن أو يغني ، وعندما كنت أذهب لزيارته أنظر إليه وأنا مكتوفة الأيدي لا أستطيع شيئاً أمام عذاب الرجل الذي أحب الغناء والموسيقى والطرب وأوجد ألحاناً ساحرة ».

وعندما مات الشيخ أبو العلا سارت أم كلثوم في جنازته وراء نعشه .. وكان منظرها عجيباً في ذلك العصر ، فلم يكن من المألوف أن تسير امرأة وسط الرجال في جنازة تمشي في شوارع المدينة !

ويمثل إخلاص أم كلثوم للشيخ أبو العلا ووفاؤها له حقيقة شعورها نحو التقاليد الموسيقية الشرقية في صورتها الأصيلة الجادة ، لقد درست أم كلثوم هذه الموسيقى علي يد ذلك الفنان الشيخ دراسة واعية ، وأحبتها وفهمتها بعمق ، بل واستطاعت أم كلثوم أن تحفظ عن طريق الشيخ أبو العلا أدواراً كثيرة لمحمد عثمان ، وعبده الحامولي ، ويوسف المنيلاوي ، وللشيخ «أبو العلا» نفسه ، الذي كان يلحن لها كثيراً من أغانيها في البداية .

وأم كلثوم من هذه الناحية أيضاً تعتبر ثروة فنية وتاريخية رائعة .. لأنها تحفظ ما لا يحتفظ به « أرشيف » ولا تحتفظ به ذاكرة إنسان ولست أدري لماذا لم تحاول أم كلثوم تسجيل ما تحفظه من ألحان وأغان قديمة .. إنها لو فعلت ذلك فسوف تساعدنا علي أن نحتفظ بثروة من تاريخنا الفني لا يمكن تعويضها علي الإطلاق .. ولم يكن يستطيع أن يقوم بهذه المهمة غيرها هي بالذات.

ولاشك أن ارتباط أم كلثوم بتراثنا الفني هو الذي دفعها إلي الاهتمام بالأغاني الدينية . إنها بعد أن جاءت إلي القاهرة لم تنس أنها قد خرجت من القرية المصرية ، وأنها حفظت القرآن ، وأن تاريخنا الفني مليء بالتواشيح والأغاني الدينية ، وأن المشاعر الدينية جزء أساسي من مشاعر الشعب ، ولذلك فقد اختارت بنفسها قصائد شوقي الدينية لتغنيها .. وروي محمد علي حماد ، الناقد الذي عاصر اختيار أم كلثوم لهذه الأغاني الدينية أن هذا الاتجاه عند أم كلثوم قد لقى المعارضة من أصدقائها ، « فقد خافوا أن يكون هذا أول فشل يصادف الفنانة العظيمة التي لم تعرف في حياتها إلا النجاح والفوز .. ولكنها أصرت ، وإن كانت معارضة الصفوة من أصدقائها قد زلزلت إيمانها بعض الشيء ، ولكنها تحدت .. ونجحت ».

ولقد كانت أم كلثوم علي صواب في اختيارها هذا اللون من الأغاني الدينية ، لأنها تعرف أن المشاعر الدينية عند الشعب أصيلة .

ورغم أن أم كلثوم استطاعت أن تصل إلي قلب الجماهير في القاهرة بسهولة إلا أنها وجدت بعض العناء والمقاومة في الحياة الفنية ، بل لقد دخلت معارك كبيرة مع منيرة المهدية ، وكانت منيرة هي التي بدأت المعركة وأشعلتها ضد أم كلثوم ، وقد تألمت « أم كلثوم » من هذه المعركة ولكنها خرجت منتصرة.

وكان من أثر هذه المعركة أن النقاد المناصرين لمدرسة منيرة المهدية أخذوا يشنون غارات نقدية ضد أم كلثوم في البداية ، ومن أقوال هؤلاء النقاد في تلك الفترة : إن « أم كلثوم » ترسل الغناء إرسالاً بغير قطعة من قطع الطرب تمهد لها سبيل الأنغام ، ومن أقوالهم أيضاً : « أنه زيادة علي حسن الصوت ورخامته يوجد شيء اسمه الفن ، وأم كلثوم تسير مع طبيعتها فقط وهذا لا يكفي في الواقع لكي يكون فناً » ومن أقوالهم كذلك : « إن في صوتها جفافاً ملموساً تنفر منه الآذان ».

ولم تقتصر محاربة أم كلثوم في بدايتها علي أقوال هؤلاء النقاد ، ولكن الحرب امتدت إلي أكثر من ذلك وأخطر ، فقد كتبت إحـدى المجلات في هـذه الفـترة ، حوالي سنة ١٩٢٦ ـ تقول :

« لقد بلغ من خصومة السيدة منيرة للآنسة أم كلثوم أنها سمعت مرة أن أحـد مستأجري الحفلات قد أجر مسرح برنتانيا لإحياء حفلة للآنسة أم كلثوم ، وكـان خالياً في تلك الليلة لأن فرقة السيدة منيرة المهديـة كـانت ستسـافر لإحـدى مـدن القطر فألغت السيدة منيرة الحفلة التي كانت ستحييها في السفر وفضلت أن تبقى في القاهرة حتى لا تترك المسرح خالياً لأم كلثوم » .

هكذا بصراحة أعلنت منيرة المهدية الحرب علي أم كلثوم ، ولكن التطور الفني كان في مصلحة أم كلثوم فخرجت من هذه المعركة منتصرة ، وكان انتصارها سريعاً وساحقاً .. وكان السلاح الأساسي لأم كلثوم في هذه المعركة هـو أنـها تعتمـد علـي موهبتها فقط ، ودربت نفسها تدريباً قاسياً إلي أبعد حـد . وقـد قـال أحـد النقـاد المحايدين عن منيرة المهدية في ذلك الحين :

« كثيراً ما تستمع إليها فتلمس الاختلاف بين ما تنشـده وتعزفـه الموسيقى ، وهذا أوضح عيوبها . وإذا كانت لا تستطيع إصلاحه فمرجع هذا إلي الطبيعـة وإلي ما أخذت به السيدة منيرة نفسها من الإهمال وعدم التدرب الصحيـح علـي أيـدي أساتذة الفن » .. وقارن ناقد آخر بين أم كلثوم ومنيرة المهدية فقال: « إن منـيرة صوت جميل بلا فن ، ولكن أم كلثوم صوت تساعده أذن موسـيقية مرهفـة ذواقـة نقادة وعلى علم بأصول فن الموسيقى ».

وهكذا كانت منيرة المهدية موهبة بلا دراسة ، أما أم كلثوم فهي موهبة مقترنة بالدراسة العميقة الواعية . لذلك كان النصر مـن نصيـب أم كلثـوم منـذ البدايـة ، لأنها لم تتهاون لحظة واحدة في تعليم نفسها .. لقد كانت تعرف ما يتطلبه فنـها من جهد كبير صعب . ولم تلبث الأصوات التي ارتفعت بالهجوم عليها أن خفت

ثم تلاشت .. وانتهي بذلك عصر منيرة المهدية ، عصر الارتجال ، والموهبة التي لم تنظمها الدراسة ولم يهذبها الوعي الفني ، عصر « أمان أمان » والأنغام التركية المفتعلة ، والتأوهات الجنسية الصارخة وبدأ مع أم كلثوم عصر الدراسة والوعي والفهم ، عصر الإثارة العاطفية والروحية قبل أي شيء آخر ، واستطاعت أم كلثوم أن تنتصر في معارك أخرى صادفتها في البداية .

انتصرت علي تيار الأغاني المبتذلة التي كانت شائعة في هذا العصر ، فرفضت تماماً أن تستسلم لهذا النوع من الأغاني ، وكانت تبحث عن نصوص غنائية نقية رفيعة مهذبة. ولكي نتصور الابتذال الذي كان منتشراً في أغاني تلك الفترة يمكننا أن نقرأ هذا النموذج الذي يعتبر نسبياً نموذجًا مهذباً .. تقول أغنية من أغاني هذه الفترة :

أشبكها وأحبكها بمتين دبوس
وأنزل علي صورتك
وأعض وأبوس
حتتك بتتك

مثل هذه الكلمات كثيرًا ما كان يرددها المطربون ومن بينهم منيرة المهدية . ولكن أم كلثوم قاومت هذا التيار ورفضته ، ولم تنس أبدا أنها حفظت القرآن في طفولتها وأنها كانت تنشد الأغاني الدينية الرفيعة ، وأنها كانت تحفظ الكثير من أرق قصائد الشعر العربي ! !

وانتصرت أم كلثوم في معركة ثالثة فقد كان عليها أن تكسب للفن احتراماً حقيقياً في المجتمع . وكان الفن في تلك الفترة يرتبط في أذهان الكثيرين بمعنى الانحلال والبعد عن الحياة المحترمة المهذبة . ومنذ أيام الحفلات الماجنة التي كانت تقيمها بعض البيئات الأرستقراطية المتأثرة تأثراً سطحياً بالحياة الأوروبية ، حتى بداية حياة أم كلثوم الفنية ، وكان الفن ، وخاصة فن الغناء مرتبطاً في الأذهان بالمجون والعبث . ويكفي أن نتذكر موقف عبده الحامولي وهو ألمع فنان

في عصر الخديوي إسماعيل والذي ظل سيد الفن الموسيقي والغنائي في مصر حتى أول هذا القرن .. هذا الفنان الكبير عندما تزوج من المطربة المشهورة « ألمظ » حرم عليها الغناء ومنعها من ممارسة هذا الفن . ودخل في أزمة عنيفة مع الخديوي إسماعيل بسبب هذا الموقف . فإذا كان عبده الحامولي الفنان يعتبر اشتغال المرأة بالفن عاراً .. فكيف تكون الحال بالنسبة لمن لا يشتغلون بالفن ؟!

وحادثة أخرى وقعت لمنيرة المهدية ، فقد كان مجلس الوزراء ينعقد في عوامتها التي كانت تملكها وتقيم فيها علي شاطئ النيل في بعض الأحيان ، ومع ذلك يروي لنا التاريخ في تلك الفترة هذه الحادثة :

« لقد قبل أحد الوزراء يد منيرة المهدية بعد أن شاهد أوبريت كليوباترا ومارك أنطونيو واعتبرت المقامات العالية هذا العمل لا يليق من وزير فأخرجته من الوزارة » .

وهذه النظرة إلي الفن عانت منها أم كلثوم كثيراً في البداية.

لقد كان هناك إقبال علي الفن .. ولكن لم يكن هناك احترام حقيقي له . بل كان الفن مثل المخدرات ، شيئاً يتم الاهتمام به ـ عند هواته ـ في السر ، أما في العلن فإن ذلك لا يجوز.

وقد عانت أم كلثوم كثيراً من هذه النظرة ، ولكن أم كلثوم كافحت حتى انتصرت وكان انتصارها هو أنها غيرت النظرة إلي الفن واستطاعت أن تكسب لنفسها ولفنها احتراماً كبيراً ، وإن هذا الأمر قد اقتضى منها مجهوداً ضخماً ، ولكن ما كسبته لم يكن لنفسها فقط .. بل لمصلحة الفن والفنانين في بلادنا ، لقد استطاعت أن تكسب احترام كبار المثقفين والفنانين في بلادنا فكتبوا عنها وتأثروا بها .. كتب عنها العقاد ، وتوفيق الحكيم ، وزكي مبارك، وكامل الشناوي ، ورامي ، وسمى نجيب محفوظ ابنته الأولى باسم « أم كلثوم » تعبيراً عن حبه للفنانة الكبيرة وإعجابه بها ، وكتبت عنها الدكتورة نعمات فؤاد كتاباً قيماً مليئاً بالمعلومات والعواطف الصادقة .

هذه الشخصية الفذة التي تمثلها أم كلثوم والتي استطاعت أن تكتسح العقبات الكثيرة التي وقفت في طريقها .. هل كانت تعتمد علي موهبتها فقط؟

كلا .. إن عبقرية أم كلثوم تعتمد علي عناصر أخرى كثيرة أحاطت بموهبتها وساعدتها علي أن تقف علي القمة الفنية التي احتلتها طيلة حياتها.

ومن أهم العناصر في عبقرية أم كلثوم ثقافتها التي كونتها بالجهد والمتابعة . فقد قرأت أم كلثوم مع رامي - علي سبيل المثال - عدداً كبيراً من أمهات الكتب العربية القديمة والحديثة .. قرأت معه كتاب « الأغاني » و « مختارات البارودي » و « ديوان شوقي » ، وقرأت لكثير من شعراء العرب القدماء . وقد أحاطت نفسها علي الدوام بعناصر من أفضل المثقفين والأدباء والمفكرين في عصرها.. فساعدها هذا كله علي أن تحس بروح العصر ولا تتخلف عنه أبداً . وقد اهتمت بثقافتها الأدبية اهتماماً كبيراً ، لمعرفتها أن هذا النوع من الثقافة يساعدها علي تربية ذوقها ، ويساعدها علي الإحساس بكلمات أغانيها ، ويعطيها قدرة عالية علي فهم المعني الكامن وراء هذه الكلمات ، فتتمكن من أدائه أداء عميقاً مناسباً.

وأم كلثوم تحرص دائماً علي أن تبذل أقصى جهدها في أي عمل تقوم به، وهذا سر آخر من أسرار عبقريتها ، فهي تجرى عادة أكثر من ثلاثين بروفة لأي أغنية جديدة قبل أن تقدمها للجمهور . ولم تفارقها هذه العادة حتى عندما كانت تعمل في السينما ، حيث مثلت ستة أفلام ، وقد قال عنها أحد المخرجين : « إنها عندما كانت تقبل الدور الذي ستمثله كانت تحرص علي دراسته بدقة ، فتقرأ السيناريو بعناية ، وتعيش فيه ؛ وتحفظ الحوار حفظاً تاماً متقناً » .

ويمكننا أن نقارن هذا الكلام بما قالته إحدى الممثلات منذ أيام من أنها تدخل الأستوديو بعد ساعتين من الاتفاق علي الفيلم !

وإلي جانب هذه الدقة في أداء عملها فإن من عادة أم كلثوم في العمل أن تحترم

رأي المتخصصين ولا تتدخل فيه أبداً ، ويقول عنها نفس المخـــرج السينمائي : « إنها كانت تبدي اهتمامـاً بالغـاً بـرأي المخـرج والمصـور والماكيـير ، تنصت إلي ملاحظاتهم وتنفذهـا بدقـة دون اعـتراض او تذمـر .. ولا أذكـر أبـداً أن أم كلثـوم تأخرت عن الموعد المحدد مرة واحدة .. في الدقيقة والثانية تكـون في الأسـتوديو . وهي لا تتدخل أبداً في اختصاصات أحد كل شيء متروك للمتخصصين » .

وقد سألها فكري أباظة مرة كيف يشاء الله لـك هـذا النبـوغ ، وهـذه العبقريـة وهذا المران الطويل علي الحفـظ والتنغيـم والـترنيم ولم تفكـري مـرة في أن تضربـي بأناملك الرقيقة علي العود أو القانون أو تلحني ؟

وكان جوابها علي فكري أباظة : « إنني من المعتنقين مبدأ « ما لقيصر لقيصر وما لله لله » ، فضلاً عن أنني مهما تدربت علي العود أو القانون فلن أطاول أفذاذ الفنـانين والملحنـين ولا تقبـل غريزتـي أن أكـون الثالثـة أو الرابعـة أو العاشـرة أو الأخيرة.

ومن هذا الاحترام للتخصص ، والاحترام لعمل الآخرين تنبـع صفـة أخـرى في شخصية أم كلثوم هي إخلاصها وتفانيها في أداء عملها الفني ، وحسـبنا أن نقـرأ وصف عبد الوهاب لها وهي تغني .. وهو الوصف الذي نصدقه جميعاً لأنه وصف لما نراه بالفعل .. يقول عبد الوهاب:

« من مظاهر إخلاصها ما يراه المستمع في أم كلثوم ..

إنه لا يري مطربة تغني ولكنه يرى فنانة تتعب ، فنانة تعرق ، تعطي كل مـا عندها للمستمع دون أن تضن عليه .. إنها تعطيه دموعها وأنفاسها وليس صوتــها فقط ».

وكل من شاهد أم كلثوم وهي تغني يدرك تماماً صدق هذه الكلمات الـتي قالهـا عبد الوهاب.

ويمكننا أن نضيف إلي أسرار عبقرية أم كلثوم أنها تعرف شعبها وبلادها معرفة جيدة ، وتعرفها بالصلة المباشرة والتجربة الشخصية منذ أن كانت صبية صغيرة تجوب القرى والأقاليم .. لقد عرفت ذوق الشعب ومزاجه ، وفهمت مشاعر الجماهير المختلفة فهماً أصيلاً عميقاً ، ولذلك كله تربت لديها حاسة تمكنها من معرفة الجمهور الذي تغني له ، حتى تستطيع أن تقدم له ما يرضيه ويحبه ويتجاوب مع إحساسه وشعوره وذوقه.

وليس في هذا الموقف ما تلام عليه الفنانة الكبيرة ، بل هو من جانبها احترام عميق للجمهور وتقدير له ، وأم كلثوم لم تحاول أن تنزل إلي مستوى النزوات العابرة التي يمكن أن يحس بها هذا الجمهور أو ذاك .. وإلا كانت قد انساقت مع الأغاني المبتذلة ، التي تفيض بالعبارات الجنسية الصارخة .. والتي كانت منتشرة عندما بدأت أم كلثوم حياتها الفنية ،ولكن أم كلثوم رفضت ذلك تماماً ، وصممت علي أن تغني أغانيها المختارة الراقية ..

وفي حدود هذا الموقف الفني كانت تحاول دائماً أن تتجاوب مع جماهيرها المختلفة .

وأخيراً فان من أعظم أسرار عبقرية أم كلثوم قدرتها الفنية الخارقة علي أن تسيطر علي الوسائل الآلية الجديدة دون أن تفقد شيئاً من قيمتها الفنية . فقد غنت أم كلثوم بدون ميكروفون ونجحت نجاحاً كبيراً .. ثم غنت أمام ميكروفون، وكان صوت أم كلثوم هو أول صوت سجلته الإذاعة المصرية في حفل تاريخي خارجي سنة ١٩٣٥ . وعندما ظهرت السينما في بلادنا اشتركت فيها وقامت بتمثيل ستة أفلام ، ونجحت في أفلامها وأثنى عليها النقاد كممثلة ثناء كبيراً ، وكان من أفلامها المعروفة « دنانير » و « فاطمة » و « نشيد الأمل » و « وداد ».

وأخيراً عندما ظهر التليفزيون في بلادنا سنة ١٩٦٠ ، نجحت حفلات أم كلثوم التي قدمها التليفزيون نجاحاً كبيراً.

وهذا كله اختبار ضخم لمعدن أي فنان ، فهناك فنانون ينجحون في رسائل معينة ولا ينجحون في غيرها ، وهناك فنان ينجح أمام الميكروفون ولا ينجح بدون ميكروفون .. وهناك فنان لا ينجح أمام الميكروفون وينجح بدون ميكروفون وهناك من ينجح كمطرب ولا ينجح كممثل .. إلخ

ولكن أم كلثوم استطاعت أن تستفيد من جميع وسائل التقدم العلمي في الفن .. ولم تفقد موهبتها شيئاً بل تألقت دائماً واستطاعت أن تنجح في كل تجربة، وقد ساعد هذا كله علي زيادة جمهورها واتساع قاعدته في شتى أنحاء الوطن العربي.

وأخيراً .. ماذا يمكن أن نقول ـ في إيجاز ـ عما قدمته أم كلثوم إلي الحياة الفنية العربية ؟!.

لقد قدمت الكثير فارتفعت بمستوى الأغنية العربية عندما اهتمت إلي أقصى حد باختيار كلماتها وحاولت باستمرار أن تختار نصوصاً لها جمالها وقيمتها سواء في الأدب الحديث أو الأدب القديم ، ومعظم أغانيها من هذه الناحية جميلة رقيقة أحسنت أم كلثوم اختيارها .. كل ذلك بالإضافة إلي دقة أدائها ووضوح الكلمات والحروف في صوتها حتى لقد قال عنها أحمد رامي:

« .. إذا أردت أن تكون شاعراً فاقرأ الجيد من الشعر العربي والعالمي ، وأكثر من الاستماع إلي أم كلثوم .. وذلك لأن أم كلثوم تجلو الألفاظ فتجعلها واضحة مشحونة بالعاطفة وتخلق لدى من يسمعها في نهم إحساساً عميقاً بالكلمة والنغم وعذوبة الأداء ».

واستطاعت أم كلثوم أيضاً أن تخدم الموسيقى العربية .. ويقول الفنان سامي الشوا : « أنه لولا أم كلثوم لما ظل للموسيقى العربية طابعها التقليدي ، فمنذ سبعين عاماً كان المغني يغني التواشيح والقصيدة ثم جاءت فترة تجارية راجت فيها الطقاطيق ثم عادت بنا أم كلثوم إلي القصيدة وبهذا حفظت للموسيقى الشرقية جانباً كبيراً من أصالتها ».

ولم يقتصر الإعجاب بأم كلثوم علي الشرقيين والعرب فقط ، بل إن كل من سمعها من الغربيين أبدى إعجابه وحماسته لفنها العظيم .

قالت عنها الممثلة الإنجليزية الكبيرة « فيفيان لي » بعد أن استمعت إليها في القاهرة سنة ١٩٤٣ أثناء الحرب العالمية الثانية :

« إنها معجزة من معجزات الدنيا ».

واستمع إليها سنة ١٩٢٦ موسيقار أمريكي كبير فقال :

« الآن فقط فهمت الموسيقى العربية ، وتذوقت حلاوتها وأمكنني أن أستمتع بها وأفهم لها معنى ، إن هذه الآنسة فخر الشرق ، وفخر الموسيقى الشرقية ولو أرادت هذه الفتاة أن تأتي معي إلي أمريكا وأن تنقطع مدة طويلة لدراسة الموسيقى الغربية لكان لها شأن كبير».

هذه مجرد أمثلة من آراء الغربيين الذين استمعوا إليها في فنها وعبقريتها الأصيلة .

ولا يمكننا أن ننهي هذه الرحلة مع عبقرية أم كلثوم دون أن نشير إلي القيمة السياسية التي تمثلها في حياتنا ..

فأم كلثوم عامل أساسي من عوامل وحدة الذوق والشعور في الوطن العربي كله ، إن العرب في كل مكان يرتبطون بصوتها ارتباطاً عميقاً ، ويعرفون بعضهم من خلال وحدة العواطف التي تثيرها أم كلثوم في قلوبهم .

وقد قال عنها أحد الفنانين الغربيين يوماً : « إنني كلما ذهبت إلي بلد عربي أو فيه عرب وجدت الجماهير تلتف حول أغانيها ، يسمعونها كأن بهم سحراً».

وما يقوله الفنان الغربي ينطبق تماماً علي محبة العرب جميعاً لأم كلثوم وارتباطهم بفنها ارتباط عميقاً .

وأم كلثوم تقوم بدور كبير في تدعيم اللغة العربية بأغانيها الفصيحة ، وأغانيها العامية معاً ، وذلك لأن أداءها للحروف والكلمات هو أداء سليم يتميز بالوضوح والصفاء الكامل ، كما أن أغانيها العامية قريبة إلي العربية الفصحى ، وقليل من هذه الأغاني العامية ما يبتعد عن الفصحى ابتعاداً كبيراً فعندما تغني أم كلثوم من كلمات رامي هذين البيتين :

فضلت أعيش بقلوب الناس

وكل عاشق قلبي معاه

شربوا الهوى وفاتوا لي الكاس

من غير نديم أشرب وياه

عندما نسمع هذين البيتين ندرك تماماً أنهما قريبان جداً إلي العربية الفصحى، فكلمات البيتين في معظمها فصيحة تماماً ولم يدخل عليها التعديل إلا في بعض الألفاظ مثل « وياه » و « معاه » و« فضلت » .. أما بقية الألفاظ فهي عربية فصحى.

وبعد .. إن أم كلثوم في حياتنا هي ملحمة كبيرة رائعة استطاعت أن تعبر عنا منذ صباها الأول وخلال ما يزيد علي ستين عاماً متصلة ، فأحبتها أجيال شعبنا المختلفة من رجال ونساء وأطفال .. من عاشقين وعاملين ومتصوفين وثوار .. لأنها عبرت عن كل هذه المشاعر .. عن الحب والعمل والثورة والتصوف.

من أجلنا بدأت هذه الملحمة من القرية المصرية .

ومازالت هذه الملحمة الفنية تعيش في قمتها بين ربوع الوطن العربي كله من الخليج إلي المحيط.

لقاء مع أم كلثوم

كنت[1] في طفولتي أتصور أن كلمة « أم كلثوم » وكلمة « غناء » هما لفظان لمعنى واحد .. ذلك لأنني - في قريتي - كنت أسمع اسم أم كلثوم يتردد علي كل لسان ، فالصبايا الصغيرات من بنات القرية يتحدثن عن أم كلثوم ويرددن أغانيها ، والفتيان يبتهجون بهذا الاسم ويفرحون به كلما سمعوه أو تحدثوا عنه.

والرجال الكبار أيضاً يحبون أم كلثوم ويتحدثون عنها في سعادة غامرة .. وكنا نحن أطفال القرية نعرف أم كلثوم ، ولم يكن لهذا الاسم في أذهاننا أي معني سوى أن كل من يغني في أي زمان أو مكان هو « أم كلثوم » فإذا سمعنا فتاة تغني جرينا لنسمع أم كلثوم ، وإذا سمعنا في الراديو - أي غناء - تجمعنا لنسمع أم كلثوم حتى لو كان الذي يغني رجلاً وليس امرأة !.

ولم نكن نفهم شيئاً ، ولكننا كنا نتباهى إننا - مثل الكبار - نسمع أم كلثوم وهذه حقيقة حية لمسناها - وبسذاجة الأطفال - فقد اخترقت « أم كلثوم » كل الاختلافات الجزئية القائمة بين الناس ، وأصبحت صوتاً للجميع ، يحبه الجميع ، ويجدون في ظله سعادة القلب.

فإذا أردت أن تقول عن أم كلثوم إنها مطربة المثقفين صدقت .. وإذا أردت أن تقول إنها مطربة البسطاء صدقت ، وأنت صادق إذا قلت أي شيء آخر عن هذا الصوت العظيم : فهي مطربة القرية ، وهي مطربة المدينة ، وهي مطربة العشاق ، وهي مطربة المتصوفين.

---

(١) أجريت هذا الحديث مع أم كلثوم في بيتها بشارع " أبو الفدا " في الزمالك في أواخر سنة ١٩٦٦ بحضور ابن شقيقتها الصديق المهندس محمد دسوقي أمد الله في عمره.

مثل هذه القوة الفنية لم تتوفر لفنان آخر ، فالفنان الناجح عادة له جمهوره الخاص المحدود ، أما « أم كلثوم » فجمهورها هو كل الناس في الوطن العربي . حتى الذين يأخذون موقفاً معادياً من فنها وصوتها ، لسبب أو لآخر، لا يستطيعون مواصلة الطريق ، فإنهم حتماً يستسلمون لهذا الصوت العظيم بعد خطوة أو خطوتين في طريق الحياة !

وبالنسبة لي ـ بعد أن تجاوزت مرحلة الطفولة ـ لم يكن لقائي الفني بصوت أم كلثوم لقاء سهلاً علي الإطلاق ، فقد قضيت مرحلة من حياتي ، وأنا أتصور أن هناك مبالغة غير عادية في تقدير صوت أم كلثوم ، وأذكر أنني قلت هذا الرأي لبعض الأصدقاء فقال لي أحدهم يوماً ، وكان أكبر مني وأخبر مني بالفن والحياة:

اصبر .. أنت لا تستطيع أن تتذوق صوت أم كلثوم بصورة كاملة وأنت صغير السن والتجربة .. لابد أن تكبر وأن تجرب ، وأن تعرف أكثر مما تعرف .. فصوت أم كلثوم يحتاج إلي وجدان عرف الحياة .. لا إلي وجدان طازج هش .. وغضبت يومها من صديقي الذي كان يصفعني بكلامه ويصفني بعدم النضج .

ولكنني بعد سنوات عرفت أن صديقي كان علي حق .. وأنني كنت صاحب وجدان هش..

لقد عرفت ـ مع الأيام ـ حقيقة صوت أم كلثوم !

وعرفت أن تجربة الحياة العميقة تنبض في هذا الصوت العظيم !

وعندما فكرت في لقاء أم كلثوم كنت أسأل نفسي ماذا يمكن أن أجد عند أم كلثوم أعظم من صوتها وفنها ؟ وهل يمكن أن أقدم للناس عن أم كلثوم شيئاً أحلي مما يعرفونه ؟ .. لقد كنت متردداً في لقائها طويلاً .. ولكنني في آخر الأمر قلت : فلتكن مغامرة .. ولأذهب إلي أم كلثوم .. وأنا في طريقي إليها في الساعة السادسة مساء الأحد ٣٠ أكتوبر سنة ١٩٦٦ .. كنت أفكر في خواطر مبعثرة لا يجمع بينها شيء !.

تذكرت المقال الجميل الذي كتبه يوما أديب كبير ، هو الدكتور زكي مبارك عندما التقى بأم كلثوم لمدة ساعة وربع الساعة .. وخرج زكي مبارك ليكتب مقالاً بعنوان « ٤٥٠٠ ثانية مع أم كلثوم » .. لقد كان زكي مبارك عاشقاً من عشاق أم كلثوم .. رغم أن زكي مبارك كان لا يعجبه العجب .. وكان يمسك خنجراً عنيفاً يمزق به عصره ورجال عصره !

ولكن هذا الغاضب العظيم .. كان يذوب حباً في صوت أم كلثوم .. ويعتبره هدية من الطبيعة لأرضنا .. كأنه النيل ، أو كأنه الوادي الأخضر العظيم !

وفي الطريق إلي أم كلثوم قلت لنفسي أيضاً :

يجب أن أبحث عن « ظلال الصورة » في شخصية أم كلثوم ، يجب أن أعرف هل في عبقريتها سر يمكن فهمه ومعرفته .. أم أن هذه العبقرية الفنية ستظل لغزاً غامضاً نستمتع به دون أن نفهمه ، ودون أن نعرف عنه شيئاً ؟

تمنيت أن أعرف شيئاً عن هذا السر لأقدمه للناس .

ووصلت إلي « فيللا » أم كلثوم بالزمالك ، ودخلت حجرة الصالون .. بيت هادئ ، نظيف ، أنيق ..

لا أدري من أين جاءني الإحساس ، بأنني داخل بيت نوراني ، فيه الهدوء ، وفيه الإشراق والأناقة الداخلية العميقة .. لا يوجد في البيت قطط ، ولا توجد في حديقته الواسعة كلاب ، كل شيء هادئ ، حتى البواب الذي يجلس أمام « الفيللا » حتى « السفرجي » الذي فتح لي الباب .. الهدوء الأنيق يملأ المكان بالعطر الجميل .

بعد لحظات قليلة دخلت أم كلثوم .. أول مرة أراها وجهاً لوجه .. سيدة سمراء لو رأيتها في أي مكان في العالم لقلت هذه السيدة من مصر .. إنها بنت مصر ، بنت القرية .. وامتلأت نفسي بالرضا والراحة فأنا أحب ـ بلا حدود ـ هؤلاء الذين يذكرونني بالقرية المصرية ، ربما لأنني عشت فيها فترة طويلة من

حياتي ، وخرجت من هذه الفترة بإحساس، لا أستطيع التخلص منه ولا مناقشته.. هذا الإحساس هو : أن أهلنا الحقيقيين هم أبناء القرية ، وأن أجمل ما فينا دائماً ينبع من القرية .. لا العلم ، ولا المنطق ، يفسران لي هذا الإحساس.. ولكنني أحب دائماً كل من يذكرني بالقرية .. وأحس دائماً بالاطمئنان والأمان كلما التقيت بإنسان يذكرني بهذا الشعور العميق الكامن في روحي .

بنت مصر صحيح .. سمرتها من سمرة النيل ، لقاؤك معها يزيدك حباً لها واقتناعاً بمهابتها وعبقريتها الفنية..

وبدأت أم كلثوم تتحدث .. كأنني أعرفها منذ زمان .. إنها تدفعك بسرعة إلي جو من الألفة الأصيلة التي لاشك فيها.

وكان كلامها بسيطاً واضحاً ، ولكنه ينم عن شخصية قوية ، وليست قوتها من النوع الذي يحاول أن يسحق ما أمامه .. ولكنها قوة من نوع آخر .. كالظلال الحلوة تلقيها شجرة كبيرة .. قوة رقيقة حنون وليست قوة عاتية.

هل ابدأ الحديث مع أم كلثوم ؟ هل أحمل إليها الأسئلة وأخرج قلماً وورقة؟ ونبدأ تحقيق « النيابة العامة » أقصد التحقيق الصحفي ؟

من داخلي انطلق صوت غاضب ، خفت أن يسمعه أحد في الشارع ، قال الصوت : إن أم كلثوم تتكلم . فاستمع ولا تسأل !

وانساب الحديث من صاحبة الصوت العظيم ، بسيطاً جميلاً .. واستمعت .. وإن كان لابد من الأسئلة ، فليكن ذلك في ختام اللقاء .. ليكن في الختام .

لقد عادت أم كلثوم من أوروبا منذ فترة قليلة .. أنها تحدثني عن ملاحظة لها في الرحلة :

« شاهدت بعض الفرق الاستعراضية في باريس وقيل لي هناك : إن البرنامج يستمر سنوات طويلة تصل أحياناً إلي عشر سنوات . ورغم أن المقصود بهذه البرامج هو أن تكون برامج تسلية ، إلا أن مستوى « الإتقان » مستوى فى منتهى

الارتفاع والتألق ..وهذا هو الشيء الذي يلفت النظر ، والذي يجب أن نتعلمه بصورة واضحة ، ونتعلمه إلي أقصى حد ،لا تنقصنا الإمكانيات البشرية ولا المواهب ، ولكننا بحاجة إلي أن نتعلم الإجادة المطلقة لكل شيء، والإتقان المطلق لكل ما نقوم بعمله.

فالإجادة والإتقان هما طريق « البقاء » لأن الشيء الذي تبذل فيه جهداً كبيراً يعيش عمرًا أطول ، بينما الذي يتم « بسرعة وكلفته » يموت بسرعة أيضاً . ويقتضي منك أن تغيره بسرعة وتتكلف مجهوداً أكبر .. أي أن الإتقان في النهاية يحتاج إلي إرادة قوية ورؤية مخلصة أصيلة للمستقبل .. وهذا المنطق ينطبق علي الفن ، وينطبق علي كل شيء في الحياة أيضاً.

في الفن مثلاً .. إن أي لحن أقدمه للناس ، يعيش طويلاً قبل أن يسمعه أحد، إنني أحب أن أعيش مع اللحن سنة كاملة أردده وأحس بكل ما فيه، وأعرف كل شيء عنه بدقة كاملة . سنة كاملة « أعايش » فيها اللحن «معايشة » دقيقة ، لا يتركني ، ولا أتركه حتى يصبح جزءاً من روحي وكياني فأقدمه حينئذ للناس ونفس الشيء بالنسبة « للكلمات » . إن كلمات الأغنية تهمني إلي أقصى حد ، بل إنني أعتبرها أساس اللحن وأساس الأداء أيضاً .. الكلمات المبتذلة ، أو الكلمات الركيكة الضعيفة التي لا توحي بأي معنى كيف يمكن للملحن أن يخرج منها بشيء ؟ وكيف يمكن للمطرب أن يؤديها ؟ لابد أن «تطربني » الكلمات ، وتهزني قبل أن أقدمها للناس ، وأنتظر منهم أن يتأثروا بها ويطربوا لها !

عندما يقول «بيرم » مثلاً في قصيدة النيل « شمس الأصيل دهبت خوص النخيل يا نيل » .. عندما أسمع هذه الصورة الشعرية فإنني أطرب وأتأثر ، فهنا شعر .. شعر جميل رقيق ، صورة لا يستطيع أن يرسمها إلا فنان أصيل . فعندما تسقط أشعة الشمس في الأصيل علي الأوراق الخضراء ، فإنها تحيلها إلي أوراق صفراء .. ولكن اللون الأصفر هنا هو رمز لقوة الحياة ، وليس رمزاً للذبول والانطفاء ، لأن هذا اللون هو ثمرة اللقاء بين «الشمس وخوص النخيل ومياه النيل » .. ،ولذلك فاللون الأصفر هنا هو لون الذهب ، والصورة الشعرية هنا هي

صورة « مهرجان للحياة » .

« هذا هو الشعر الحقيقي الذي يمكن أن نغنيه ونلحنه وننتظر من الناس أن يحبوه وأن يتأثروا به ».

أم كلثوم تواصل الحديث :

« لقد كان من رأيي دائماً الاهتمام بالشعراء لأنهم كانوا حتى وقت قريب يتقاضون أجوراً تافهة من الإذاعة ، لم تزد مع أنجح شاعر منهم علي خمسة عشر جنيهاً .. وهذا أمر مؤسف فالشاعر فنان .. مثل الملحن والمطرب ، فلماذا نعامله علي أنه أقل الجميع قيمة وأقلهم أهمية ؟ . وقد دافعت دائماً عن حقوق الشعراء، وأسعدني الآن أنهم بالفعل قد بدأوا يأخذون نسبة من حق بيع الأسطوانة ، وحق الأداء العلني ، وكما نشرت الصحف فإن أحمد شفيق كامل قد نال من أغنية « إنت عمري » ستة آلاف جنيه . وأنا أعتقد أن هذا المبلغ حق طبيعي لشفيق ، مادام قد قدم أغنية ممتازة ، ثم نجحت هذه الأغنية ، وهذا هو الطريق الصحيح.. أن نحترم الشاعر .. ونعطيه حقه .. لأن الشاعر هو « أبو الكلمة الجميلة » والكلمة الجميلة لا غنى عنها حتى يستطيع اللحن الجميل أن يظهر.. وحتى يستطيع الصوت الجميل أن يؤدي شيئاً له قيمة » .

يجرنا الحديث إلي فنون العصر ، وذوق العصر ، وفي تحمس واقتناع تقول أم كلثوم :

« إننا في عصر الترانزستور[1] ولذلك فالإذاعة المسموعة هي أخطر الفنون لا أحد يستطيع أن يمنعها ، لا أحد يستطيع أن يقف في وجهها ، كل الناس يستطيعون أن يسمعوا الإذاعة في أي مكان .. ولهذا فأنا مؤمنة بضرورة الاهتمام - بلا حدود - بالإذاعة . ونحن نهتم بالإذاعة فعلاً . وعندنا إذاعات متعددة .. فأنا أحياناً ألاحظ أن هناك أغنية لي أو لغيري ، أسمعها أكثر من مرة في اليوم الواحد.

(١) كان هذا الحديث بيني وبين أم كلثوم سنة ١٩٦٦ . والآن سنة ٢٠٠٤ ، ولم نعد في عصر الترانزستور وإنما أصبحنا في عصر الأقمار الصناعية.

وليس هذا سليماً علي الإطلاق .. يجب أن تكون هناك « عقلية » أشبه بعقلية **« المايسترو » تنظم كل** شيء وتمنع التناقض والتضارب بين الإذاعات المختلفة ..

وياليتنا نعود إلي فكرة المجلس الأعلى للإذاعة التي كانت تجمع بين عدد من **أهل الفن وأهل الرأي** .. وإن كنت أقترح إن عاد هذا المجلس إلي الحياة أن يضم بعض الممثلين لفئات الجمهور المستمع نفسه ، حتى يستطيع هذا المجلس أن يضع خطة إذاعية كاملة توائم ذوق الجمهور ، وحتى يستطيع هذا المجلس أن يقوم بدور « المايسترو » المطلوب .

ينتقل الحديث إلي المسرح الغنائي ، ومازال « التداعي الحر » ، والاسترسال بلا قيود هو منطق الحديث .. تقول أم كلثوم :

« المسرح الغنائي فن عظيم ، وهو فن ملائم لنا تماماً ، ويجب أن نهتم به ونعمل علي نهضته ، لقد كان المسرح الغنائي في بلادنا فنا أساسياً أيام سلامة حجازي ، وسيد درويش ، ومنيرة المهدية ، واستمر هذا الفن مزدهراً ومليئاً بالحيوية بعد ذلك ، حتى لقد قدم الريحاني ، والكسار ، وغيرهما مسرحيات غنائية ، وكان شارع عماد الدين هو شارع الفن .. كنت تجد بين كل مسرح ومسرح مسرحاً آخر ، وكان الشارع كله يتألق بفنون « الأوبريت» والمسرحيات الغنائية المختلفة ، وقد شاهدت أخيراً أوبريت « يا ليل يا عين » وكانت ناجحة جداً ، ولست أدري ماذا حدث بعد ذلك للمسرح الغنائي ، فأنا لم أشاهد المسرحيات التي عرضت بعد « يا ليل يا عين » .. ولكنني علي كل حال أعتقد أن مشكلة المسرح الغنائي هي مشكلة التكاليف ، لابد أن « نصرف » الكثير علي المسرح الغنائي حتى يثمر ثمرة فنية حقيقية لها قيمة ، فالمطربة التي تقضي كل ليلة ثلاث ساعات أو أكثر لمدة شهرين بصورة متصلة يجب أن تجد ما يقابل هذا الجهد الكبير الضخم ، ويجب أن نصرف علي المسرح الغنائي وألا نبخل عليه بأي شيء ، فهو فن رفيع : وهو فن «يستاهل » : وأي تكاليف للمسرح الغنائي لن تضيع ، لأن المسرحية الناجحة المتقنة يمكن أن تعيش سنوات ، وتربح وتصبح عملاً لا يموت بسرعة وعلي كل حال فهناك حل مؤقت لمشكلة المسرح

الغنائي ، هو الاهتمام «بالأوبريت» الإذاعية [1] ، وقد قدمت عملاً من هذا النوع هو رابعة العدوية ، إن مثل هـذه الأوبريـت الإذاعيـة يمكـن أن تـؤدي جـزءاً مـن وظيفة المسرح الغنائي ويمكن أن تبقي شمعة المسـرح الغنـائي مضيئـة حتـى نجـد الفرصة المناسبة والمثالية لحل المشكلة حلاً أساسياً .

علي أن « الأوبريت الإذاعية » حتى لو ازدهر المسرح الغنائي تعتبر فناً رفيعـاً حقاً ، ويجب أن يعيش ويبقي باستمرار».

أم كلثوم تسترسل في الحديث ، والموضوع هو الفن والثورة :

« أنني أفكر في العام القادم أن أقدم أغنيـة عاطفيـة جديـدة في عيد الثـورة .. أتمنى حقاً أن نغير طريقة احتفالنا الفني بهذا العيد . فلـو قدمنـا ـ بمناسـبة عيـد وطني ـ عملاً فنياً جميلاً فإن هذا العمل الجميل يكون احتفالاً رائعاً بـالعيد .. إن الجمال هو خير هدية لشعب ،وهو يحتفـل بأعيـاده الوطنيـة ، وهـذا هـو المعنـى الذي أحس به ، عندما أفكر في أن أقدم أغنيـة عاطفيـة جديـدة في عيـد الثـورة . علي أنه من الواجب أن نفكر تفكيراً جديداً في الأغنية الوطنية . فأنا مثـلاً أعتقـد أن قصيدة مثل « النيل » التي كتبها أمير الشعراء أحمد شوقي هي أغنية وطنيـة ،وأغنية أخرى مثل النيل لبيرم التونسي هي أيضاً أغنية وطنية، ألا تعطينا أمثال هذه الأغاني صورة من حياتنا وأرضنـا وبلادنـا ؟ ألا تعطينـا مزيـداً مـن الحـب ، ومزيداً من الكشف عن الجمال الكـامن في طبيعتنـا ؟ وبالنسـبة للمجتمـع الجديـد الذي خلقته الثورة .. إن أي شيء جميل وأصيـل يظـهر في هـذا المجتمـع ، هـو دليل علي أصالة هذا المجتمع ، ولذلك فيجب أن نملأ هذا المجتمع بكل مـا هـو جميل.

فالجمال هو الباقي .. والجمال خير « تعبير » عن المجتمع الأصيل ».

الفرصة الآن متاحة لكي أسال أم كلثوم ، والأسئلة التي في ذهني كلها تحـاول

---

(١) لم يكن التليفزيون عند إجراء هذا الحديث مع أم كلثوم سنة ١٩٦٦ قد أصبح من القوة والتأثير والإمكانيات الكبيرة كما هو الأمر الآن .

ن تلقي ضوءاً علي عالم هذه الفنانة .. ماذا في هذا العالم ؟ وفي أي « جو » يعيش فن أم كلثوم ؟

قلت لها : في حياتك فنانون كثيرون كان لهم تأثير علي شخصيتك وفنك .. فهل يمكن لنا أن نعرف من منهم يمكن أن نسميه باسم « أساتذة أم كلثوم »؟

وفي ابتسامة مشرقة ، وكأن الإجابة علي السؤال قد حملتها إلي ذكريات سعيدة قالت أم كلثوم :

« أول أستاذ لي هو القرآن .. لقد قرأته وحفظته وتعلمت منه شيئاً أعتز به دائماً هو « سلامة مخارج الألفاظ » وهي مسألة أساسية بالنسبة لأي صوت . فالمطرب الذي لا يعرف مخارج الألفاظ بدقة لا يستطيع أن يصل إلي قلب المستمع ولا يستطيع أن يؤدي أداء فنياً سليماً .. و « القرآن » ـ قراءته ودراسته ـ يعتبر مدرسة لها في هذا الجانب بالإضافة إلي جوانبه العديدة الأخرى.

ووالدي أيضاً كان أستاذي فهو أول من اكتشف صوتي في وقت مبكر جداً، ثم تصرف بصورة سليمة معي ، فقد تعهدني بالرعاية الفنية الكاملة ، التي لا يمكن أن يتوفر مثلها إلا في أعلي معاهد الموسيقى ، حيث يتم كل شيء علي أسس علمية دقيقة ، لقد فهم بالفطرة السليمة ، كيف ينبغي أن « يربي » صوتي وشخصيتي . لقد كان يفرض علي يومياً تدريبات رياضية قاسية حتى يمكن تربية صدري تربية عضوية سليمة ، فقوة بنيان الصدر تساعد علي سلامة التنفس . وهي مسألة ضرورية لأي مطرب . كذلك كان أبي يقدم يومياً ـ وبيده ـ كوباً من اللبن ممزوجاً بالبيض والسكر « النبات » وساعدني أبي في قراءة القرآن وحفظه وفهمه، وكان إلي جانبي في بدايتي يوجهني ـ دائماً ـ التوجيه الصحيح .

أي أن أبي كان هو الذي قام برعاية بدايتي الفنية رعاية رائعة وكاملة .

وكان الشيخ أبو العلا محمد هو أحد أساتذتي الأساسيين . لقد تعلمت علي يد هذا الفنان العظيم أشياء كثيرة ومهمة . كان خير من يلحن القصائد . وقد لحن لي كثيراً منها مثل : « وحقك أنت المنى والطلب – أفديه إن حفظ الهوى أو ضيعا

– أمانا أيها القمر المطل – الصب تفضحه عيونه » . وكنا نلتقي كل ليلة « أبـي وأخي والشيخ أبو العلا وأنا » وذلك بعد أن جئنا إلي القاهرة ، ونزلنا في حجرة في « فندق » جوردون هاوس بشارع عماد الدين . وكنـا نسـهر حتـى الفجـر .. ومـا أكثر ما سمعته وما تعلمته من الشيخ أبو العلا ، مما يجعلني مدينة لهـذا الأسـتاذ بفهمي ومحبتي وإيماني بالموسيقى الشرقية .

إن الشيخ أبو العلا هو الذي تولي شبابي الفني بالتدريب والتثقيف العميق.

وأستاذي الرابع هو أحمد رامي . إن رامي صديقي . ولكنه أيضاً أستاذي.

فمع رامي قرأت الشـعر العربـي في كـل عصـوره . لقـد سـاعدني رامـي بذوقـه وإحساسه الفني الخصب في قراءة الشعر العربي . كما أن رامـي كـان يعمـل فـترة طويلة في دار الكتب . فكان يمدنـي بكـل دواويـن هـؤلاء الشـعراء تعيـش معـي في حجرة نومي ، إلي جانب سريري ، في كل وقت ، كنـت أقـرأ الشـعر. إنـه الفـن المفضل عندي منذ البداية . ولكن رامي ساعدني إلي أقصـى حـد علـي تنميـة هـذه الهواية .. هواية قراءة الشعر .

وأثناء قراءتي كنت أختار بعض القصائد لأغنيها وكنت أنتقي مختارات لنفسي أسجلها لأقرأها بين الحين والآخر . وقد بلغت هذه المختارات حوالي ألف بيت.

وقد قرأت مختارات الشعر القديم مثل ديوان « الحماسة » لأبـي تمـام . كمـا قرأت كل كتاب الأغاني للأصفهاني ويدور كله حول الشعر والغنـاء .. وكـل هـذه القراءات كان لرامي فضل كبير فيها

ولذلك فأنا أعتبره صديقي وأستاذي معاً!» .

قلت :

هذه الرحلة الطويلة مع الشعر العربي بماذا خرجـت منـها ؟ مـن هـم الشـعراء الذين تفضلينهم علي غيرهم ؟ ..

قالت أم كلثوم :

« أقرب الشعراء القدماء إلي قلبي مهيار الديلمي ، والشريف الرضي . إنهما شاعران من مدرسة فنية واحدة . هي مدرسة الرقة والأناقة والهمس في الشعر العربي ، وقد كان مهيار تلميذاً للشريف الرضي ، بل يقال إن مهيار الذي كان مجوسياً في الأصل قد أسلم علي يد الشريف .. وإذا كان مهيار قد أخذ دينه من شيخه الشريف الرضي فقد أخذ الفن والعلم أيضاً منه . وكان تلميذاً لأستاذ ممتاز. والشريف الرضي هو صاحب هذا البيت الجميل:

وتلفتت عيني فمذ خفيت

عني الطلول تلفت القلب

وهو أيضاً صاحب هذا البيت:

خطبتني الدنيا فقلت لها ارجعي

إني أراك كثيرة الأزواج

أما مهيار فهو صاحب هذا البيت الجميل

ملكت نفسي مذ ملكت طمعي

اليأس حر والرجاء عبد

والحديث يطول عن هذين الشاعرين القديمين العظيمين . أما بالنسبة للعصر الحديث فشوقي هو عندي شاعر الشعراء . وقد جمع أعظم ما في الشعر العربي كله من خصائص أصيلة ».

يدفعنا الحديث عن الشعر إلى البحث في ثقافة أم كلثوم .. عن الكاتب الذي تحبه وعندما سألتها عن هذا الكاتب قالت لي :

« إن الكاتب المفضل عندي هو طه حسين ، فكما قلت لك إن الفن الأول الذي أحبه هو فن الشعر . وكتابات طه حسين فيها رقة الشعر وموسيقاه . وكلما قرأت كتابه « الأيام » أحسست أنني أمام شاعر حساس موهوب .. كلماته غنية بالأنغام، غنية بالأصالة الشعرية ، وكتاب الأيام بالذات هو في حقيقته مجموعة من القصائد الجميلة البديعة .. قصيدة عن القرية .. قصيدة عن الطفولة .. قصيدة

عن الحرمان .. قصيدة عن الأمل .. وطـه حسـين هـو الكـاتب الشـاعر .. ولذلـك أفضل قراءته دائماً .. وأعتبر أدبه قريباً إلي قلبي قريباً إلي ذوقي ».

وأسأل أم كلثوم :

هلي تحبين سماع الموسيقى الغربية ، ومن هو الموسيقار الذي تفضلينه إذا كنت تستمعين إلي هذه الموسيقى ؟

« أنا أسمع الموسيقى الغربيـة دون أن تكـون عنـدي مكتبـة لهـذه الموسـيقى . مكتبتي الموسيقية مكتبة شرقية . وعن طريق الإذاعة استمع إلي الموسيقى الغربية . وأقرب ألوان الموسيقى الغربية إلي قلبي هي موسيقى الأسـبان وموسـيقى الـروس . لأن في الأسبان والـروس لمسـة شـرقية أصيلـة انعكسـت علـي موسـيقاهم بصـورة واضحة. وأحياناً أتصور وأنا أستمع إلي هذه الموسيقى أنني أسمع موسـيقى شـرقية خالصة !

إن الموسيقى في النهايـة هـي لغـة فنيـة خاصـة ، ونحـن الشـرقيين لنـا لغتنـا الخاصة ، ويجب ألا نتخلى أبدا عن هذه اللغـة ، فـهي الـتي تصـور شـخصيتنا وذوقنـا الخـاص . ويجـب أن نحـترم أنفسـنا فنيـاً ، وألا نجـري وراء الأسـاليب الأجنبية لمجرد التقليد ، وهذا هو الطريق الصحيح أمامنـا . يمكننـا ـ بـل يجـب علينا ـ أن نتأثر بغيرنا ونتعلم منهم ، ولكن لا يجوز أن ننسى أنفسـنا ونـذوب في الشـخصيات المختلفـة عنـا في كـل شـيء . إن الشعوب الشـرقية الـتي تحـترم شخصياتها الفنية تستطيع أن تصل دائماً إلي نتيجة رائعة .. خذ مثـلاً الهنـود .. إنهم يحترمون أنفسهم جداً ، في الفن وفي الحياة ، فهم يصرون حتى في أي مكان من العالم علي أن يلبسوا أزياءهم الخاصة بهم ، أما في الفن فهم يحرصـون تمامـاً علي شخصيتهم المستقلة ، ولذلك فإن موسيقاهم تعتبر من أفضـل ألـوان الموسـيقى وأنجحها في العالم كله . وهذا هو طريق النجاح بالنسبة لنـا في الموسـيقى .. « أن نتأثر بغيرنا في حدود المحافظة علي شخصيتنا الخاصة ».

ويقودنا الحديث عن الموسيقى إلي الحديث عن « الشيخ سيد درويش » .. مـا رأي أم كلثوم في هذا الفنان الذي بدأ الثورة الموسيقية في الشرق العربي؟

تقول أم كلثوم :

« إن سيد درويش فنان عظيم ولكنني أعتقد أن تراث سيد درويش يحتاج إلي مجهود كبير لتقديمه وعرضه في صورة تليق بهذا الفنان الكبير ، والذي يعتبر عبقرية موسيقية أصيلة ، والشيء الذي أضيق به عندما أسمع أغاني سيد درويش هو كلمات الأغاني ، ففي اعتقادي أنها كلمات ضعيفة .. أذكر أنه في أوبريت العشرة الطيبة تتردد هذه الكلمات علي لسان إحدى الشخصيات : « حاجي بابا حمص أخضر » .. وهذا كلام ينقصه الفن ، وهو أقل بكثير من مستوى الألحان التي قام بتأليفها سيد درويش .. إنني أعتبر موسيقى سيد درويش موسيقى عبقرية فعلاً ، ولكنها لم تجد الشعر المناسب لها إلا في حالات قليلة ، مثلاً في دور « ضيعت مستقبل حياتي » نجد شعراً جيداً وجميلاً .. ولكن ، مثل هذا النموذج قليل محدود . وسيد درويش عموماً بحاجة إلي مجهود فني كبير لخدمة تراثه العظيم وتقديمه بالصورة اللائقة ».

وسألتها عن موقفها من « فن الرسم » هل تحب فناناً معيناً أو مدرسة معينة؟ أو أنها لا تهتم أساساً بهذا الفن ؟.

قالت أم كلثوم :

« أنا أهتم بالرسم ، كما يهتم به المتذوق لا المتخصص الذي يتعمق فيه ، وأنا عموماً أميل إلي الوضوح ، وأكره المدارس الفنية التي تبحث عن الغموض أو تدعو إليه ، يجب أن يقول الفن كلمته بشكل مشرق ، وبلا التواء أو غموض . أما هؤلاء الذين لا يعكسون إلا الارتباك والفوضى وانعدام المنطق .. فهم في نظري بعيدون عن الفن الحقيقي الأصيل . واللوحات التي أعلقها في بيتي كلها من النوع الذي يعبر عن شيء واضح مفهوم . وأنا أحب من الرسامين المصريين لوحات صلاح طاهر عندما تكون خالية من الغموض والتعقيد ».

كان حديثنا طوال الوقت عن الفن ، وكان يجب أن يظل كذلك ، ولكنني كنت أخفي في نفسي سؤالاً عن الإنسان ، فالفن تعبير عن الإنسان ، والفن يرتفع ويرتقي كلما اقترب من الصدق والعمق في التعبير عن الإنسان . وكل فنان كبير

لابد أن تكون له نظرة خاصة للإنسان يمتلئ بها قلبه وعقله. ومن هنا خطر علي بالي سؤال :

من هو الإنسان الذي ترى فيه أم كلثوم بطلاً أو نموذجاً للإنسانية ؟.

قالت أم كلثوم :

« بالنسبة للرجال فإنني أعتبر « محمداً » عليه الصلاة والسلام أعلي مثال للإنسان . إنه نموذج رفيع في السلوك والضمير والإرادة . وأية دراسة لحياته تكشف عن جوانب لامعة وعظيمة.

ولهذا فأنا أعتبر محمداً نموذجاً للإنسان .. كل ما فيه يعلمنا الإنسانية الحقيقية.

أما في النساء فأنا أقدر شخصية « خديجة » زوجة النبي ، إنها أيضاً مثال للبطولة النسائية الرفيعة ، بطولة الروح والسلوك والضمير . وأعتقد أن خديجة تصلح نموذجاً رفيعاً للمرأة في كل عصر لأن العناصر التي تتكون منها شخصيتها عناصر رائعة ، فهي مؤمنة لا تعرف التردد ، وهي قوية الشخصية قادرة علي الاختيار والتصرف ، وهي وفية إلي أعلي حدود الوفاء إنها شخصية مثالية ».

وانتهي لقائي مع أم كلثوم بعد ثلاث ساعات متصلة ، أو بلغة الدكتور زكي مبارك بعد ١٠٨٠٠ ثانية !.

انتهي اللقاء مع أم كلثوم ، وانتهت الثواني الجميلة بسرعة لم أشعر بها . وخرجت من هذا اللقاء وقد فهمت شيئاً لم أكن أفهمه جيداً هو حرص الكثيرين من عشاق أم كلثوم علي أن يحضروا حفلاتها . دون الاكتفاء بالاستماع إلي صوتها. فهناك متعة أخرى رائعة لا تقل عن متعة فنها .. هي متعة شخصيتها الإنسانية الآسرة .

♫ ♫ ♫

أم كلثوم والمثقفون

عشت أسبوعين في الخرطوم « في أواخر ١٩٦٨ » كان الشعب السوداني لا يتحدث فيهما إلا عن زيارة أم كلثوم للسودان ، وعن الحفلتين اللتين أقامتهما هناك ،حيث سهر معها أبناء السودان حتى مطلع الفجر .. ولقد قيل في بداية زيارة أم كلثوم للسودان إن شعب السودان لم يتعود علي الأغاني الطويلة ، وهناك خوف كبير من عدم الإقبال علي حفلات أم كلثوم فالذوق العام في السودان يميل إلي الفنون الراقصة السريعة الخفيفة ولا يطيق الصبر علي فن مثل فن أم كلثوم يحتاج إلي مزاج يتذوق الأغنية الطويلة والسهرة الفنية التي تمتد إلي ساعات وساعات . ولكن الذي حدث أن هذه التحذيرات والتنبؤات لم تكن في موضعها فقد سهر السودانيون مع أم كلثوم ورحبوا بها ترحيباً حاراً رائعاً . وبذلك استطاعت أم كلثوم أن تجتذب الذوق السوداني وتتخطى كل ما قيل عن هذا الذوق وقدرته علي استيعاب فن أم كلثوم.

وعندما نظرت إلي الآلاف التي حضرت حفلتي أم كلثوم في الخرطوم وعندما رأيت ترحيب هذا الجمهور الكبير وحرارته نحو أم كلثوم وفنها خطر علي بالي سؤال يدور حول تفسير كل هذا الإعجاب وكل هذا الحب .. إن الإعجاب بأم كلثوم ظاهرة شاملة في العالم العربي كله ، بمختلف بيئاته وظروفه الاجتماعية والتاريخية وقد امتد هذا الإعجاب بفن أم كلثوم إلي عشرات السنين دون أن يتغير أو ينقضي بل زادت شعلته توهجاً ، فأم كلثوم تكسب كل يوم جمهوراً يتجدد ويزداد باستمرار .

ما هو إذن سر هذا الإعجاب وما هو تفسيره ؟ إن المواطن العادي البسيط سوف يجيب إجابة بسيطة مثله ويقول لك : إن أم كلثوم هبة من السماء وصوتها يطربني ويسعدني إلي أبعد الحدود وهذا كل ما أعرفه عن صوت أم كلثوم ، وهذا

نفسه يكفيني ويسعدني إلي أبعد الحدود.

ولكن كلمة البسطاء من الناس علي ما فيها من حلاوة وجمال وعذوبة لا تقدم شرحاً ولا تفسيراً كافياً لهذه الظاهرة .. ظاهرة الإعجاب الواسع العميق المتجدد لأم كلثوم.

وبين آلاف الحاضرين في حفلتي أم كلثوم بالخرطوم لمحت عدداً من الكتاب والمفكرين والشعراء المعروفين سواء في السودان أو في أنحاء الوطن العربي خارج السودان .. ووجدتهم يعيشون في جو هو نفسه جو الحماس الحار والإعجاب الكبير الذي يعيش فيه الجمهور . وقلت لنفسي لعل المناقشة مع هؤلاء الأدباء والمثقفين تعطينا إجابة واضحة وتفسيراً موضوعياً لهذه الموجة العالية من الحب والإعجاب في كل مكان بأم كلثوم وفن أم كلثوم، والتقيت بعدد من هؤلاء الأدباء والمثقفين ووجدت عندهم إجابات مختلفة.

وقبل أن أعرض هذه المناقشة التي دارت حول أم كلثوم بيني وبين هؤلاء الأدباء والمثقفين أحب أن أشير إلي أن أم كلثوم كانت تحظى دائماً بمكانة كبيرة لدى المثقفين في بلادنا منذ بداية حياتها الفنية ، والمكانة التي احتلتها أم كلثوم بين المثقفين لم تحتلها فنانة أخرى علي طول تاريخنا العربي القديم والمعاصر علي السواء ، ففي كل ما ترويه لنا كتب الأدب العربي المعروفة لا نجد فنانة قديمة احتلت في المجتمع العربي علي مر عصوره المكان الذي احتلته أم كلثوم في المجتمع العربي الحديث ، ولا تجد حماساً بين المثقفين العرب علي اختلاف أجيالهم لفنانة عربية أخرى مثل حماسهم لأم كلثوم . وأذكر أن الأستاذ العقاد كان قليل الكتابة عن فن الغناء في مقالاته وكتبه وقصائده ، وقد كان العقاد غزيراً في إنتاجه للشعر ، ومع ذلك لو قرأنا أشعاره كلها لما وجدنا فيها علي التقريب بيتاً عن مطرب أو مطربة ، باستثناء أم كلثوم ، فقد كتب عنها قصيدة جميلة وطويلة ، وقد استمعت لأول مرة في الخرطوم إلي هذه القصيدة التي لم أكن قد قرأتها ولا عرفت عنها شيئاً قبل سفري إلي السودان في البعثة الصحفية المصاحبة لأم كلثوم . والعقاد يحتل مكانا كبيراً في السودان وبين مثقفيه ، والأدباء والمثقفون

السودانيون يحبون شعر العقاد ويرددونه ويهتمون به ويعرفون كل صغيرة وكبيرة حول هذا الشعر ، ولعل تعلق السودانيين بشعر العقاد يكون ظاهرة أدبية تستحق التعليق والتفسير في مناسبة أخرى ، فالرأي العام الأدبي العربي في أغلبه يعتبر العقاد كاتباً أولاً وقبل كل شيء ويعتبر شعره عملاً ثانوياً أقل بكثير من إنتاجه الفكرى والثقافى، ولكن كثيرا من السودانيين يخالفون هذا الإجماع أو شبه الإجماع الأدبي حيث يعتبرون العقاد شاعراً أولاً وقبل كل شيء ، وأنا شخصياً علي شدة إعجابي بكتابات العقاد المختلفة لا أومن بشاعريته بل أعتقد أن إنتاجه الشعري الغزير لا يضم إلا أقل القليل من الشعر الجيد ، علي أن الإخوة السودانيين يختلفون معي ومع كل الذين يرون رأيي في شعر العقاد .. علي كل حال فقد قابلتني قصيدة العقاد عن أم كلثوم في السودان ، علي لسان كثيرين من أدبائه ومثقفيه ، وسألني بعضهم : لماذا لا تغني أم كلثوم للعقاد ؟ وقلت لهم : إن رأيي في ذلك هو أن شعر العقاد لا يصلح للغناء لأنه شعر عقلي يعتمد علي الأفكار الهادئة المجردة الباردة أحياناً ، وهو في النهاية ليس شعراً غنائياً ، وبالطبع لم يوافقني الأخوة السودانيون علي ما أراه . أما قصيدة العقاد عن أم كلثوم فهي في الحقيقة إحدى قصائده القليلة الرقيقة المليئة بالصور الحية الجميلة وفي هذه القصيدة يقول العقاد :

أم كلثوم يا بشيراً من الله بالرجاء

أنت من وحيه ، ولله في الفن أنبياء

ذلك الصوت صوتك العذب من عرشه نداء

فيه سر من جنة الخلد لكنه ضياء

فيه للمرتجي سلام وللمشتكي عزاء

فيه حرز من الهموم وعون علي القضاء

أي نفس إذا ترنمتِ لا تهزم الشقاء

وهكذا استطاعت أم كلثوم بقيمتها الفنية الكبيرة وشخصيتها اللامعة وتأثيرها الواسع علي الذوق العربي أن تدفع العقاد الذي كان أحد كبار المثقفين في عصره ، بل وفي مختلف عصور الأدب العربي كله ، إلي كتابة هذه القصيدة الجميلة وهو الذي كان قليلاً ما يكتب عن المطربين والمطربات.

علي أن العقاد ليس هو المثقف الوحيد الذي كتب عن أم كلثوم ، فهناك أيضاً توفيق الحكيم ، وأحمد حسن الزيات ، وزكي مبارك.

وكتب عنها الكتاب والشعراء العرب خارج مصر وأذكر منهم الشاعر العربي العراقي الكبير « جميل صدقي الزهاوي » الذي كتب عنها قصيدة يقول فيها :

الفن روض أنيق غير مسئوم

وأنت بلبله يا أم كلثوم

لأنت أقدر من غني بقافية

لحناً يرجّعه من بعد ترنيم

وهكذا احتلت أم كلثوم مكانة واضحة عند المثقفين من الأدباء والكتاب والشعراء ، وتعدت مكانتها حدود الإعجاب الجماهيري الواسع الذي نالته منذ البداية .

وهنا السؤال : ما هو التفسير الموضوعي لمكانة أم كلثوم ؟ وأعني بمكانة أم كلثوم قدرتها علي الحصول علي إعجاب جميع الأذواق والثقافات بل والأجيال المختلفة ما بين شباب وشيوخ ورجال في منتصف العمر ؟ هذا هو ما أردت أن أناقشه مع عدد من الأدباء والمثقفين الذين حضروا حفلتي أم كلثوم في السودان . وكان لقائي الأول في الخرطوم مع الشاعر السوداني الكبير محمد المهدي[1]

---

(١) توفى الشاعر الكبير محمد المهدي المجذوب سنة ١٩٨٢ في حوالي السبعين من عمره ، ولم أستطع أن أعثر علي تاريخ ميلاده بدقة.

المجذوب ، والمجذوب واحد من أكبر الشعراء العرب المعاصرين وأكثرهم ثقافة وأصالة فنية ، ولعل الكثيرين لا يعرفون عنه شيئاً خارج السودان لأنه لم يطبع ديوانه الأول إلا فى أوائل سنة ١٩٦٨ ، ولأنه من ناحية أخرى يحاول أن ينشر قصائده في الصحف العربية المختلفة خارج السودان ، فالمجذوب ضحية كسله الشخصي من ناحية وضحية ضيق مجال النشر في السودان من ناحية أخرى ، ولولا ذلك لأصبح المجذوب معروفاً بين متذوقي الشعر العربي في كل مكان.

قلت للمجذوب : ما هو تفسيرك للمكانة الفنية التي تحتلها أم كلثوم بين الجماهير العادية وبين المثقفين علي السواء ؟ قال المجذوب : اسمع .. أم كلثوم في نظري هي « ديوان شوقي » فديوان شوقي يحظى بنوع من الإجماع الفني والأدبي ، وسيظل هذا الديوان باقياً في أذهان العرب ، ونحن نعود دائماً إلي ديوان شوقي كلما أردنا أن نعود إلي جوهر العلاقة الأصيلة بين المواطنين العرب في كل مكان ، ديوان شوقي فيه أصالة عربية وفصاحة لم تبتلعها الثقافات الأجنبية، رغم أن شعر شوقي كان حلقة من حلقات التطور في حياتنا الفنية والشعرية ، ولكن التطور الذي يمثله شوقي هو تطور يعتمد اعتماداً واضحاً علي أصول قوية وسليمة ، ونحن نرجو أن نتطور دائماً دون أن يكون هذا التطور سبباً في أن نفقد جذورنا وأصولنا .. هناك كثير من الأدباء امتلأوا بالتراث العربي فقضى عليهم هذا التراث ، وهناك آخرون امتلأوا بالثقافة الغربية وتركوا جذورهم فقضت عليهم الثقافة الغربية ، ونحن ننتظر المثقف والفنان الذي يتطور اعتماداً علي جذوره وأصوله الثقافية والفنية ، فالتطور والحرص علي الأصول في نفس الوقت هو ما ندعو له ونحتاج إليه ، وهو ما أعتقد أن شوقي يمثله خير تمثيل ، وهو ما أعتقد أيضاً أن أم كلثوم تمثله تمثيلاً واضحاً وعميقاً فصوتها قوي وجميل ، وهي تحرص علي أن تكون فنانة عصرية ولكنني عندما أسمعها ـ رغم عصريتها الواضحة ـ أحس من وراء صوتها بتراثنا العربي كله في أنقى وأجمل صورة ، فأم كلثوم علي سبيل المثال تختار الشعر الذي تغنيه اختياراً رائعاً مبنياً علي معرفة عميقة وأصيلة بتراثنا الشعري العربي ، وبأجمل وأنقى ما فيه ، أم كلثوم تختار

قصائد خالية من الكلمات الصعبة بل وتحرص علي أن تكون القصائد التي تغنيها مليئة بالحروف الموسيقية النقية ولا شك في أن تجويد[1] أم كلثوم للقرآن قد أعطاها القواعد السليمة في اختيارها لما تغنيه ، وهو أمر لم يتوفر لأحد من المطربين أو المطربات المعروفين فيما أعلم ».

ويواصل الشاعر المجذوب حديثه عن أم كلثوم فيقول : « لقد نجحت أم كلثوم في السودان نجاحاً كبيراً وهزت جماهيرنا هزة وجدانية عنيفة ، وذلك علي عكس ما كان البعض يتصور ، حيث كان هذا البعض يقول إن السودانيين « عابسون » وفن أم كلثوم مشرق ، والسودانيين محافظون وأم كلثوم بقدر ما فيها من الأصالة فإنها تغني بانطلاق وحرية واسعة ، وتعبر عن المعنى لا بصوتها فقط وإنما بحركة يديها وملامح وجهها وحركة أقدامها القليلة فوق المسرح ، إنها تعبر بكل كيانها عن المعنى الذي تغنيه .. كان البعض يتصور أن هذا الأسلوب المشرق المنطلق لن يلقي الترحيب في السودان ، ومع ذلك حدث العكس ، وفي ظني أن السبب الكبير في ذلك ـ بالإضافة إلي فن أم كلثوم العظيم ـ هو أن أم كلثوم قد مست الإحساس العربي عند السودانيين مساً مباشراً ، فالسودان عاش في عزلة طويلة ولم يتصل بالبلاد العربية اتصالاً كافياً ووقفت بينه وبين البلاد العربية ظروف اصطنعها الاستعمار ، ولكن هذه الظروف هي ظروف عابرة .. وعندما غنت أم كلثوم مست في السودانيين إحساسهم العربي وأيقظت هذا الإحساس، فأم كلثوم بنطقها العربي السليم وباختيارها للقصائد العربية الممتازة وبأدائها المرتبط في أصوله بتجويد القرآن .. استطاعت بهذا كله أن توقظ شيئاً أصيلاً وعميقاً في قلوب السودانيين ، والحقيقة أن زيارة أم كلثوم للخرطوم قد رفعت ـ بلا مبالغة ـ من شان الثقافة العربية في السودان ، فلقد كان الاحتفال بها مهرجاناً عالياً للثقافة العربية ، وهذا ولا شك سيكون له أكبر الأثر في السودان حتى علي الناطقين بغير

---

(١) تقول الموسوعة العربية الميسرة عن " التجويد " إنه فن تلاوة القرآن ، بحيث تأخذ الحروف حقها في النطق ، من ترقيق وتفخيم ، ومد متصل أو منفصل وإخراجها من مخارجها الصحيحة وللتجويد ثلاثة أنواع : ترتيل وهو قراءة علي مهل ، وحذر وهو الإسراع في القراءة، وتدوير وهو التوسط المقامين ، وللمسلمين دراسات طريفة في أنواع الحروف ومخارجها سبقت علم الأصوات الحديث.

اللغة العربية عندنا.. »

هذا هو تفسير الشاعر السوداني محمد المهدي المجذوب لذلك الانفعال الحار الذي استقبلت به السودان أم كلثوم ، وهو تفسير قريب في بعض جوانبه من تفسير الكاتب اللبناني أمين الأعور الذي كان في زيارة للسودان ، والذي حضر حفلتي أم كلثوم في الخرطوم ، وهو التفسير الذي سنعرض له بعد قليل .

وقبل أن أترك الشاعر « المجذوب » سألته : هل كتبت شعراً عن أم كلثوم بمناسبة زيارتها للسودان ؟ قال لي : كتبت قصيدة في ثمانية أبيات أحيي فيها هذه الفنانة الكبيرة وأسجل هذه الزيارة الهامة في تاريخ السودان الوجداني .

وقرأ المجذوب أبياته الجميلة التي يقول فيها عن أم كلثوم :

منابع النيل أعشاش وأجنحة

من صوتك العذب حياناً وأحياناً

أمسي علي الشوق ميعاداً نخف له

ونستريح به اهلاً وأوطاناً

نصغي إليه كما يصغي ويمسكنا

وعداً جديداً علا حباً وإيماناً

يا أم كلثوم هذا النيل خضرته

فيض بصوتك اعطاراً وألواناً

يا نخلة النيل إثمارًا وعافية

هاتي لنا الثمر المعسول ألحاناً

ورقرقي اللغة الفصحى بشاطئه

وزودي العرب الأحرار بستاناً

صوت يجدد أيامي ويوقد في

كأسي صباي طروب العيد نشوانا

رفعت منه لواء في ملامحه

ما خلد النيل إبداعاً وإحساناً .

شكرت الشاعر « المجذوب » علي حديثه وقصيدته الجميلة وتركته لأواصل البحث والمناقشة مع مثقفين آخرين حول أم كلثوم ، والتقيت بالمستشرق الإنجليزي « دينيس جونسون ديفيز » وكان في زيارة للسودان وحضر حفلتي أم كلثوم. و« ديفيز » يعرف اللغة العربية بل ويتقنها إتقاناً واضحاً وقد عاش في مصر حوالي أربع سنوات عمل فيها مدرساً بكلية الآداب بجامعة القاهرة، وذلك بعد الحرب العالمية الثانية مباشرة . كما اختلط ديفيز كثيراً بالمثقفين المصريين وعرف الحياة المصرية معرفة كبيرة واسعة، ولذلك فهو يتحدث العامية المصرية كأولاد البلد . وإذا استمعت إليه خيل إليك أنه عربي مصري من شبرا أو من السيدة، لولا ملامحه الأجنبية الواضحة.

قلت للمستشرق الإنجليزي ديفيز :

هل هذه أول مرة تسمع فيها أم كلثوم .. هنا في الخرطوم ؟ قال لي :

« لقد سمعتها مراراً في القاهرة منذ عشرين سنة ، وأحتفظ لها بعدة أسطوانات في مكتبتي بلندن وأقرب هذه الأسطوانات جميعاً إلي قلبي «رباعيات الخيام » وأنا أحس بجمال صوت أم كلثوم وروعته ولكنني في الحقيقة أجد نفسي عندما احضر حفلاتها علي وجه الخصوص أمام سؤال : لماذا يأخذ الإعجاب بأم كلثوم هذه الصورة العنيفة المنفعلة غير العادية ؟ لماذا علي وجه الخصوص يصيب الشبان كل هذا الاضطراب العصبي والنفسي عندما يستمعون إلي أم كلثوم ؟! لقد شاهدت عدداً من الشبان يقفزون إلي المسرح وقد فقدوا وعيهم تقريباً وهم يستمعون إلي أم

كلثوم .. وذلك لكي يصافحونها ويقبلون يديها وهي تغني .. إن هذه الطريقة في الإعجاب غير مألوفة بالنسبة لنا نحن الغربيين . وهذا ما أحتاج إلي تفسير له .. إن صوت أم كلثوم صوت ممتاز حقاً . ولكن لماذا الإعجاب بهذه الطريقة المتوترة العصبية التي تبدو لي أحياناً طريقة غير فنية وغير سليمة وفي رأيي أن فيها نوعاً من التعبير عن الكبت الجنسي الذي تعاني منه بعض المجتمعات العربية ».

هذا ما قاله المستشرق الإنجليزي ديفيز ، وكنت أستمع إلي رأيه ومعنا الأستاذ أمين الأعور الكاتب اللبناني المعروف .. قال أمين الأعور :

« إن ردي علي تساؤل مستر ديفيز هو أننا يجب أن نفهم أم كلثوم أولاً لنفهم بعد ذلك سر هذا الإعجاب الكبير العنيف بها ، وهو إعجاب في موضعه وله ما يبرره ويفسره تماماً ، فمن هي أم كلثوم من ناحية التقييم الموضوعي ؟ إن صوت أم كلثوم يمثل قمة حلقة من التراث الكلاسيكي العربي الغنائي ، فالغناء العربي قد بدأ بالتجويد[1] الذي يعتمد علي الصوت دون الموسيقى واستمر هكذا بصورة جعلت الموسيقى علي هامش الصوت ، وكان الأمر كذلك حتى في أبهى أيام العصر العباسي .. لهذا السبب يجب أن نعترف أن الموسيقى العربية ليس لها أصالة التجويد ولا عمر التجويد ولا فنية التجويد في تاريخنا العربي الفني . وهذا هو السر فيما نلمسه عند الجمهور الذي يسمع أم كلثوم ، إن الجمهور يصب تسعين في المائة من انتباهه علي الصوت وعشرة في المائة من انتباهه علي الموسيقى . وإلي جانب هذا كله فهناك ميزة ذاتية لأم كلثوم تنفرد بها وحدها إذا نظرنا إلي صلتها العميقة بالتراث العربي ، ففي صوت أم كلثوم « وحده » تجسدت قمة التراث العربي ، بينما نجد الموقف في الأدب مثلاً يختلف كل الاختلاف ، فبعد سنة ١٩٠٠ نجد أن التراث الكلاسيكي العربي في الأدب استأنف حياته علي يد عدد من الشعراء أمثال شوقي ، وحافظ ، والجواهري ، وعلي يد عدد من الكتاب أمثال طه حسين ، والعقاد ، والحكيم ، وميخائيل نعيمة ، وغيرهم ، هذا بالنسبة للتراث الأدبي ، أما بالنسبة للتراث الغنائي فإننا نجد أن أم كلثوم قد

(١) راجع الهامش السابق وفيه تعريف علمي لمعنى كلمة التجويد.

استأثرت بعهد التراث وحدها وانطفأت إلي جانبها جميع الكواكب الصغيرة الأخرى ، ولذلك نجد أن أم كلثوم قد جمعت حولها كل العواطف العربية بقوة وعمق وشمول .. فهي وحدها ـ بلا استثناء ـ التي تمثل التراث الغنائي العربي في أنقى صوره وأجملها ، وهي وحدها ـ بلا استثناء ـ سيدة فن الغناء العربي بتقاليده الأصيلة اللامعة .. »

ويواصل أمين الأعور حديثه فيقول :

« في السودان بالذات أخذت حفلات أم كلثوم طابعاً فنياً سياسياً في وقت واحد، ولعلنا نلاحظ أن صحيفة الإخوان المسلمين وهي صحيفة « الميثاق » هي وحدها التي شنت هجوماً عنيفاً علي أم كلثوم باعتبارها رمزاً للتراث القومي العربي . وقد هاجم الإخوان أم كلثوم رغم أن أم كلثوم تصرح في كل أحاديثها أنها تعتبر أن المثل الأعلى للإنسان في رأيها هو « محمد » عليه الصلاة والسلام وأنها تعتبر أن المثل الأعلى للمرأة المثالية هي « خديجة » وأنها تعتبر الشريف الرضي، وهو من آل بيت الرسول ، شاعرها المثالي.. فلماذا إذن يهاجمها الإخوان المسلمون، مادامت أم كلثوم تتمسك بالقيم الإسلامية والشخصيات الإسلامية كل هذا التمسك ؟ .

السبب في هجوم الإخوان المسلمين علي أم كلثوم هو سبب سياسي واضح ، ففي فن أم كلثوم وآرائها ومواقفها المختلفة نجد ارتباطاً بين الإسلام والعروبة ، ولكن الإخوان المسلمين لا يؤمنون بالعروبة وهم يريدون إسلاماً ضد العروبة وضد القومية بصورة عامة وضد آمال الشعوب العربية ، لأنهم يؤمنون بشيء آخر هو الوحدة الإسلامية التي تجمع في إطارها قوميات متعددة ومختلفة .. هكذا يجب أن نفهم ظاهرة أم كلثوم ، وهذا ما يجب علينا أن نفهمه جيداً نحن معشر لمثقفين العرب ، وخاصة هؤلاء الذين يرتعدون فرقاً عندما يشاهدون حرارة لحماسة التي تقابل بها جماهير الناس البسطاء روعة صوت أم كلثوم وروعة جويدها للقصائد الكلاسيكية، وفي رأيي أن الأجيال القادمة ستكون مرتاحة جداً لدور العظيم الذي تؤديه أم كلثوم ، وهو في اعتقادي دور لن يتكرر، وأم كلثوم

هـي قمتـه وختامـه البليـغ الرائـع .. وبـالطبع هـذا الـرأي يقــود إلي التفكــير في المستقبل.. ما هي المدرسة الجديدة التي يمكن أن تنشأ في الغناء العربي ؟

بعض الناس يتصورون أن فيروز هي بداية المدرسة الجديدة التي يمكن أن تنشأ في الغناء العربي ولكنني أعتقد أن فيروز والرحبانيين هم نهاية مدرسة لم يكن لها في التاريخ العربي الأثر الذي كان لمدرسة التجويد ، وهـذه المدرسـة الـتي تنتسـب إليها فيروز هي مدرسة الترتيل الكنسي . فيروز في رأيي هي قمة مدرســة الـترتيل ونهاية هذه المدرسة . ماذا ننتظر في المستقبل ؟ في اعتقادي أن فن الغناء والموسيقى في حياتنا العربية لابد أن يمتزجا ويتأثرا بالفنون الهندية والفنون الشرقية الأخرى وكذلـك بـالفنون الغربيـة كمـا يتـأثر الفكـر العربـي الحديـث بــالمدارس العالميــة الأخرى».

هذا هو رأي مجموعة من الأدبـاء والمثقفـين في أم كلثـوم وهـذه هـي محاولتـهم لتفسير ظاهرتها التي اكتسبت إعجاباً شاملاً في نفوس الجماهير البسيطة والمثقفـين علي السواء ، واختلاف الرأي والتفسير في ظاهرة أم كلثوم وصوتها الرائع يذكرني بقول الشاعر العربي القديم « ابن الرومي » في قصيدة له حيث يقول :

وغرير بحسنها قال صفها

قلت أمران : هين وشديد

يسهل القول أنها أحسن الأشياء

طرا ويصعب التحديد ..

♫ ♫ ♫

أم كلثوم في السودان

بالحب والقبلات والدموع .. تلك كانت هي مجموعة الأزهار التي فرشت بـها جماهير السودان طريق أم كلثوم إلي الخرطوم ، فمنذ أن ظهرت أم كلثوم علي باب الطائرة في مطار الخرطوم في الساعة الثالثة بعد ظهر يوم الأربعاء ٢٥ ديسمبر ١٩٦٨ حتى صعدت الطائرة بعد ذلك بتسعة أيام ، وبالتحديد في الساعة الثالثة بعد ظهر يوم الخميس ٢ يناير سنة ١٩٦٩ .. طيلة هذه الفترة والخرطوم مثل العروس في ليلة الفرح .. سعيدة مرحة مليئة بالنشوة .. تحس إحساساً مشرقاً بالحياة الجديدة . وباب الخرطوم مفتوح في تلك الأيام علي مصراعيه ، الوافدون من شتى أنحاء السودان لا يكفون عن الدخول إلي المدينة العروس .. المدينة السعيدة .. كان نبض المدينة حاراً .. وكان وجهها مضيئاً ، ونهارها كان مليئاً بالدفء وبالسماء الصافية كصفحة النيل ، وبالشمس المشرقة مثل قلوب السودانيين . ونيل الخرطوم كان يشارك أهله ومواطنيه الفرحة بأم كلثوم ، وكان ليل الخرطوم مليئاً بنسمات خفيفة البرودة .. ولكن أم كلثوم أعطت من فنها الجميل دفئاً أسعد الجميع .. ولم يكن هذا الاستقبال الحار حركة ارتجالية لا معني لها ، بل كان تكريماً لفن أم كلثوم ، وتكريماً لإصرار أم كلثوم علي أن تربط بين فنها وبين المعركة العربية ضد الاحتلال الصهيوني ، وكان تكريماً للعلاقة بين مصر والسودان هذه العلاقة التي كانت أول وأجمل صيحة من صيحات الوحدة بين أبناء الأمة العربية ، وهذه العلاقة نفسها هي التي غنت لها أم كلثوم من شعر شوقي : « ومصر الرياض وسودانها عيون الرياض وخلجانها » .. وكان هذا الاستقبال الحار تأكيداً لعروبة شعب السودان وتأكيداً لوطنيته الفطرية العميقة

الحساسه .. فالسودانيون في المقدمة دائماً .. أنـهم أسبق مـن يشعر بـأي جـرح تصاب به الأمة العربية ، ولكم كان انفعال السودانيين بعد هزيمـة يونيـو ١٩٦٧ كان هذا الانفعال الصادق كله جزءاً أساسياً من قدرتنا علي مواجهة النكسة في تلك الأيام الصعبة الحزينة .

هكذا استقبل السودانيون أم كلثوم .. بالحب والقبـلات والدمـوع .. مـن أجـل هذه المعاني الكبيرة الأصيلة التي ترتبط بأم كلثوم أو ترتبط بها أم كلثوم.

وكان من بين جميع السودانيين واحد يعرف كـل شـيء عـن زيـارة أم كلثـوم، ويتابع انفعال السودانيين بهذه الزيـارة لحظـة بلحظـة ، ويفـرح مـع السـودانيين ويبكي معهم وينفعل بانفعالهم ، فـهو صـاحب فكـرة دعـوة أم كلثـوم وهـو الـذي أشرف علي زيارة أم كلثوم وأعد هذه الزيارة إعداداً كاملاً بمساعدة زملائه في وزارة الإعلام السودانية هذا الرجل هو عبد الماجد أبو حسبو وزيـر الإعـلام السـوداني. وهو فوق ذلك فنان وشاعر وعاشق من عشاق أم كلثوم ، ولعل صوت أم كلثوم كان حبه الأول عندما كان طالباً صغيراً في إحدى المدارس الثانوية بالقاهرة .. ذلك لأن عبد الماجد أبو حسبو تربي في مصر حتى أتم تعليمه الجامعي في كليـة الحقـوق .. وتزوج عبد الماجد من زميلة مصرية له كانت هـي الأخـرى عاشـقة مـن عشـاق أم كلثوم .. فأم كلثوم بالنسـبة لعبـد المـاجد أبوحسـبو ، الـذي كـان وزيـراً للإعـلام السوداني عند زيارة أم كلثوم للخرطوم ترتبط بكثير من ذكرياته الخاصة والعامة.

وفي لقاء طويل بيني وبينه طلبت منه أن يحكي قصة زيـارة أم كلثـوم للسـودان وقصة الأيام التسعة الجميلة التي قضتــها في عاصمـة السـودان .. قدمـت إلي عبـد الماجد أبوحسبو عدداً من الأسئلة عن الزيارة ، وعن ذكرياتــه عـن أم كلثـوم وعـن تقييمـه لصـوت أم كلثـوم ولشـخصيتها وعـن تقييمـه «كمتــذوق» و « سميـع » للملحنين الذين يلحنون لها ، وعن معـني الزيـارة نفسـها وأثرهـا في السـودان .. وأسئلة أخرى عديدة .. وعلي مدى ثلاث ساعات أجاب عبد المـاجد أبـو حسـبو علـي أسـئلتي .. وقــال لي بكـل مـا يملـك مـن حـرارة وانفعـال بأنــه « أسـعد

السودانيين » بزيارة أم كلثوم.. وفي هذا الفصل أسجل إجابات وزير الإعلام السوداني دون أن أضع أمامها أي أسئلة علي الإطلاق .. فإجابات عبد الماجد توضح نوع الأسئلة التي قدمتها إليه .. إنني أقدم كلماته التي يمتزج فيها الحب بالدموع والقبلات .. تماماً كما امتزجت هذه الأشياء جميعاً في الاستقبال العظيم الذي أعدته السودان لأم كلثوم .. قال لي عبد الماجد أبو حسبو : زيارة أم كلثوم للسودان كانت أمنية قديمة من الأماني التي كنت أحلم بتحقيقها حتى قبل أن أصبح وزيراً للإعلام[1] .

وقصتي مع أم كلثوم قديمة ، إنها حبي الأول في الحياة الفنية ، وتعود قصتي مع أم كلثوم إلي سنوات بعيدة مضت عندما كنت طالبا بالقاهرة في مدرسة حلوان الثانوية سنة ١٩٣٨ ، وفي يوم من الأيام خرجنا في إحدى المظاهرات في مناسبة لا أذكرها ، وكانت المظاهرات تملأ القاهرة في تلك الأيام ضد الاستعمار الإنجليزي وضد حكومات الأقليات التي كانت تتعاون مع الإنجليز أو مع السراي . وفي هذا اليوم الذي أذكره جيداً خرجت في المظاهرة ، وجئنا إلي القاهرة ، ثم انفضت المظاهرة ،وذهبت أنا وبعض أصدقائي إلي مقهى في ميدان السيدة زينب .. كنا أربعة أصدقاء : اثنين من المصريين « الصعايدة » ،واثنين من السودانيين أنا واحد منهما .. وجلسنا في المقهى نشرب الشاي ، ثم اخترنا « طرابيزة » وأخذنا نلعب الطاولة .. وفي تلك الليلة كانت أم كلثوم تغني ، وكان كل من في المقهى ينصت للراديو ، ولم نكن ندري نحن أن أم كلثوم ستغني ولو كنا ندري لما اهتممنا بذلك لأننا لم نكن نعرف شيئاً واضحاً عن أم كلثوم ، ولم نكن قد استمعنا إليها من قبل. أول واحد منا رمى بزهرة الطاولة وأحدث صوتاً واضحاً ، وبدأنا نلعب ونحن نتكلم وفجأة هجم علينا ستة أو سبعة رجال ، لا أذكر ، ولكنهم جميعاً من بين رواد المقهى الذين كانوا يستمعون إلي أم كلثوم .. واحد من هؤلاء أخذ الطاولة

---

(١) كان الأستاذ عبد الماجد أبو حسبو وزيراً للإعلام والثقافة في السودان سنة ١٩٦٨ عند زيارة أم كلثوم ، وقد كان رجلاً مثقفاً وإنساناً رائعاً وشاعراً مبدعاً ، وكان من أروع الشخصيات التي عرفتها في حياتي ، وقد دخل السجن بعد انقلاب جعفر نميري سنة ١٩٦٩ ، ومات منذ سنوات في ظروف صعبة.

وقذف بها في الشارع ، وواحد قذفني بشتائم لا أول لها ولا آخر وقال لي : انتوا بتلعبوا طاولة والست بتغني ؟!.»

ولم يكن أمامنا إلا أن نهرب من المقهى ولم يكن أمامنا أيضاً فرصة لندفع الحساب .. خوفاً من الضرب .. وضحكنا من المسألة كلها واعتبرناها حادثاً طريفاً ، ولكنه كان بالنسبة لي غريباً ومثيراً .. فلماذا كل هذا الاهتمام بأم كلثوم وبسماع أم كلثوم ؟

ومنذ ذلك اليوم بدأت اهتم بالاستماع إلي الإذاعة لكي أعرف من هي أم كلثوم ولماذا يعبدها الناس فنياً بهذه الصورة .

وأذكر في اليوم الثاني لهذا الحادث الذي وقع لي ولأصدقائي في مقهى السيدة زينب أنني استيقظت من النوم علي صوت أم كلثوم وهي تغني قصيدة أذكر منها بيتاً واحداً هو :

وكلانا ساهر يرقب الصبحا   وكلانا طائر يحمل الجرحا

وقد سألت السيدة أم كلثوم عن هذه القصيدة فلم تتذكرها.

وقالت لي : إنها نسيت كثيراً من أغانيها ، وأن بعضها ضائع تماماً .

المهم .. أنني بعد هذا الحادث وبعد أن استمعت أكثر من مرة لأم كلثوم أصبحت متعلقاً بأم كلثوم إلي أبعد الحدود ، وأصبحت حريصاً علي أن أسمعها باستمرار وعلي أن أتابع أغانيها متابعة دقيقة . وكان من عاداتي أن أذهب مع بعض زملائي إلي بيتها ونقف أمام هذا البيت لعلنا نراها وهي في طريقها إلي الخارج ، ولعلنا لا نراها إطلاقاً ، ولكن كان يكفينا أن نتخيل أنها بداخل هذا البيت ، وعلي رأي الشاعر العربي القديم :

وما حب الديار شغفن قلبي

ولكن حب من سكن الديارا

ولم تتح لي الظـروف بعـد ذلـك ان احضـر حفلـة مـن حفلاتـها ، فقـد كـانت إمكانياتي هي إمكانيات طالب صغير محدود الدخل ..

وقد بقيت في مصر طيلة مدة تعليمـي الثـانوي ، ومـدة تعليمـي الجـامعي بعـد ذلك.. ولم أتمكن - رغم لهفتي - من حضور أي حفلة من حفلات أم كلثوم بسـبب الفقر.

وكنـت وأنـا طـالب في الجامعـة قـد تزوجـت بزوجـتي المصريـة ، ووجدتـها بالمصادفة أكثر تعلقاً مني بأم كلثوم فكنا نصرف كل ما نملك في شراء أسطوانات أم كلثوم ربما قبل شراء ملابسنا واحتياجاتنا الرئيسية ، وكنـت أحلـم طـوال الوقـت بأن أرى أم كلثوم في السودان ، وكنت أقول لنفسي - في ذلك الوقت - إنه لشخص عظيم ومحظوظ حقاً ذلك الذي يستطيع أن يقنع أم كلثوم بالحضور إلي السودان ، وقد ادخر القدر هذه اللحظة لأحققها بنفسي وأنا وزير للإعلام في السودان .. وأنـا لا أنسب لنفسي العظمة وإنما أنسب لها الجهد الذي بذلته في سبيل تحقيـق هـذا الحلم ، والحظ ساعدني علي تحقيقه.

عندما جئت وزيرًا للإعلام كان أول شيء فكـرت فيـه هـو أن أقنـع السـيدة أم كلثوم بالحضور إلي السودان ، وكنت وأنـا أفكـر في هـذا الأمـر أشـعر بـأنني أقـوم بمغامرة كبيرة ، لأن السودانيين لم يتعودوا علـى الاسـتماع للأغنيـة الطويلـة وهـم مشهورون بحبهم للأغاني المصرية الخفيفة السريعة ،وكان البعض يتهمون الشعب السوداني بأنه شعب متزمت وملول ، ولكن أم كلثـوم في زيارتـها للسـودان كـانت خير دفاع عن شـعب السـودان وعـن ذوق هـذا الشـعب ، وكـانت خـير رد علـي الاتـهامات الموجهـة إلي الـذوق السـوداني .. لقـد أثبتـت أم كلثـوم أن الشـعب السوداني ليس متزمتاً ولا ملولاً ولكنه لم يجد من يحرك فيه عواطفه الحقيقيـة .. لم يجد الفنان الذي يهز وجدانه كما فعلت أم كلثوم ، فأم كلثوم وحدها هي التي كشفت حقيقة عواطف الشعب السوداني واستجابته للفن الرفيع .. ولقد اتضح هذا كله من الحفلتين اللتين أقيمتا في الخرطوم ، وقد كشفت هاتـان الحفلتـان حقيقـة

أخرى وهي أن استجابة الشعب السوداني لأم كلثوم تشبه إلي حد بعيد استجابة الشعب المصري لها ، فقد لاحظت أن المقاطع التي كان يهتز لها الجمهور في مصر ويصفق هي نفس المقاطع التي كان الشعب السوداني يصفق لها ويهتز .

أما ما لاحظته علي السودانيين في حفلتي أم كلثوم فهو كثير جداً .. لقد لاحظت مثلاً بعض الشيوخ الذين يتسمون بالرزانة والتعقل وهم يخرجون تماماً عن طبيعتهم فيصرخون ويهللون وتبدو عليهم سعادة غامرة كأنهم عادوا عشرات السنين إلي الوراء . وقد لاحظت أيضاً أن الملل الذي كنت ، وكان غيري يتهم به الشعب السوداني ويعتبره طبيعة من طباعه .. هذا الملل ليس له وجود ، وكنت أنا شخصياً أشعر عندما تنتهي الوصلة الغنائية في أكثر من ساعة .. كنت أشعر أن الوقت الذي مر ليس ساعة أو يزيد ولكنه دقائق معدودات أو ثوان قليلة من عمري وعمر الآخرين. وهذا هو السر الكبير في أم كلثوم .. إنه سحرها الذي يجذب الناس إليها فينسون مرور الزمن ولا يحسون به.

وقد لاحظت أيضاً علي الجمهور السوداني الذي يستمع إلي أم كلثوم أن البعض كان يصرخ وأن الآخرين كانوا يبكون بدموع صامتة ، والبعض كان يرقص وهذا أيضاً سر كبير من أسرار أم كلثوم ، إنها تستطيع أن تملأ القلب بالفرح وتدفع البعض إلي الرقص والبعض إلي التأمل الوجداني والصوفي .. إنها تمس القلوب فتخرج ما فيها من عواطف ومشاعر كامنة وعميقة .

ولعل أغرب ظاهرة في الحفلتين اللتين أقامتهما أم كلثوم في السودان ، وهي ظاهرة لم تتكرر حتى في مصر أن بعض المستمعين عبروا عن أحاسيسهم بطريقة غريبة ومبتكرة ..

فقد قام هؤلاء بالصلاة داخل المسرح أثناء غناء أم كلثوم . لماذا كانوا يصلون في تلك اللحظة ؟! لقد فعلوا ذلك تحت تأثير العاطفة الحارة التي امتلأت بها نفوسهم ، وشكراً لله أن أتاح لهم أن يستمعوا إلي هذا الصوت الإلهي.

وبطبيعة الحال حدث كل هذا في الوقت الذي كان فيه أقرب الناس إليّ يظن أنني أقوم بمغامرة قد لا تحمد عواقبها .. وكان توقع هؤلاء أن الناس في السودان لن يستجيبوا لأم كلثوم ولن يتجاوبوا معها .. أو أنهم سوف ينصرفون أثناء الغناء ولن يتحملوا السهر مع أم كلثوم حتى نهاية الحفلة وسيكون هذا بالطبع أمراً محزناً للغاية.

ولكنني بالرغم من ذلك كله تحملت المسئولية إيماناً مني بأن الشعب السوداني شعب ذواقه للفن الرفيع .. ولقد نجحت زيارة أم كلثوم وحققت ما كنت أتخيله وأتمناه بل أكثر مما كنت أتخيل وأتمنى.

وعندما فكرت في دعوة أم كلثوم أرسلت إليها خطاباً حمله معه السيد عثمان الحضري وكيل وزارة الخارجية المساعد والذي كان في ذلك الوقت سفيرنا لدى الجمهورية العربية المتحدة ، وقد ذهب إلي السيدة أم كلثوم هو وزوجته وهذا هو نص الخطاب الذي أرسلته إلي سيدة الغناء العربي في ١٨ مارس ١٩٦٨ :

« عزيزتي السيدة الجليلة أم كلثوم :

من الخرطوم وباسم الشعب السوداني العربي .. أحيي في شخصك الكريم الحبيب الثورة الوطنية الفنية الكبرى في الأسرة العربية ، والتي حملت مشعلها في أحلك الظروف وقدت الطريق حتى أرسيت بوطنيتك وحماستك وشجاعتك قاعدة النضال بالنغمة الحلوة واللحن العذب والصوت الجميل القوي ، فجعلت من الفن رسالة ترسيخ لمفاهيم العروبة والوطنية واسترداد الحق المسلوب في الوطن العربي.

ولقد كان لصولاتك وجولاتك في هذا الميدان أثر لا حدود له في نفوس الشعوب العربية وفي مقدمتها الشعب السوداني الذي يفخر بك ويعتز، ويتطلع إليك لمواصلة كفاحه في دعم القضية العربية منذ يونيو ١٩٦٧ ، ذلك الكفاح الذي بلغ في بلادنا قمة الجهاد ، وذلك عن إيمان لا يتزعزع بان إزالة آثار عدوان ١٩٦٧ لم تعد مسئولية الدولة وحدها ولكنها في السودان مسئولية ضخمة يشكل فيها الشعب

قاعدة قوية متينة تقف عليها الدولة وترتكز.

ومن أجل هذا تحدثت مع زميلي الدكتور ثروت عكاشة وزير الثقافة في مصر ونقلت إليه رغبة السودان حكومة وشعباً في زيارتك لبلادنا ضمن جولتك الميمونة في العالم العربي لدعم المجهود الحربي . ولقد سرنا قبولك الدعوة في أبريل، ولكن تأكيداً بذلك لم يصلنا حتى الآن وإذا سمحت فإنني أنصح بأن شهر أبريل قد لا يكون مناسباً لأنه فصل بداية الحر ، ولو أنه قد لا يكون شديداً ولكن حرصنا علي شخص غال مثلك جعلني أوجه انتباهك إلي هذه الحقيقة وفي رأيي أن الفترة من نوفمبر ١٩٦٨ إلي يناير ١٩٦٩ قد تكون أنسب.

ولا يفوتني أن أقرر أن أبريل ليس سيئاً للحد الذي ذكرته غير أني في الوقت نفسه أترك لشخصك الكريم ولزميلي السيد الدكتور ثروت عكاشة وسفيرنا في القاهرة تحديد الزمن الذي ترين . أما المكان فهو المسرح القومي وهو أعظم وأكبر مسرح مفتوح في أفريقيا .. والتسهيلات اللازمة ستتوفر بأكمل صورة حتى يستمتع شعبنا بوجود شخصك المحبوب بيننا مع تقديري وشكري الفائق لك ـ المخلص : عبد الماجد أبو حسبو ـ وزير الإعلام والشئون الاجتماعية».

ولقد تأثرت السيدة أم كلثوم بذلك الخطاب ، وذكرت لي ذلك عندما تشرفت بزيارتها في منزلها بالقاهرة لأؤكد لها الدعوة وأكررها. وساعدنا كثيراً في استجابتها لدعوتنا إحساسها العميق ـ قديماً وحديثاً ـ بالحب والتقدير للشعب السوداني ..

وقد قالت لي أم كلثوم : إنها تأثرت أعظم التأثر بموقف الشعب السوداني أثناء نكسة ١٩٦٧ ..

وقالت أم كلثوم : إنها كانت تتمثل بهذا البيت دائماً :

جزى الله الشدائد كل خير عرفت بها عدوي من صديقي ..

وأخيراً تمت زيارة أم كلثوم للسودان ، واستقبلها الشعب السوداني أحسن

استقبال وهو ولاشك استقبال جدير بأعظم فنانة عربية وهبت فنها لشعبها وركزت كل طاقتها لخدمة القضية العربية.

ولقد ضاق المسرح القومي في « أم درمان » بالمستمعين ورأيت في تلك الحفلات ما لم أكن أحلم بأن أراه ، لقد كرمها السودان في كل مستوياته من رئيس الدولة والحكومة إلي كل الهيئات الشعبية في السودان ،ولقد كان من أهم مشاكلي - كوزير للإعلام والثقافة - حمايتها من تدافع الجماهير كلما ظهرت في مكان عام أو انتقلت من مكان إلي مكان . وكنت أقول لها لو أن قبلات المعجبين « بتخلص » الإنسان كانت قبلات الشعب « خلصتك » في الخرطوم ! !.

ولقد كانت أم كلثوم تبكي كثيراً في الخرطوم ، وكانت دموعها تعبيراً عن تأثر عميق باستقبال السودانيين لها ، كما أنها لم تضجر من ألوف الزائرين الذين يسعون إلي نظرة منها أو ابتسامة أو يطلبون أن يظهروا معها في صورة واحدة أو يقبلوا يدها ، ولقد رأيت في الحفلة الأولى التي أقامتها في مسرح « أم درمان » وعقب الوصلة الأولى التي غنت فيها « الأطلال » .. رأيتها وهي في طريقها إلي الصالون الملحق بالمسرح وقد جرى وراءها شاب سوداني وانحنى علي قدميها يقبلها ، ورأيت شاباً سودانياً آخر تخطى كل الصفوف من الجالسين في المسرح ، ومر من قلب « اللوج »الذي كان يجلس فيه أعضاء مجلس السيادة وقفز إلي المسرح وقبل يدها وعندما قبض عليه البوليس قال لهم : افعلوا بي ما تشاءون بعد أن قبلت يد كوكب الشرق . وظل هذا الشاب يقبل يده بعد ذلك .. لأنها اليد التي صافحت أم كلثوم وهجم عليه عدد من زملائه الشبان يقبلون يده .. تلك اليد التي صافحت يد أم كلثوم.

إنها لسعادة كبرى لي أن يتم هذا كله وأنا الوزير المسئول ، وأن تتحقق هذه الأمنية التاريخية في العهد الذي أتولى فيه وزارة الإعلام والثقافة والشئون الاجتماعية في السودان.

ولقد تلقيت بعد زيارة أم كلثوم كمية من التهاني لم أحصل عليها في حياتي

عن أي عمل قمت به ولن أحصل على مثلها أبداً .. ومن أطرف ما سمعته من أحد المواطنين وأنا ذاهب مع السيدة أم كلثوم إلي إحدى الحفلات ما قاله لي هذا المواطن : « إن ماكنتوش هتعملوا حفلة ثالثة هنسقط الحكومة » .. وذلك لأن برنامج أم كلثوم في السودان كان هو أن تقدم حفلتين فقط ، وكنا بلداً ديمقراطياً كان الشعب فيه يستطيع أن يسقط الحكومة.

ولقد سمعت مواطناً آخر يقول لي « هذا أكبر إنجاز في حياتك » وقد قبلت زوجتي يدي أمام أم كلثوم وأمام عدد من الحاضرين وذلك تعبيراً منها عن شكرها لي علي أنني استطعت أن أدعو أم كلثوم إلي السودان واستطعت أن أقنعها بالحضور إلي الخرطوم.

وقبل أن تسافر أم كلثوم عائدة إلي القاهرة بدقائق اتصلت زوجتي تليفونياً وكانت تبكي وقالت أنها لا تستطيع أن تتصور أن السيدة أم كلثوم ستغادر السودان .. وقالت زوجتي إنها لا تستطيع أن تأتي إلي المطار ولا تستطيع أن تتصور فراق أم كلثوم ، وقالت لها أم كلثوم في التليفون : قولي ورايا : لا إله إلا الله .. محمد رسول الله .. وكررت هذه العبارة وكررتها وراءها زوجتي عدة مرات، وهانحن الآن بعد سفر أم كلثوم بيومين .. ومع ذلك فإن زوجتي لم تخرج من غرفتها حتى هذه اللحظة ، يمزقها الحزن واللوعة علي فراق أم كلثوم.

وفي رأيي أن زيارة أم كلثوم ليست كما يبدو للبعض زيارة ترفيهية بل هي علي العكس لها أهميتها في أكثر من جانب ،فهذه الزيارة عمل ثقافي، ولقد كان رأيي دائماً أن السيدة أم كلثوم مدرسة في الأمة العربية لأنها علمت الرجل العادي كيف يستمع إلي قصائد شوقي وحافظ وكيف يستمع إلى كل الشعر الرصين ، وأم كلثوم ثقفت الرجل العادي فنياً وأدبياً ووطنياً ولعلنا لن ننسى أبداً « سلو قلبي » و « الأطلال » و « أراك عصي الدمع » وغيرها من قصائد الشعر الرفيع الذي تغنيه أم كلثوم للشعب العربي فترفع من مستوى ذوقه وثقافته وفهمه لأمور الفن والحياة.

وقد شرفتني السيدة أم كلثوم بالزيارة مرتين .. مرة في الحفل الذي أقمتـه لهـا بصفتي الرسمية في منزلي ، ومرة أخرى وكانت في منزلي أيضاً ، شرفتني أم كلثـوم بزيارة خاصة جلست فيها معي ومع أسرتي ..

والحقيقة أن أم كلثوم تمكنت كل التمكـن مـن قلـوب أفـراد أسـرتي جميعـاً ، فكانت زوجتي وأولادي في الحفلة الأولى يبكون دون أن يعرفوا سبباً لهذا البكاء .. لقد أحبوا أم كلثوم حباً عاطفياً عميقاً خاصة بعد أن عرفوها عن قرب.

وأم كلثوم في جلستها الخاصة مهتمة علي الدوام بالحديث عن القضية العربيـة وقد تحدثت كثيراً عن إعجابها بالمرأة السـودانية وعـبرت عـن فرحـة لقائـها مـع الشعب السوداني وقد قالت لي مراراً :

« سأحضر إلي السـودان في العـام القـادم سـواء دعتـني حكومـة السـودان أم لم تدعني» .. وفي الحقيقة أن أم كلثوم لو بقيت في السودان عاماً كاملاً لما كان هناك متسع إلا لحفلات التكريم المتتالية المسـتمرة وقـد قـالت لي أم كلثـوم عـن الشـعب السوداني:

« إنه شعب منظم ومتجاوب وعاطفي وصادق إلي أبعـد الحـدود[1] » وبـالأمس عندما أذاع التليفزيون حفلتها الأولى وعلم الناس بأن الحفلة ستذاع بعد وقت قليل أقبل الناس علي شراء الأجهزة إقبالاً كبيراً ، وبلغ ما بيع في أسبوع أم كلثوم مـن أجهزة التليفزيون في السودان ما يساوى الكميات المباعة من هـذه الأجـهزة خـلال عام كامل.

وفي ليلة إذاعة حفلة أم كلثـوم في التليفزيـون التـف كـل أبنـاء العاصمـة حـول أجهزة التليفزيون .. ومـن الآثـار الطيبـة والطريفـة لزيـارة أم كلثـوم أن الهيئـات النسائية في السودان علي اختلاف اتجاهتها لم تلتق في عمـل واحـد إلا في الحفلـة

---

(١) لم تذهب أم كلثوم إلي السودان بعد هذه الرحلة أبداً لأن جعفر نميري استولى علي السلطة ، ومـن يومـها دخلت السودان في صراعات سياسية متصلة.

التي أقامتها تلك الهيئات النسائية تكريماً لأم كلثوم..

إن الهيئات النسائية تمزقها الخلافات الحزبية الكبيرة .. ولكن هذا التمزق انتهى وتلاشي أمام شخصية أم كلثوم وتحت تأثير زيارتها للسودان . وقد قلت لأم كلثوم : إنك وحدت العرب وجدانياً وثقافياً وها أنت الآن تحققين مهمة أشق وأصعب وهي توحيد الجماعات النسائية السودانية المتصارعة.

كان دخل الحفلتين اللتين أقامتهما أم كلثوم في حدود ٢٤٠ ألف جنيه، وهو دخل لم يحدث في تاريخ السودان كله أن حققته أي حفلة علي الإطلاق. ولقد اضطررنا في كل الحفلات أن نضيف أكثر من ألف كرسي في ممرات المسرح وجميع الموظفين المسئولين في وزارة الإعلام كانوا يقفون علي أرجلهم في المسرح ، وحضر الحفلتان كل أعضاء مجلس السيادة السوداني ، كما حضر ضيف السودان الكبير « ترايكوف » رئيس المجلس الوطني البلغاري حفلة من حفلات أم كلثوم وذهل من الاستقبال الكبير الذي أعده شعب السودان لهذه الفنانة العظيمة .. وعندما علم بالهدف الذي من أجله أقامت أم كلثوم حفلاتها وهو خدمة المجهود الحربي ضد العدوان الصهيوني اشترى تذكرة في الحفلة ودفع ألف جنيه ثمناً لهذه التذكرة.

ومن اطرف التعليقات التي سمعتها ونحن خارجون من الحفلة الأولى ما طالب به البعض من إغلاق المسرح القومي إلي العام القادم حتى تعود أم كلثوم إلي السودان ، فلا يجوز أن يقف علي هذا المسرح أحد بعد أم كلثوم ..

وقد قدمنا لأم كلثوم مجموعة دواوين من الشعر السوداني من بينها ديوان السيد محمد أحمد محجوب رئيس الوزراء عند زيارتها للسودان وهو ديوان «قلب وتجارب » كما قدمنا لها ديوان أحمد محمد صالح « ثورة الأحرار » وقدمنا لها مجموعة من الدواوين والقصائد الأخرى لعدد كبير من الشعراء السودانيين وقد وعدت أم كلثوم باختيار قصيدة لشاعر سوداني وتقديمها في أحد مواسمها الغنائية

القادمة ، وعندنا ثقة كاملة في أن أم كلثوم سوف تحقق هذا الوعد[1]

أنا أحب كل أغاني أم كلثوم ، ولكن بعض هذه الأغاني تحتل من قلبي مكانة خاصة ، وفي مقدمة هذه الأغاني : « رباعيات الخيام » و « كئوس الطلا» و « نهج البردة » و « هذه ليلتي » . وبالذات في أغنية هذه ليلتي[2] وهي أحدث أغاني أم كلثوم سنة ١٩٦٨ فإنها تستولي بصورة كاملة علي عواطفي وعواطف الجماهير التي استمعت إليها ، لقد وصلت فيها أم كلثوم إلي قمة فنية عالية .. وأذكر أنني بكيت عندما سمعت أم كلثوم في هذا البيت:

« سهر الشوق في العيون الجميلة حلم آثر الهوى أن يطيله »

وكنت أحس أنني في حالة نشوة صوفية وأنا أسمع أم كلثوم وهي تغني هذا البيت ، وقد نقلت إلي أم كلثوم هذا المعنى فقالت لي :

« إنها فعلاً تعتبر أداءها لهذا البيت نوعاً من الترتيل » .. وقد أدته أم كلثوم أداءً ترتيلياً رائعاً.

ولذلك عندما صرخ أحد الشاهدين وأم كلثوم تؤدي هذا البيت أشارت إليه أم كلثوم بيدها وقالت له : هس . وكأنها تنبه إلي أن هذا الجو النفسي القريب من التصوف لا يصح فيه حتى الهمس.

والحقيقة أن أم كلثوم غنت « هذه ليلتي » في الخرطوم كما لم تغنها من قبل . وهذا يفسر إصراري علي أن أطلب من أم كلثوم أن تغني « هذه ليلتي» مرة أخرى في حفلتها الثانية في الخرطوم ..

وقد فعلت ذلك ـ بالإضافة إلي إحساسي بأن أم كلثوم قد غنت هذه الأغنية في

(١) وفت أم كلثوم بوعدها ، وغنت قصيدة للشاعر السوداني " الهادي آدم " من تلحين محمد عبد الوهاب والقصيدة هي " أغداً ألقاك ".

(٢) " هذه ليلتي " هي قصيدة للشاعر والأديب اللبناني المبدع الصديق " جورج جرداق " وهي من تلحين محمد عبد الوهاب.

السودان ـ بناء علي مئات التليفونات التي تلقتها والتي طلبت مني أن أرجو أم كلثوم أن تقدم « هذه ليلتي » مرة أخرى في حفلتها الثانية .. وقد قدمتها بالفعل في أحسن صورة لهذه الأغنية الجديدة.

ويواصل عبد الماجد أبو حسبو وزير الإعلام السوداني أثناء زيارة أم كلثوم للخرطوم حديثه فيقول :

لقاء أم كلثوم وعبد الوهاب كان في وقته تماماً[1] ، ولو حدث هذا اللقاء قبل ذلك لكان قد فشل .. وهذا هو إحساسي ، فقد التقى الاثنان بعد أن فهما بعضهما البعض أحسن الفهم وأعمقه ، وعندما بدأ عبد الوهاب في تقديم ألحانه لأم كلثوم كان في موقف من مواقف التحدي .. إما أن يموت فنياً إلي الأبد وإما أن يحيا فنياً إلي الأبد ويواصل رحلته المتألقة في عالم الفن العربي.

وعبد الوهاب ـ في رأيي ـ محب للحياة والفن ولا يمكن أن يموت فنياً بسهولة.. إنه عاشق من عشاق الحياة والفن ولذلك نجح عبد الوهاب مع أم كلثوم وكان لابد أن ينجح ، وكان نجاحه في لحن « إنت عمري » .. أول لحن قدمه لأم كلثوم .. هذا النجاح .. أكسبه ولاشك مزيداً من الثقة بفنه ، والحقيقة أنني أتوقع روائع كثيرة بعد لقاء عبد الوهاب وأم كلثوم ، وليس غريباً أن تأتي هذه الروائع من ألحان عبد الوهاب وصوت أم كلثوم.

وفي اعتقادي عموماً أن الملحنين الذين يلحنون لأم كلثوم هم أعظم الملحنين في حياتنا الفنية العربية ولكنني أضع في المقدمة عبد الوهاب والسنباطي.

أحب أن أقول لك أخيراً إن أم كلثوم لو لم تكن صاحبة الموهبة الفنية العظيمة لكانت من أعظم رائدات المرأة العربية ، فهي كفنانة لم تخضع فنها في يوم من الأيام إلا للوطنيات والوجدانيات والأغاني الدينية .. لقد احترمت نفسها إلي الحد

---

(١) كان أول لقاء لأم كلثوم مع عبد الوهاب سنة ١٩٦٤ ، وكانت أول أغنية لها من تلحين عبد الوهاب هي " إنت عمري " التي كتبها أحمد شفيق كامل وقد غنت أم كلثوم لعبد الوهاب عشرة ألحان.

الذي جعل جميع أبناء الأمة العربية ينظرون إليها نظرة تقدير وإجلال بالغ وعميق .. إنها قوية الشخصية معتزة بوطنها وفنها ونفسها تقف دائماً علي مستوى الظروف التي يعيش فيها شعبها.

وأحب أن أقول لك أخيراً إن الهدية التي قدمتها أنا للشعب السوداني هو أنني سمعت أثناء زيارة أم كلثوم أن هناك ضريبة جمارك تبلغ ١٠٠٪ تفرض علي أسطوانات أم كلثوم ،وذهبت إلي زميلي الشريف حسين الهندي وزير المالية واتفقت معه علي تخفيض هذه النسبة إلي ١٧٪ فوافق علي ذلك.

ماذا أقول بعد ذلك كله ؟!

أقول لك ما غنته أم كلثوم في أغنية « هذه ليلتي » :

وليكن ليلنا طويلاً طويلاً فكثير اللقاء كان قليلاً .

نعم .. لقد كان لقاؤنا في السودان مع أم كلثوم لقاء سريعاً وسعيداً وعميقاً .. وقد مر بنا كما تمر اللحظات السعيدة الحلوة التي نتمنى عودتها دائماً .. دائماً!

قلت للسيد عبد الماجد أبو حسبو وأنا أودعه وأشكره علي حديثه الممتع : أرجو أن نلتقي مرة أخرى في الخرطوم .. وفيها أم كلثوم . فقال لي : إن شاء الله لابد من ذلك في أقرب فرصة ، وستكون أم كلثوم في الخرطوم هذه المرة احتفالاً بالنصر[1] .

♫ ♫ ♫

---

(١) كل الحديث في هذا الفصل للأستاذ عبد الماجد أبو حسبو وزير الإعلام السوداني سنة ١٩٦٨ عندما زارت أم كلثوم السودان ، ولم تعد أم كلثوم إلي السودان لأن جعفر نميري استولى علي السلطة وأدخل الوزير المثقف الفنان عبد الماجد أبوحسبو إلي السجن ،وخرج منه محطماً ومات بعد سنوات قليلة ، ولم يكن السودان في عهد نميري مهتماً بالفن والثقافة ، بل كان مليئاً بالصراعات العنيفة التي بدأت عصراً دموياً لم تعرفه السودان من قبل .

عندما كنت أموت
مع أم كلثوم

عندما تلقيت الدعوة لزيارة ليبيا ضمن البعثة الصحفية المصاحبة للسيدة « أم كلثوم » شعرت بالقلق .. لا بالنسبة لي فقط ولكن بالنسبة لأم كلثوم أيضاً .. وكان سبب القلق عندي هو أن ليبيا بلد حديث يتجدد كل يوم ، أي أن ليبيا التي كنا نقرأ عنها سنة ١٩٥٩ وما قبلها ليست هي ليبيا سنة ١٩٦٩ .. إن كل شيء يتغير في هذا البلد العربي يوماً بعد يوم ، بل ساعة بعد ساعة .. ولكي يتضح معنى هذا التغيير ودرجته أذكر هنا ما قاله لي السيد « إبراهيم الهنغاري » وكيل وزارة البترول في ليبيا عندما التقيت به في طرابلس وسألته عن الاكتشافات البترولية ، فقد قال لي : إننا نكتشف البترول كل يوم في أرضنا الليبية .

قلت له : تقصد كل شهر مثلاً ، أو كل شهرين .. فأعاد كلامه وأكد عليه قائلاً: الاكتشافات عندنا يومية .. وليست كل أسبوع أو كل شهر !

ماذا يعني هذا ؟ إنه يعني أن المجتمع الليبي يتطور بصورة عنيفة وسريعة ، ويتغير بين لحظة وأخرى .. وهذا هو بالفعل ما لاحظته عندما زرت ليبيا في هذه الرحلة مع السيدة أم كلثوم . حيث كنت أشاهد ليبيا لأول مرة .. إن كل منطقة من مناطق ليبيا مليئة بحركة واسعة من الإنشاء والتعمير .. والآلات الكثيرة في كل مكان .. وتمهيد الأرض وإعدادها للمنشآت المختلفة يتم بسرعة ونشاط .. وأذكر في مدينة بنغازي وحدها أنني رأيت هناك منشآت جديدة تقام علي مساحة تكاد تساوي حجم مساحة المدينة الأصلية تقريباً ، فهناك جامعة بنغازي والتي تبنى علي مساحة واسعة جداً من الأرض .. وهناك المدينة الرياضية التي تقام أيضاً في بنغازي علي مساحة واسعة جداً من الأرض.

الحقيقة أن ليبيا يتم بناؤها من جديد .. وهي الآن تمر بمرحلة البناء المليئة بالحركة والنشاط والحيوية !

وأنا أومن دائماً أن التجديد في المجتمع يتبعه تجديد وتغيير في الذوق العام .. ومن أجل هذا كنت أحس بالقلق .. هل يمكن أن يتذوق الليبيون فن أم كلثوم كما يتذوقه العرب في كل مكان آخر ؟ ألم تنعكس علي الذوق الليبي آثار التغييرات الكثيرة في داخل المجتمع ؟ من خلال هذه الأسئلة وغيرها كنت أحس بالقلق ، وكنت أخاف ألا تنجح رحلة أم كلثوم ، بعد أن استطاعت هذه الفنانة العظيمة أن تحقق أعلي درجة من درجات النجاح في رحلاتها الست التي سبقت رحلة ليبيا وهي رحلاتها إلي : باريس والمغرب والكويت ولبنان والسودان.

ولقد أتيح لي أن أكون ضمن أفراد البعثة الصحفية التي صاحبت أم كلثوم إلي السودان ، ورأيت كيف كان استقبال أم كلثوم رائعاً بين الشعب والمسئولين معاً ، فقد لقيت أم كلثوم حباً وتكريماً فوق الوصف والتصور من شعب السودان ، وكانت أم كلثوم في غاية السعادة والرضا بلقائها مع هذا الشعب العربي العاطفي الذواقة الذي سعد بها وبفنها وبدورها في الكفاح الوطني.

والآن نحن في طريقنا إلي ليبيا فهل تنجح رحلة أم كلثوم إلي ليبيا كما نجحت في السودان وفي غيرها من البلاد العربية ؟! ، كنت قلقًا .. وعشت خلال الرحلة كلها أحمل معي هذا القلق .. وقد انتهت الرحلة فماذا كانت النتيجة ؟ هذا ما أتركه قليلاً لأعود إليه في آخر هذا الفصل.

كانت بداية الرحلة يوم الأربعاء ١٠ مارس الساعة الثالثة بعد الظهر وقد رفضت أم كلثوم أن تركب طائرة خاصة وفضلت أن تركب الطائرة التي تسافر إلي ليبيا مليئة بالركاب العاديين ، ودخلت أم كلثوم الطائرة ،وهي في العادة تدخل الطائرة في آخر لحظة قبل إقلاعها بدقائق .. وجلست أم كلثوم في أول مقعد كما تعودت دائماً ، وجلس إلي جانبها ابن شقيقتها المهندس «محمد دسوقي» رئيس مجلس إدارة شركة دور العرض السينمائية ، ومحمد دسوقي يلازم أم كلثوم دائماً

ملازمة الظل .. عاونها بإخلاص في كل شيء وهو بمثابة ابنها الحنون الطيب . وسلوك أم كلثوم في الطائرة جدير بالملاحظة ، فهي لا تتحرك من مقعدها أبداً .. تجلس هادئة .. وأحياناً تتمتم ببعض آيات من القرآن .. ولا تشرب إلا عصير الفاكهة ، وهي في أغلب الأحوال لا تتناول أي طعام في الطائرة .. ولا تتناول الشاي ولا القهوة .. وفي الطائرة كنت أحمل معي كتاب « في داخل أفريقيا » للكاتب الأمريكي المعروف « جون جنتر ».. وبدأت أشغل نفسي بقراءة الفصل الذي كتبه «جنتر » عن ليبيا .. وكان جنتر قد كتب هذا الفصل قبل ظهور البترول هناك، ولذلك جاء الفصل الذي كتبه عن ليبيا طريفاً ومثيراً ومليئاً بالملاحظات الغريبة التي تبدو الآن بعيدة كل البعد عن الحقيقة .. يقول « جنتر « في كتابه: « ترجمة الأستاذ حسن جلال العروسي » : « تمتلئ ليبيا بعجائب شاذة ، وقليل من الأمريكيين من يقدرون اتساعها حق قدره وذلك إذا سلمنا جدلاً أنهم يعلمون حتى مكانها . فهى تعتبر أكبر حجماً من أوروبا الغربية بأكملها وتبلغ خمس حجم الولايات المتحدة . غير أن معظم هذه المساحة صحراء لا قيمة لها ، « من الملاحظ أن المملكة العربية السعودية كانت صحراء لا قيمة لها في يوم من الأيام ولكن انظر إليها الآن »

وتطل ليبيا علي البحر الأبيض ولكنها تمتد بعمق في الصحراء الكبرى وتخلو كلية من الأنهار . هناك أمطار غزيرة علي طول الساحل ، ولكن ليبيا مع ذلك خالية تماماً من الماء العذب باستثناء مياه آبار الواحات المتناثرة هنا وهناك ، نتيجة لذلك فمن المرجح أن تكون ليبيا أفقر دولة في العالم كما أنها في نفس الوقت احدث دولة ، ومن المحتمل ألا يزيد متوسط دخل الفرد الواحد علي ١٣ جنيهاً استرلينياً في السنة ولا يقطن هذه المساحة الليبية الشاسعة سوى ١,١٥٠,٠٠٠ نسمة معظمهم بدو رحل . وليس لدى ليبيا مصرف خاص بها ، كما لا يوجد طبيب وطني واحد والخطوط الحديدية لا يزيد طولها عن ٢٢٥ ميلاً ، أما جيشها فقد كان يبلغ عدده عند وجودي هناك ٨٥ رجلاً . ويشرب سكانها الشاي المخلوط

بالنعناع والمزوج بالبندق كصنف مـن الحلـوى في نهايـة وجباتـهم « . هـذه هـي صورة ليبيا كما يرسمها « جنتر » بعد زيارته لها منذ حوالي سنة ١٩٥٠ تقريباً .. وطبعاً لم يعد لهذه الصورة أي صلة بالواقع في ليبيا .. فلم تعد ليبيـا أفقر بلـد في العالم .. بل أصبحت علي العكس تماماً من أغنى بلاد العالم .. وامتلأ هـذا البلـد بكل مظاهر الحضارة الحديثة ، وربط نفسه بكل مظاهر التقدم العلميـة المعروفـة. وهذا هو الكتاب الذي كنت اقرأ صفحاته وأنا في الطائرة في طريقـي إلي ليبيـا لأول مرة .. وقفت الطائرة بنا في بنغازي في مطار صغـير ولكنـه نظيـف وأنيـق . وكـان استقبال أم كلثوم هادئاً ولكنه كان حاراً وصادقاً ! وفي استراحة المطار قضينا بعض الوقـت حيـث التـف الجمـهور والصحفيـون حـول أم كلثـوم .. يتحدثـون معـــها ويرحبون بها !.. وركبنا الطائرة من جديد إلي طرابلس ووصلنا إلي المدينة في المساء. وكان في استقبال أم كلثوم عدد من المستقبلين علي رأسهم السيد « عبـد الله عـابد السنوسي » الذي قام بدعوة الفنانة الكبيرة إلي ليبيا ، وكان هناك أيضاً عـدد مـن الصحفيين وعدد من المواطنين المحبين لفـن أم كلثـوم ! علـي أن مدينـة طرابلـس أعدت استقبالها الأول لأم كلثوم في مكـان آخـر غـير المطـار .. فالمطـار بعيـد عـن المدينة بما يزيد عن ثلاثين كيلـو مـتراً ممـا حـال بـين كثـير مـن المواطنـين وبـين الحضور إلي المطار . أما الاسـتقبال الحقيقـي لأم كلثـوم فكـان في معـرض طرابلـس الدولي فقد زارت أم كلثوم المعرض في اليوم الثاني لوصولهـا إلي طرابلـس وتجمعـت جماهير الشعب الليبي حول أم كلثوم ، ووقفـت أمـام جنـاح الجمهوريـة العربيـة المتحدة[1] حيث كانت أم كلثوم في زيـارة لهـذا الجنـاح .. ثـم خرجـت أم كلثـوم لتلتف حولها الآلاف يصفقـون لهـا ويرحبـون بـهـا .. وبصعوبـة ركبـت أم كلثـوم سيارتها ، ولكن السيارة لم تتحـرك إلا بجـهد كبير بـين زحـام الجماهـير الـتي جاءت لتحيي أم كلثوم وفنها ودورها الوطني.

---

(١) كان هذا هو اسم مصر الرسمي حتى ذلك التاريخ ـ ١٩٦٩ ـ منذ أيام الوحدة المصرية السورية " ١٩٥٨ – ١٩٦١ " وقد قام الرئيس الراحل أنور السادات بتغيير اسم الجمهورية العربية المتحدة .. إلي جمهورية مصر العربية بعد ١٥ مايو سنة ١٩٧١.

وقد نزلت أم كلثوم في فندق « الودان » أهم فنادق طرابلس و « الـودان » هـو اسم حيوان شبيه بالغزال وهو حيوان معروف في ليبيا ، ومن هذا الحيـوان اسـتمد الفندق اسمه.

وفي ليلة الحفلة الأولى يوم الأربعاء ١٢ مارس تجمعت الجماهير من كـل أنحـاء ليبيا لتستمع إلي أم كلثوم وكان السرادق يضم ما يقرب من سـبعة آلاف مستمع ، كما كانت الحفلة مذاعة في الإذاعة الليبية ، والتليفزيون الليبي الذي أنشئ حديثاً هناك ، وحضر الحفل رئيس الوزراء والوزراء والمسئولون ، كما حضرها عدد كبـير من سيدات ليبيـا .. وكـن يلبسـن ملابـس عصريـة متأنقـة، ولم تظـهر السـيدات بالحجاب الذي ينتشر في بعض البيئات في ليبيا.

وكان أعضاء مكتـب منظمـة « فتـح » في ليبيـا يشـرفون علـي تنظيـم الحفلـة ويستقبلون الجماهير ، فرحلة أم كلثوم إلي ليبيا كانت من أجل « فتـح » .. مـن أجل الفدائيين الذين يبذلون دماءهم ثمناً لتحرير بلادهم.

وقد استقبل الجمهور في طرابلس أم كلثـوم اسـتقبالاً حـاراً ورائعـاً .. ولم يكـن هناك أي اختلاف في هذه الحفلة بين الجمهور الليبي وبين الجمهور العربي الذي أحب أم كلثوم وتعلق بها في كل البلاد العربية الأخـرى الـتي قـامت بزيارتـها .. فأم كلثوم تحمل الفـن الجميـل الجـاد الأصيـل إلي الوجـدان العربـي وهـي تغـني للعاطفة العميقة الصادقة .. ويحس العربـي وهـو يسـتمع إلي أم كلثـوم أن صوتـها القوي العميق يحمله إلي آفاق جديدة منطلقة متحررة من القيود .. والشعب الليـبي شعب عربي .. ثقافته عربية وذوقه عربي والفن الذي يثير وجدان هذا الشعب هو الفن العربي الأصيل ، وهو علي وجه الخصوص ذلك الفن الذي انطلق من مصر ، لأن العلاقات الوجدانية والثقافية بين مصر وليبيا قوية وقديمة ، وقد لا تكون هذه المسالة محسوسة في مصـر ولكنـها محسوسـة إلي أبعـد الحـدود في ليبيـا .. فليبيـا تسمع وتقرأ كل ما ينبض به قلب مصر من فن وثقافة ، وليبيـا تعـرف كـل شـيء عن حياتنا الفنية والثقافية ولقد كنت قلقاً في بداية الرحلـة مـن أن تكـون ظـروف

التغيير الاقتصادي الضخم والتطور الحضاري الكبير في ليبيا قد غيرت الليبيين وأبعدتهم عن الثقافة العربية والذوق العربي العام .. ولكنني في الحقيقة لم أجد ما يبرر هذا القلق ، فالليبيون محتفظون بشخصيتهم العربية وذوقهم العربي .. ومن هنا لم يكن فن أم كلثوم غريباً علي هذه البيئة الليبية .. فأم كلثوم مسموعة في ليبيا منذ عشرات السنين ، والناس يحبون صوتها ويجدون فيه تعبيراً وجدانياً عميقاً عنهم .. لا خلاف في هذا الأمر بين الليبيين وغيرهم من العرب ، بل لقد وجدت حماساً كبيراً لدى المثقفين والأدباء وكبار الكتاب في ليبيا لأم كلثوم ، وهذا الحماس يشترك فيه المثقف الليبي مع المواطن العادي.

وأذكر أن الأديب الليبي المعروف « علي مصطفى المصراتي » قال لي إنه حريص علي أن يلتقي مع أم كلثوم وأن يناقشها في آرائها الفنية وأن يسجل هذه الآراء في كتاب يعده للنشر ، لأنه يعتبر صوت أم كلثوم وفنها وشخصيتها من أبرز ملامح الحياة الفنية في المجتمع العربي كله في القرن العشرين.

ولو سألت مواطناً ليبياً عادياً عن أم كلثوم لوجدت نفس الحماس لأم كلثوم وفنها ونفس الاحترام والتقدير.

فأم كلثوم شأنها شأن الملامح البارزة في الحياة الفكرية والفنية في مجتمعنا العربي قد تجاوزت منطقة الخلاف حولها ووصلت إلي منطقة الإجماع .. فأم كلثوم مثلها مثل « طه حسين وتوفيق الحكيم » وغيرهما من أعلام حياتنا الفنية كلهم فوق الخلافات الجزئية الصغيرة .. إنهم ملك للوجدان العربي وللعقل العربي كله.

ومن الغريب أن بعض الصحف الليبية هاجمت أم كلثوم وتركز هذا الهجوم حول نقطة أساسية هي أن أم كلثوم تغني للحب ونحن نعيش في معركة !.

وقبل أن أناقش هذا الرأي أحب أن أقول إن مهاجمة بعض الصحفيين الليبيين لأم كلثوم لم تكن ظاهرة عامة .. فالظاهرة العامة أن الصحافة الليبية رحبت بأم

كلثوم خير ترحيب .. وخاصة الصحف الكبرى والرئيسية مثل صحيفة « الرائد» وصحيفة « الحرية » وغيرها من الصحف .. ومن ناحية أخرى فإن الهجوم الذي شنته بعض الأقلام لم يكن له صدى عند الجمهور الليبي الذي حرص كل الحرص علي الاستماع إلي أم كلثوم والترحيب بها والاستمتاع بفنها الأصيل .

ولقد كان ترحيب الجمهور الليبي بأم كلثوم خير رد علي العدد القليل من الأقلام التي هاجمتها .

ونعود بعد ذلك إلي نقطة الهجوم وهي أن أم كلثوم تغني للحب في وقت المعركة.

وأذكر في هذا المجال ما سمعته من مستشرق أجنبي كان معنا في السودان عندما كانت أم كلثوم هناك في ديسمبر سنة ١٩٦٨ .. قال لي هذا المستشرق الأجنبي إن أم كلثوم بفنها تكشف عن حيوية غريبة في الشعب العربي .. فالمفروض أنكم شعب مهزوم .. والهزيمة دائماً تقترن باليأس .. ولكني في حفلات أم كلثوم أرى شعباً آخر مليئاً بالحيوية والانفعال والحرارة، بعيداً كل البعد عن اليأس.

ثم قال لي : « إن شعباً يغني للحب وهو يعيش في جو المعركة .. لا يمكن أن يكون شعباً ضعيفاً غير قادر علي الحياة .. بل هو شعب حي متفتح القلب ومثل هذا الشعب يستطيع أن يواجه أعداءه بقوة ! »

هذه ملاحظة من رجل أجنبي .. وهي في اعتقادي ملاحظة صحيحة تماماً! فالحب .. ليس ضد الوطنية .. لأن الحب عاطفة إنسانية صحيحة .. والحب والوطنية لا تناقض بينهما.. إنهما أعلي مراحل الإنسانية .

والإنسان الذي يعرف الحب .. يمكن أن يكون فدائياً وشهيداً ومناضلاً من أجل حرية وطنه . والفيلسوف اليوناني الكبير أفلاطون له رأي يقول فيه ما معناه: أعطني جيشاً من العشاق وأنا أغزو لك العالم وأنتصر.

ومن ناحية أخرى .. فإن المعركة لا تطلب منا أن يترك الإنسان عمله الذي يجيده إلي عمل آخر .. فليس مطلوباً من المهندس أن يكون طبيباً ولا من الطبيب أن يكون طياراً .

ومن هنا فإن أم كلثوم تخدم وطنها وتخدم المعركة عن طريق فنها .. ولا يمكنها أن تخدم وطنها إلا عن طريق الفن .. وهي تضع مواهبها وتاريخها الفني كله في خدمة المعركة .. وهذا هو دورها وهو دور عظيم من الوجهة الفنية والوجهة الوطنية.

وعلي أية حال فإن الأصوات التي ارتفعت بالهجوم علي أم كلثوم في ليبيا .. كانت أصواتاً قليلة إلي جانب صوت الجمهور الذي رحب بأم كلثوم كل الترحيب واستقبلها أحسن استقبال .. وكانت أصوات الهجوم قليلة بالنسبة للأقلام الكبيرة التي رحبت بأم كلثوم وفهمت دورها الفني والوطني فهماً حقيقياً .

وإلي جانب الاستقبال الحار الكبير الذي لقيته أم كلثوم في حفلة طرابلس .. استقبلتها الهيئات الاجتماعية والثقافية أحسن الاستقبال .. فقد زارت أم كلثوم الجامعة في طرابلس .. واستقبلها الجامعيون استقبالاً حاراً إلي أبعد الحدود ، كما أقامت لها السيدة « عزيزة الشيباني » في ليبيا حفلة كبيرة اجتمعت فيها مع عدد كبير من نساء ليبيا ، وقد حرصن علي الالتقاء بها والحديث معها والترحيب بزيارتها إلي ليبيا.

وبعد أسبوع طارت أم كلثوم من طرابلس إلي بنغازي .. وكان ذلك يوم ١٧ مارس الساعة الثامنة مساء علي التقريب .. وفي الطريق إلي بنغازي تعرضت الطائرة لمطبات هوائية هددتها بالخطر الحقيقي ، وقد فقد كثير من ركاب الطائرة أملهم في النجاة .. وصرخ البعض وأغمى علي البعض ، وظهر المضيف الأجنبي ووجهه أصفر وقد بدا عليه الذعر ، وكنت أجلس علي مقعدي وراء أم كلثوم مباشرة .. وكان الصديق كمال الملاخ إلي جانبي يحاول أن يفتح أحاديث مختلفة عن توفيق الحكيم وعن حياتنا الفنية هنا وهناك .. كان يحاول أن يخرج بنا من

جو الأزمة التي أطبقت علينا ونحن في الفضاء . وقد تسرب إلينا إحساس قوي بأن النجاة من هذا المأزق عسيرة وأن الطائرة أوشكت أن تسقط في جوف البحر الذي نسير فوقه ، وبين الحين والحين كنت أنظر إلي أم كلثوم .. وهي جالسة علي مقعدها في هدوء وسكون وعرفت بعد ذلك أنها كانت تتمتم بآيات قرآنية .. تقرأها همساً وفي هدوء وجداني كامل وإيمان مخلص عميق بالله.

ونجت الطائرة بعدما يقرب من نصف ساعة خطيرة أفقدتنا أعصابنا جميعاً.. ووضعتنا علي شفا هاوية لا نجاة منها .. واستقامت الطائرة في طريقها وتخلصت من الاضطراب العنيف الذي تعرضت له .. وخرجت من هذه الرحلة الصعبة بمزيد من الاحترام والتقدير لشخصية أم كلثوم التي استطاعت في أخطر لحظة يمكن أن يتعرض لها الإنسان أن تتماسك وأن تظهر بأفضل مظهر من مظاهر الشجاعة الروحية الكاملة .

ونزلنا بنغازي ..

وفي بنغازي قضت أم كلثوم خمسة أيام وأقامت حفلتها الثانية يوم الأربعاء ١٩ مارس ١٩٦٩ وبنغازي هي العاصمة الثانية لليبيا وهي عاصمة منطقة برقة ، وهذه المنطقة لها تاريخ مجيد في الكفاح ضد الاستعمار الإيطالي ، وهي منطقة البطل العربي عمر المختار الذي حارب الإيطاليين فطاردوه حتى تمكنوا من القبض عليه بعد أن ذاقوا علي يديه ويلات كثيرة ثم حكموا عليه بالإعدام وأعدموه فعلاً سنة ١٩٣١ . وحول إعدام عمر المختار كتب شوقي قصيدته الرائعة التي يقول في مطلعها :

نصبوا دماءك في الرمال لواء

يستنهض الوادي صباحًا ومساء

ياويحهم نصبوا لواء من دم

يوحى إلي جيل الغد البغضاء

وكانت حفلة بنغازي بحاجة إلي مزيد من التنظيم الدقيق من الذين أشرفوا عليها ، ولكن الحفلة رغم نقص التنظيم تميزت علي حفلة طرابلس بحضور وفود أدباء المغرب العربي الذين كانوا مجتمعين في ليبيا في ذلك الوقت ، وقد جاء أعضاء الوفود الأدبية بالطائرة من طرابلس ليحضروا حفلة أم كلثوم وحضروا الحفلة بالفعل وعادوا بالطائرة إلي طرابلس بعد انتهاء الحفلة مباشرة .. وقد ضمت هذه الوفود أدباء من ليبيا والمغرب والجزائر وتونس وقد حرص هؤلاء الأدباء حرصاً كاملاً علي حضور حفلة أم كلثوم والاستماع إليها.

هذه بعض لمحات من زيارة أم كلثوم إلي ليبيا .. ولو عدنا إلي السؤال الأول الذي سألناه في البداية وهو : هل نجحت رحلة أم كلثوم إلي ليبيا ؟

.. فإننا نجد أنفسنا أمام رحلة فنية ووطنية حققت أهدافها الرئيسية .. فقد بلغ دخل الحفلتين اللتين أقامتهما أم كلثوم ما يقرب من مائة ألف جنيه ليبي ، ومن ناحية أخرى كانت أيام أم كلثوم مناسبة حية للحديث الدائم عن أعز أهداف هذه الرحلة وهي خدمة المجهود الحربي وخدمة منظمة فتح .. إن الأيام الثلاثة عشر التي قضتها أم كلثوم في ليبيا كانت مهرجاناً للقضية العربية الفلسطينية ، وكانت فرصة رائعة للاهتمام بقضية تحرير الأرض العربية وخاصة بعد محنة الهزيمة في ٥ يونيو ١٩٦٧ .

♫ ♫ ♫

بين أم كلثوم وطلعت حرب

كان[1] المسلسل البديع الرائع الذي قدمه تليفزيون جمهورية مصر العربية في ديسمبر ١٩٩٩ ، واستمر عرضه في شهر يناير ٢٠٠٠ ، عن حياة أم كلثوم موضع حديث الناس وإعجابهم ، بل كان موضع دهشتهم في كثير من الأحيان ، ذلك أن هذا المسلسل قد كشف حقيقة مهمة ، وهي أن كل شخصية «عظيمة» لا تحمل في حياتها قصة نفسها فقط ، وإنما تحمل قصة الشعب الذي خرجت منه هذه الشخصية ، وقصة العصر الذي عاشت فيه. وقد ظلت أم كلثوم في أذهان الناس مطربة عظيمة وفنانة موهوبة وصوتاً رائعاً ، أسعد الناس ولا يزال يسعدهم ، حتى جاء هذا المسلسل الرائع فاكتشف الناس أن قصة أم كلثوم هي قصة مصر أيضاً ، وهي قصة المحاولة الجبارة التي قامت بها مصر وأهلها للنهوض الحضاري في القرن العشرين . وقد نجح المصريون في تحقيق حلم النهضة والتقدم لأسباب كثيرة وضع مسلسل أم كلثوم يده عليها في بساطة ودقة ووضوح وابتعاد تام عن الافتعال أو الغموض أو الخطابة ، وهذا هو سر دهشة الناس الذين اكتشفوا أن أم كلثوم هي أم كلثوم .. وهي مصر أيضاً ، وأول ما يلفت النظر في هذا المسلسل الرائع هو ما كشفه عن « احتشاد مصر » في النصف الأول من القرن العشرين ، وما امتلأت به هذه الفترة العجيبة من تركيز وتراكم للجهود والإمكانات ، من أجل هدف واحد هو الارتقاء والتقدم ، والخروج من دائرة التخلف والانهيار ، والتغلب علي ما أصاب مصر من سلبيات بعد دخول الاحتلال الإنجليزي إلي البلاد سنة ١٨٨٢ ،

---

(١) هذا الفصل وما بعده من الفصول تمت كتابتها جميعاً بعد أن عرض التليفزيون في مصر مسلسل " أم كلثوم " في شهر رمضان سنة ١٤٢٠ هجرية الموافق ٩ ديسمبر ١٩٩٩.

وما تلا ذلك من نكسة كبيرة لأحلام مصر في النهوض والتقدم .. لكن مصر لم تستسلم للنكسة ، وإن كانت أرض مصر قد خضعت للاحتلال العسكري البريطاني ، فإن نفوس المصريين ظلت حرة تقاوم وتجاهد وتحاول أن تفتح طرقاً متعددة للتخلص مما أصابها والوقوف علي قدميها بعد أن تلقت ضربة قاسية فوق رأسها كادت تفقدها وعيها ، بل وكادت تفقدها قدرتها علي البقاء ،وبدأت الأرض المصرية التي جفت فيها ينابيع الحياة تتفجر عن ينابيع جديدة صغيرة هنا وهناك ، وبدأت الروافد التي يسيل فيها الماء تجري فوق الأرض الطيبة ، ويوماً بعد يوم تجمعت الينابيع والتقت الروافد ، وتدفق نهر الحياة الكبير في مصر من جديد.

وقصة « أم كلثوم » الحقيقية هي تلك القصة التي تصور مصر وهي تخرج من نكسة الاحتلال الأجنبي ، لتقف علي قدميها ، وتنفض الغبار عن عقلها وروحها، وتقتحم معارك الدنيا مرة أخرى وتحقق ذلك الانتصار العظيم الذي كانت أم كلثوم رمزاً دقيقاً له.

وأم كلثوم لم يكن بإمكانها أن تحقق ما حققته لولا أن مصر كان فيها رجل مثل الموسيقار الشيخ أبو العلا محمد أستاذ أم كلثوم ومعلمها ، والآخذ بيدها والذي كشف لها عن حقيقة قدرتها وموهبتها ، وهداها إلي صراط الفن المستقيم ، ولم يكن « أبو العلا محمد » مجرد موسيقار أو مطرب ، بل كان واحداً من جيل سيد درويش ممن كانوا يحلمون بأن الموسيقى العربية يجب أن تنطلق في آفاق جديدة ، وأن تتخلص من الاعتماد علي الارتجال والتقليد، وأن تقوم علي أسس علمية يمكن أن تساعدها علي التعبير العصري العميق عن روح الشعب وعن همومه وأفراحه ، أي أن الشيخ أبو العلا محمد لم يكن صاحب « مهنة » يريد أن ينجح فيها فقط بل كان صاحب « رسالة » يريد أن يؤديها ويحققها بنفسه وبغيره كلما أتاحت له الظروف أن يكتشف قدرات ومواهب جديدة ، يمكن أن

تساعد علي تحقيق الرسالة التي يحلم بها الشيخ ، وكان « أبو العلا محمد » من المؤمنين بأن الله « يرزق » مصر دائماً بالموهوبين والنابغين وهو خير الواهبين.

وعندما استمع الشيخ أبو العلا إلي الفتاة الفلاحة الصغيرة الناشئة « أم كلثوم » أحسّ بقيمة موهبتها الكبيرة ، فأخذ علي عاتقه أن يتبنى هذه الموهبة وأن يحيطها بكل « الظروف » المناسبة ، لكي تتطور هذه الموهبة ، ولكي تتجنب كل ما كان يهددها بأن تموت في مهدها .

فالشيخ أبو العلا هو رمز لقوة « التشجيع » الصحيح ، والقائم علي الإخلاص والفهم والحرص التام علي خدمة الوطن والشعب ، وفضيلة التشجيع هي أساس قوي للنهوض والتقدم ، والشعوب التي ينقصها « التشجيع » تتعرض لأزمات كبيرة ولا تنهض إذا سقطت في أية محنة.

وشخصية الشيخ أبو العلا كما قدمها مسلسل « أم كلثوم » وأداها بصورة مؤثرة بديعة الممثل الكبير « رشوان توفيق » تنبهنا إلي معنى « التشجيع » وأثره في الحياة ، ونحن لا نبتعد عن الصواب إذا قلنا إن فضيلة « التشجيع » مفقودة في مجتمعنا اليوم ، وقد حل محلها مرض آخر هو « التنافس » والحروب المشتعلة بين الأفراد الذين يريد كل منهم أن ينتصر علي الآخرين، ويلحق بهم الهزيمة.

ولعلنا لا نزال نذكر الآن قصة ذلك الأب الذي يحارب ابنته الفنانة الموهوبة ويسعى دائماً لوضع العقبات المادية والمعنوية في طريقها ، وهي قصة يعرفها المتصلون بالحياة الفنية ، بل لقد تسربت أخبارها إلي صفحات الصحف وشاشة التليفزيون ، وتبادل الأب والابنة كثيراً من الاتهامات القاسية ووصلت بعض مشكلات هذه الأسرة إلي القضاء .. ولا شك أننا نشعر بالأسف العميق ونحن نقارن بين فصول هذه القصة القائمة الآن وبين موقف الشيخ أبو العلا محمد من أم كلثوم ولم يكن أبو العلا محمد أباً لها بالميلاد ، بل كان أباً لها بالروح والتشجيع والروابط الفنية والإنسانية العميقة ، وكان ذلك دليلاً علي أن المجتمع في مصر ، كان يحاول أن يعالج أموره بنفسه وبرجاله ونسائه وبروح التشجيع الصادق

الأصيل الذي يداوي جراح القلوب ويبعث الثقة في النفوس ، ويمنح الجرأة للقادرين علي أن يقتحموا المستقبل ، ويواجهوا المتاعب بصبر وقدرة علي الاحتمال وإصرار علي عدم الاستسلام للهزيمة أمام ضربات الحياة ، حتى لو كانت هذه الضربات قاسية.

لقد أخذ أبو العلا محمد بيد تلميذته وابنته الروحية أم كلثوم ، وبذل في ذلك جهداً يفوق جهد الآباء الحقيقيين ، ومن حقنا أن نسعد ونحن نتذكر فيه الصورة المشرقة من ذلك الزمان الصعب الجميل ، والذي كانت فيه مصر «تزغرد » من قلبها لكل موهبة جديدة ، وكان أهلها يحملون التعاطف العميق نحو بعضهم البعض ، وكانوا « يحتشدون » لمواجهة ما تعانيه بلادهم من متاعب ضخمة وشاملة تحت سيطرة الغاصب المحتل . ومن واجبنا أن نلوم أنفسنا كثيراً عندما نرى صورة مصر منذ سبعين أو ثمانين سنة وهي عامرة برجال مثل أبو العلا محمد وعامرة بالعطف والرحمة والتشجيع المتبادل ، وكان الكبير فيها يحرص علي أن يأخذ بيد الصغير ، بينما نحن في مصرنا اليوم نئن ونتوجع وننسحب مع جروحنا التي تصيب قلوبنا وأرواحنا من قسوة التنافس الفردي ، والصراع الخالي من الرحمة والتعاطف الكريم بين الناس، ونحن بأشد الحاجة إلي أن نتعلم من تاريخنا ، ومن الشيخ أبو العلا محمد وعلاقته الإنسانية الرفيعة مع أم كلثوم.

وفي مسلسل « أم كلثوم » البديع نرى صورة أخرى هي صورة طلعت حرب وهو صاحب شخصية مشهورة وله تمثال في ميدان مهم من ميادين القاهرة ، يحمل اسمه ، لكن القصة الحقيقية لهذا البطل المصري العربي غير معروفة للناس بوضوح ، وقد ألقي مسلسل « أم كلثوم » إشارات من الضوء علي القصة الحقيقية لطلعت حرب ، وكم كنت أحس أن الموهوب الرائع «محفوظ عبد الرحمن » مؤلف المسلسل والموهبة الجميلة النبيلة « إنعام محمد علي » مخرجة المسلسل ، يريدان بشيء من المكر الفني اللطيف أن يرسلا رسالة قوية إلي مجتمعنا في الوقت الحالي، فطلعت حرب كما قدماه هو مؤسس بنك مصر ومديره ، وهو الذي يسعى

إلي أم كلثوم ويلتقي بها ويقدم إليها قرضاً بلا ضمان قيمته « ألفان » من الجنيهات في أوائل الثلاثينيات وهو ما يوازي مئات الآلاف الآن ، وتلك حقيقة تاريخية ثابتة ، لكن الرسالة التي يرسلها إلينا محفوظ عبد الرحمن وإنعام محمد علي واضحة ، وإن كانت رسالة شفافة وخفية وفي غاية اللطف والدهاء معاً.

فطلعت حرب يقدم قرضاً بلا ضمان إلي أم كلثوم بدافع الوطنية والثقة بأنه أمام موهبة مصرية عظيمة ومسئولة اسمها أم كلثوم وهو يراهن مراهنة الفنان المبدع الذي يرى في المستقبل ما لا يراه غيره علي أن القرض الذي بلا ضمان هو أكبر قرض مضمون لمصر كلها ، لأنه قرض يساعد أم كلثوم، وقد تقبلته أم كلثوم بحذر ودهشة ، وكانت بأشد الحاجة إليه لتفسخ عقدها مع شركة تسجيلات تستغلها وتأكل حقوقها الشرعية .

وفي شخصية طلعت حرب كما ظهرت في مسلسل « أم كلثوم » رسالة إلي بعض المسئولين في بنوكنا الآن ممن يقدمون الملايين لأقاربهم وأصدقائهم وأنفسهم بلا أسباب ولا ضمانات ولا ضمير يقول لهم : إن هذه أموال الشعب وهي ودائعه في البنوك ولا يجوز التصرف فيها بهذا الاستهتار ، وهذا الضمير الميت . وبدون خطب ولا مواعظ قدم إلينا مسلسل « أم كلثوم » نموذجاً لرجال البنوك العظماء الذين يعشقون وطنهم ، ويحمون شعبهم ويتصرفون في الأموال التي بين يديهم كما يتصرف العابدون في المساجد والكنائس ، وكما يتصرف الموسيقار المبدع في ألحانه، وكما يتصرف الوطنيون في قضايا وطنهم العزيزة . ولا أستطيع أن أقاوم هنا الاستطراد قليلاً عن طلعت حرب الذي أعطانا مسلسل « أم كلثوم » الرائع وجهاً من وجوهه النبيلة ، وأرسل إلينا منه في حكمة فنية عالية رسالة ارجو أن نستوعبها وأن يستوعبها رجال المال والبنوك في بلادنا ، فقد كان طلعت حرب بطلاً وفناناً وصاحب فلسفة وطنية فريدة ، وأشعر للأسف أن طلعت حرب مشهور لكن حقيقته التفصيلية مجهولة ، وقد نفض مسلسل « أم كلثوم » عنا بعض جهلنا بهذه الشخصية العظيمة ، مما يغريني بشيء من الحديث التفصيلي عنه

فلو لم تظهر أم كلثوم التي عرفناهـا والـتي مازلنـا نعيش معـها إلي اليـوم ، ومـن المؤسف أننا نكتفي بوضع الشخصيات العظيمة عندنا في قوالب جامدة ، والقوالب الجامدة لا تكشف الحقيقة بل تخفيها وتقضي علي ما يمكن أن ترسـله إلينـا مـن أشعة دافئة تحرك قلوبنا وتجعلنا نهتدي بهذه الأمثلة العليا ، ونحاول أن نكـون جديرين بالانتساب إلي الشعب الذي أنجبها ونحاول أيضاً أن نكرر السلوك الرفيع المستقيم لهذه الشخصيات العظيمة.

وأعترف بأنني لست من المؤرخين ولا من الذين يملكون العلم بالاقتصاد لكنـني أتوقف في شخصية طلعت حرب عند المعاني الإنسانية والوطنيـة وأحـب أن أقـدم بعض هذه الملامح الموجزة لطلعت حرب كما أوردتها «الموسوعة العربية الميسرة » وارجو أن يجد القارئ العزيـز في هـذه اللمحـات مـن شـخصية طلعـت حـرب مـا وجدته فيها مـن متعـة ومـن دروس عاليـة في الإدارة والوعـي والضمـير والأخـلاق الوطنية .. تقول الموسوعة :

« ولد طلعت حرب سنة ١٨٦٧ وتوفى سنة ١٩٤١ وهو رائد النهضة الصناعية والاقتصادية في مصر ، تخرج فى مدرسة الحقوق سنة ١٨٨٩ واشتغل مترجماً بقلم قضايا الدائرة السنية « أي دائرة الخـديو توفـيق وابنـه الخديـو عبـاس حلمـى الثاني » ثم مديراً لها خلفاً لمحمد فريـد . عـني بالشـئون الاقتصاديـة وكـانت في بداية القرن العشرين وقفاً علي الأجانب فأخذ طلعت حرب علي عاتقه أن يحطـم الاحتكـار الأجـنبي لشـئون المـال والصناعـة ولم تقـف جـهوده عنـد حـد الدعـوة والكتابة، إذ أصدر سنة ١٩١٠ كتابـه « عـلاج مصـر الاقتصـادي » ولكنـه أنشـأ شركات عدة توجها بتأسيس بنك مصر وافتتاحه في ٧ مايو سنة ١٩٢٠ ».

« ويعتبر إنشاء بنك مصر برأسمال وطـني خـالص وخـبرة وطنـية خالصـة مـن المعالم الكبرى في تاريخ مصـر الاقتصـادي إذ أذن ببـدء حركـة التصنيـع والنهضـة الاقتصادية وبدأ بنك مصر بداية متواضعة حيث كان رأسماله ثمانين ألف جنيه ، وتعرض طلعت حرب لحملة من التشكيك والتثبيط لكنـه صمـد أمامـها ، وحـرص

علي أن يكون البنك الوليد مصرياً خالصاً ، فنص في عقد تأسيسه علي أن يكون أسهمه اسمية ، لا يملكها إلا من كان متمتعاً بالجنسية المصرية ، وأحس طلعت حرب أن حاجة الاقتصاد المصري لا تقف عند إنشاء بنك تجاري يقوم بالأعمال المصرفية العادية ، مثل قبول الودائع وفتح الاعتمادات قصيرة الأجل وخصم الأوراق التجارية ، لذلك جعل بنك مصر من أدوات الاستثمار في الصناعة ، علي خلاف ما جرت عليه البنوك التجارية في مصر . ونما بنك مصر فارتفع رأسماله من ثمانين ألفاً إلي مليونين من الجنيهات واحتياطية من ثلاثة آلاف إلي سبعة ملايين من الجنيهات ، كما حمل لواء الاستثمار في كثير من فروع الصناعة فأنشأ شركة مصر للطباعة وحلج الأقطان والتمثيل والسينما والنقل والملاحة ومصائد الأسماك والغزل والنسيج « المحلة الكبرى » ونسيج الحرير وتصدير الأقطان والطيران وبيع المصنوعات والتأمين والملاحة البحرية والسياحة وصناعة وتجارة الزيوت والغزل والنسيج الرفيع « كفر الزيات » وأعمال الأسمنت المسلح والمستحضرات الطبية والحرير الصناعي ، والفنادق والأغذية والألبان وصباغي البيضا والكيماويات والغزل الرفيع « شبين الكوم » وهكذا وضع طلعت حرب حجر الأساس للنهضة الصناعية والتجارية في معظم الميادين ، وترجع نهضة مصر المعاصرة في جزء كبير منها إلي تلك العبقرية الفريدة والإدارة الصارمة والنظرة الواسعة التي تمتع بها طلعت حرب ».

هذه بعض ملامح شخصية طلعت حرب كما تقدمها إلينا « الموسوعة العربية الميسرة » ومع هذا الرجل وأمثاله عاشت أم كلثوم في المراحل الأولى من ظهورها وبناء شخصيتها وفنها ودورها في حياة شعبها ولولا هؤلاء الرجال لتعثرت أم كلثوم ووجدت في حياتها من الصعوبات ما لم يكن بإمكانها أن تنتصر عليها .

وهكذا تألق مسلسل « أم كلثوم » وأصبحت قصة أم كلثوم في هذا المسلسل هي قصة مصر ، وقصة جهدها الخارق للخروج من خرائب القرن التاسع عشر ، ومن آثار الاحتلال الأجنبي الذي أراد أن يقص أجنحتها ويكسر أقدامها ويجرح قلبها

ويقضي علي روحها التي تحب الطيران في الآفاق العالية ولا تقبل تمريغ رأسها في الطين . والنجاح الرائع الذي حققه هذا المسلسل يعود إلي الموهبة الفنية الأصيلة لمحفوظ عبد الرحمن وإلي ذلك العنصر المتألق في شخصيته وهو « الإحساس الشعري بالتاريخ » ثم يعود هذا النجاح إلي المخرجة المبدعة الرائعة إنعام محمد علي ، وما تنطوي عليه شخصيتها من ثقافة عالية وذوق رفيع وعشق مثالي مخلص للدقة والإتقان ونبل روحي غير محدود ، ويعود نجاح المسلسل أيضاً إلي الممثلين العظام الذين أدوا أدوارهم بعشق وإبداع فاتن ، وفي مقدمتهم الفنانة الرائعة صابرين والممثل العملاق « أحمد راتب » وصاحب الموهبة الفذة الرقيقة « كمال أبورية » والممثل المبدع « محمد كامل » وأصحاب الخبرة الفنية والموهبة الحساسة من أمثال « حسن حسني « و « سميرة عبد العزيز » و « عبد العزيز مخيون » وغيرهم ، ممن يستحقون جميعاً كل التحية والتقدير والتكريم ، وكنت أتمنى أن أذكر أسماءهم جميعاً لكنني أكتب من الذاكرة ومن الصعب أن أحصر الأسماء الكثيرة التي أسهمت في إبداع هذه السيمفونية الرائعة ، وقد أعجبتني ملاحظة صديق صحفي وأستاذ لي من الجيل السابق علي جيلنا ومن المعاصرين لأم كلثوم وللفنانين المتصلين بها حيث قال لي : قد ازداد إيماني بالله وأنا أشاهد هذا المسلسل العجيب وازداد إيماني بقدرة الله علي بعث الراحلين ، فما رايته في صابرين وأحمد راتب وكمال أبورية وغيرهم هم من عرفتهم في الحياة : « أم كلثوم والقصبجي ورامي » .. سبحان الله القادر علي أن يعيد الحياة كما يشاء إلي من يشاء.

♫ ♫ ♫

رأسماليون وشعراء

عندما نلقي نظرة هادئة علي تاريخ مصر في النصف الأول من القرن العشرين ، سوف نجد أن النهضة التي حققها المصريون قامت بصورة أساسية علي « الجهود الشعبية » وكان دور « الدولة » في هذه النهضة دوراً ثانوياً، بل كان في كثير من الأحيان دوراً يهدف إلي تعطيل النهضة والاعتراض عليها ووضع العقبات المختلفة في طريقها ، فالدولة في تلك الفترة كانت خاضعة لسلطة الاحتلال وسلطة الخديو أو السلطان أو الملك ، وكانت مشاركة الشعب في السلطة الرسمية محدودة جداً ، وبعد إعلان الدستور سنة ١٩٢٣ وحتى قيام ثورة ١٩٥٢ لم يستطع حزب الوفد القديم صاحب الأغلبية الشعبية تحت زعامة سعد زغلول ومصطفى النحاس أن يصل إلي الحكم أكثر من حوالي ست سنوات متفرقة خلال ما يقرب من ثلاثين سنة ، وكان هذا معناه أن علي الشعب أن يتولى بنفسه مسئولية النهوض والتقدم بعيداً عن مساندة الدولة له . وما لم يقم الشعب بمسئوليته نحو نفسه فقد كان عليه أن يبقى فريسة للتخلف والتأخر في شتى مجالات الحياة من التعليم إلي الصحة والاقتصاد إلي الفن والثقافة.

والحقيقة الواضحة في تاريخ مصر في النصف الأول من القرن العشرين تؤكد أن « الجهود الشعبية » في مصر هي التي أوجدت نهضة البلاد في تلك الفترة الدقيقة من حياتها.

جامعة القاهرة تم إنشاؤها سنة ١٩٠٨ بتبرعات شعبية وظلت هذه الجامعة أهلية حتى تحولت إلي جامعة رسمية سنة ١٩٢٥ .

بنك مصر أنشأه طلعت حرب سنة ١٩٢٠ بأسهم شعبية ودون أية مشاركة من الدولة ، وبدأ برأسمال متواضع جداً قيمته ثمانون ألف جنيه ولم يكن بنك مصر موضع رضا الدولة ،بل لقد حاربه الإنجليز وحاربه الملك فؤاد والملك فاروق ، ولكن زعامة طلعت حرب الاقتصادية ومساندة الشعب له ، والتفاف الناس حوله، مكنت بنك مصر من أن يتطور ويتقدم ويصبح قلعة اقتصادية مصرية خطيرة ، وبنك مصر هو أول مؤسسة وطنية تخلق ما يمكن أن نسميه باسم « الاقتصاد الثقافي » إلي جانب الاقتصاد الصناعي والاقتصاد التجاري ، فطلعت حرب هو الذي بنى مسرح الأزبكية وهو أرقى مسارح مصر منذ بنائه حتى الآن ولا يزال المكتب الذي كان يجلس عليه طلعت حرب في مسرح الأزبكية موجوداً إلي اليوم يجلس عليه كل من يشغلون وظيفة مدير المسرح القومي .. وطلعت حرب هو الذي أنشأ مطبعة مصر ، وكانت أرقى وأقوى مطبعة في البلاد بعد المطبعة الأميرية في بولاق ، وطلعت حرب هو الذي أنشأ « ستديو مصر » الذي تم فيه ميلاد صناعة السينما في مصر ، فكانت أول صناعة من نوعها في مصر والعالم العربي كله ، وأغلب الظن أن صناعة السينما التي أنشأها طلعت حرب في مصر قد سبقت صناعة السينما في الهند واليابان والصين وغيرها من بلدان الشرق الكبرى.

ولعل مؤرخي السينما ونقادها يحسمون هذا الموضوع الذي يؤكد ريادة السينما المصرية في الشرق كله ، وذلك بما يملكه هؤلاء المؤرخون والنقاد من معلومات لا أملكها ولا أستطيع أن أفتي فيها فتوى نهائية.

ويقودني الحديث عن زعامة طلعت حرب وما فيها من المعاني الكبيرة التي تدل علي أن شعب مصر قد تولى أمر نفسه بعيداً عن الدولة في النصف الأول من القرن العشرين إلي الاستشهاد ببعض ما كتبه أساتذنا الذين كانون معاصرين لطلعت حرب .

ففي حديث مع طلعت حرب أجراه الأديب الصحفي الكبير أحمد الصاوي محمد ونشره في افتتاحية مجلته الثقافية الشهرية البديعة التي كان يسميها باسم « مجلتي » في فبراير سنة ١٩٣٥ يقول الصاوي :

« لقيت الباشا ـ أي طلعت حرب ـ الأب الحنون .. في جبينه يشرق العزم وفي عينيه بريق الهمة ، وعلي أكتافه أماني شعب بأكمله ، قضيت ساعة ونصف الساعة في رحاب قلبه الكريم ، والقلب الذي كل نبضاته حب لمصر وعمل لمصر ، كنت أتساءل وهو يحدثني عما يدخره هذا العقل العظيم من مفاجآت .. هذا الرأس الذي يعرف كيف يرسم ، ثم كيف ينفذ ما يريد ، وكنت أشعر وهو يحدثني أنه شاعر ، أنه مؤلف .. أي شاعر ينظم أروع قصائده التي تطعم الأفواه وتكسو الأجسام ، وأي كتاب أخلد من كتبه التي صفحاتها حقول من القطن ، وسطورها آلات من النسيج ومدادها ذلك البحر الذي فيه بواخر بنك مصر : « النيل » و « زمزم » و « الكوثر » .

ثم يقول الصاوي وكان لقاؤه مع طلعت حرب في المحلة الكبرى :

« لم نتعود من قبل رؤية الآلات في عشرات العنابر التي لا تبلغ العين آخرها وفي كل هذه العمليات نجد روحاً مسيطرة ووحدة رائعة ، هذه الروح التي تهيمن وتوحي وتدبر ، هي الروح النبيلة التي تعيش في الحقيقة وتحقق أروع الخيال .. روح طلعت حرب باشا .. روح الشاعر الذي كل قصائده وراء مئات البيوت، ووراء مئات البيوت ألوف من الناس، ولم نتعود في مصر هذا الضجيج من الآلات الذي يملأ القلب اطمئناناً علي المستقبل ».

وهكذا رأى الصاوي في طلعت حرب « شاعراً » وعندما يتحول رجل الاقتصاد الرأسمالي الوطني إلي شاعر فذلك أعلى درجات الحب للحياة والناس والوطن ، والرأسمالي الاقتصادي « الشاعر » نعمة علي أهله وبلاده ونفسه ، أما الرأسمالي الذي يعبد المال وحده فهو لعنة وكارثة .

ونتوقف أمام كلمات بديعة أخرى عن طلعت حرب يكتبها أحد المعاصرين له وهو الكاتب الكبير أحمد حسن الزيات وذلك في مقال نشره في افتتاحية مجلته « الرسالة » في ١٣ مايو سنة ١٩٣٤ .. يقول الزيات :

« كانت مصر في العهد الذي تم فيه تأسيس بنك مصر في مأزق من مآزق الحياة، وكان شباب البلاد تعصف في رؤوسهم نخوة الوطنية والحرية والكرامة ، فلا يفكرون إلا في الاحتلال ولا يعملون إلا للسياسة ، وأغنياء البلاد جاثمون علي أموالهم المكدسة .. لا يستثمرونها بأنفسهم لنقص الكفاية ، ولا يسمحون باستثمارها لغيرهم لفقد الثقة ، ورجال الدول مشغولون بجباية الأموال وتحضير الميزانية واستئناف المفاوضات وتحرير مشروعات المعاهدة فلا يملكون حماية التجار من قيود الجمرك ولا يستطيعون إنشاء الصناعة لمقاومة المحتل ، والأجانب عاكفون علي منابع الوادي يستنزفونها بالربا ويكدرونها بالسفه ثم لا يسمحون للظمآن أن يتألم ولا للمهان أن يغضب».

ثم يقول الزيات :

« وكانت عناية الله التي ألهمت سعد زغلول أن يخرج بشعبه من رق الاحتلال السياسي هي التي ألهمت في الوقت نفسه طلعت حرب أن يخرج قومه من رق الاحتلال الاقتصادي ، وكلا الرجلين ميسر لما خلق له : فسعد باشا بطبعه رجل كفاح وخصومة وزعيم برلمان وحكومة ، ورسول من رسل الوطنية الروحية ، له عظمته وجاذبيته وإيمانه ، وطلعت باشا رجل إنشاء وعلم وصاحب تدبير وخطة ورسول من رسل الوطنية المادية يهذب النفس بقوة الجسم ويرفع العمران بوفرة الإنتاج ويضمن الاستقلال بقوة الثروة وله كذلك عبقريته ونزاهته وإخلاصه ، وقد وثق الناس بالزعيمين الخطيرين فجادوا للأول بالأنفس فشاد بيت الأمة وكون الرأي العام وألف الوفد ، وجادوا للآخر بالأموال فشاد بنك مصر وأنشأ شركات مصر وكون ثروة مصر ، وربي سعد باشا لوطنه شباب جهاد وتضحية كانوا منه مكان القلب الشاعر والحس المدرك والروح الملهمة ، وربي طلعت حرب باشا

لشعبه شباب اقتصاد ، كانوا منه مكان البصيرة الحازمة ، واليد العاملة ، والعقل المنظم ، ثم كان من هؤلاء وهؤلاء دليل ناهض علي يقظة الأمة ، وشعور بإرادتها لما تفعل وسيادتها علي ما تملك وحريتها فيما تريد » .

هذه نماذج مما كتبه بعض المعاصرين لطلعت حرب عن هذا الزعيم العظيم ولاشك أن من أجمل وأصدق ما قيل في طلعت حرب إنه « شاعر» ذلك لأنه لم يكن مجرد رأسمالي يريد أن يكسب الأموال ويكدسها في حسابه، بل كان صاحب قلب إنساني ملئ بالحب لشعبه ، وكان يرى أن فتح أبواب الرزق لآلاف من شباب مصر بصورة عصرية كريمة هو نفس ما يراه الشاعر عندما يتحرك قلبه أمام منظر طبيعي جميل أو أمام معنى عميق من معاني العاطفة والشعور.

فالرأسمالي الذي ليس له قلب مثل قلب طلعت حرب هو مجرد إنسان يخلو من الوطنية والإنسانية والقدرة علي الشعور بآلام الناس وأفراحهم.

ولعل نموذج طلعت حرب يكون مثلاً أعلى لأصحاب المليارات عندنا الآن فيحرصون علي أن يكونوا أصحاب قلوب ، وأن يكونوا شعراء أيضاً فيجعلوا من أموالهم مصدراً لابتسامة أسرة عاملة أو سبباً في اخضرار أرض قاحلة أو مصدر من مصادر الجمال والفن والذوق الرفيع بين أبناء وطنهم.

ومن الواضح أن طلعت حرب بإنسانيته وشاعريته ووطنيته لم يخسر شيئاً من أمواله ، بل تضاعفت هذه الأموال مع الأيام ، لأنه أضاف إلي هذه الأموال ما يمكن أن نسميه رأس المال البشري وقوة العمل الإنسانية وعن طريق احترام هذه القوة وتكريمها والارتفاع بشأنها يصبح المال شعراً وموسيقى ، لأنه يكون مصدر خير وسعادة لصاحبة ولأهل وطنه جميعاً ، ولست أحب أن أخفي شعوري بأن الرأسمالية الجديدة في مصر هي رأسمالية ليس فيها - حتى الآن - شعر ولا شعراء، أي ليس فيها ما نتمناه من أن يكون لها قلب كبير مثل قلب طلعت حرب والذي كان يحلم بأن تخلو بلاده من أي عاطل وأن تمتلئ أسواقها بإنتاج أبنائها ، وأن تتحول مصر إلي أرض مزدهرة بالعمل والنشاط والفن والجمال.

ومن هنا كانت تلك اللفتة النبيلة لطلعت حرب في علاقته بأم كلثوم كما قدمها لنا المسلسل الرائع الذي كتبه محفوظ عبد الرحمن وأخرجته إنعام محمد علي ومثلته « صابرين » وهؤلاء الثلاثة من نجوم الفن الموهوبين في بلادنا ، بل هم ثلاثة يمثلون جزءاً غالياً من ثروة مصر البشرية التي آمن بها طلعت حرب منذ البداية حتى النهاية ، واعتبر خدمتها هي هدف من أعلي أهداف كفاحه الاقتصادي الطويل النبيل.

سعى طلعت حرب إلي صداقة أم كلثوم وأتاح لها بأموال بنك مصر أن تنقذ نفسها وفنها من سفالة تجار الفن وتجار الإنسان وأتاح لها بعد ذلك أن تقدم أفلامها الست المعروفة والتي لولا طلعت حرب ما ظهر منها شيء إلي الوجود.

علي أن علاقة طلعت حرب بأم كلثوم والتي لولاها لتعبت أم كلثوم وربما توقفت رحلتها الفنية العظيمة أو تعثرت إلي أبعد الحدود .. هذه العلاقة هي جزء من معنى كبير يمثله طلعت حرب ، شاعر الاقتصاد والرأسمالية ، وهذا المعنى هو أن شعب مصر كان قادراً في النصف الأول من القرن العشرين علي أن يتحمل عبء همومه بنفسه ، بعيداً عن الدولة ، وأن يبني مؤسساته الحضارية التي يحتاج إليها ، وأن يواجه أعداء كرامته ونهضته ولقمة خبزه دون عون رسمي من أحد ، كان شعب مصر يحتشد تحت قيادات من أمثال طلعت حرب ليحل مشكلاته ويواجه متاعبه بنفسه ، وقد نجح شعب مصر في تحقيق الكثير خلال النصف الأول من القرن العشرين بهذه الطريقة .. طريقة الاعتماد الكامل علي النفس ، والتغلب علي كل العقبات القائمة ضد أية حركة إلي الأمام ،والإصرار علي أن تولد في مصر مؤسسات شعبية قوية في الاقتصاد والثقافة والفنون ، وأن تكون هذه المؤسسات كلها « صناعة وطنية » خالصة لا فضل لأحد فيها علينا سوى أبنائنا وأهلنا ، ولا قدرة لأحد علي أن يعاديها أو يقف ضدها.

وفي أعماقي إحساس بأن هذا المعنى من اعتماد الشعب علي نفسه ـ كما حدث في النصف الأول من القرن العشرين ـ قد أصبح الآن مسئولية ضرورية يجب أن

نعود إليها دون تردد ، فعلينا أن ننهض لحل مشكلاتنا بأنفسنا دون انتظار من معونة أحد ، أو الاعتماد علي مثل هذه المعونة ، ومثل هذا الحديث كان يمكن أن يكون حديثاً إنشائياً خطابياً لا قيمه له ،لولا أننا نملك تاريخاً قريباً منا ، كان الناس يقولون فيه عن طلعت حرب إنه «شاعر» وكان أبناء مصر ينشئون جامعاتهم ومصانعهم ومدارسهم وصحافتهم السياسية والثقافية وفنونهم وآدابهم بجهودهم وحدهم ، وقد حدث ذلك كله في عصر كانت فيه الدولة مشغولة عن الناس وكان الاحتلال والقصر يسيطران علي الدولة ، وكان المال والثروة في يد الأجانب ولم يكن أهل مصر يملكون شيئاً إلا الإرادة والأحلام والإصرار والإحساس بأن البلاد قادرة علي أن يكون فيها شاعر يغير الواقع مثل طلعت حرب وفنانة فلاحة تملأ قلوب الناس بالحب والجمال في أفراحهم وأحزانهم مثل أم كلثوم.

وطلعت حرب وأم كلثوم معاً هما « صناعة شعبية » من البداية للنهاية ، وما حدث في الماضي القريب لابد أن يتكرر الآن بصورة أقوى وأجمل مما كان.

♫ ♫ ♫

بين أم كلثوم ومصطفى عبد الرازق

تعرضت أم كلثوم بعد وصولها إلي القاهرة سنة ١٩٢٣ لحرب عنيفة جداً، ولولا الرجال الذين وقفوا إلي جانبها لما استطاعت أم كلثوم أن تنجو وتنتصر وتواصل رحلتها الفريدة في الفن والحياة ، وكان علي رأس الذين وقفوا إلي جانبها الشيخ مصطفى عبد الرازق أستاذ الفلسفة الإسلامية في جامعة القاهرة « جامعة فؤاد الأول » في ذلك الوقت ، وقد أصبح الشيخ مصطفى عبد الرازق بعد ذلك وزيراً للأوقاف منذ سنة ١٩٣٨ ، وتولي هذا المنصب ثماني مرات من ١٩٣٨ إلي ١٩٤٥ ، ونال في تلك الفترة لقب «الباشوية » وأصبح اسمه « الشيخ مصطفى عبد الرازق باشا » وعندما توفى الشيخ مصطفى المراغي شيخ الأزهر ١٩٤٥ حل محله الشيخ مصطفى عبد الرازق ، وقد رأي أن منصب شيخ الأزهر لا يجوز أن يكون معه لقب آخر فتنازل عن لقب « الباشوية » راضياً لتولي منصبه الديني الكبير ، وظل في هذا المنصب حتى توفاه الله سنة ١٩٤٧ ، وعن اثنتين وستين سنة حيث أنه من مواليد سنة ١٨٨٥ .

ومصطفى عبد الرازق من أسرة غنية وطنية من قرية « أبو جرج » في محافظة المنيا بالصعيد ، وينقل الأستاذ لمعي المطيعي في موسوعته الكبيرة الرائعة «هؤلاء الرجال من مصر » ما كتبه الدكتور حسن محمود عن « بلدياته « مصطفى عبد الرازق وعن أسرة الشيخ مصطفى حيث يقول : « أبو جرج » قرية من أكبر قرى « بني مزار » بمحافظة المنيا وهي قرية وادعة مسالمة، يعيش أهلها أسرة واحدة لا فرق بين غنيها وفقيرها ، وهي قرية لم تعرف البغضاء ، وقد تفتحت عيني

علي الحياة فيها وأنا أراقب ذلك القصر المهيب الذي يقف شامخاً علي مشارف القرية من ناحية الشرق حيث تقيم أسرة «حسن باشا عبد الرازق » الثرية الكريمة ، والتي جمعت بين العلم والفضل ، وكانت شهور الصيف من أسعد أيامنا ، ـ نحن أطفال ـ هذه القرية حيث تدب في القصر الكبير الحياة ، ويعود إلي القرية أبناء حسن عبد الرازق ، وإذا بهم في تواضع العلماء وسخاء أهل الريف يخالطون الكبير والصغير ، ويعرفون أهل القرية شيوخاً وشباباً وأطفالاً ، يلاطفون ويسألون ، وقصرهم مأوى للغريب والمحتاج والموائد حافلة ليل نهار بالضيوف . كان « آل عبد الرازق » قدوة في البر بالناس والترفق بأهل القرية ، يعينون المحتاج ، ويعلمون الفقير ، ويشجعون دائماً علي التعليم ، وكنا نرى الشيخ الجليل ـ أي مصطفى عبد الرازق ـ في رقته وحيائه يسير عصر كل يوم في الطريق الزراعي الطويل المنبسط أمام القرية منفرداً حيناً أو بصحبة صديقه طه حسين وزوجته الفرنسية « سوزان » حيناً آخر ، وكان طه حسين وزوجته ينزلان كل صيف ضيفين علي آل عبد الرازق ، أما قصر « آل عبد الرازق» في القاهرة خلف قصر عابدين ، فكان يلتقي فيه عصر كل جمعة أبناء ، «أبو جرج » في القاهرة ، فالدعوة مفتوحة للجميع ، وكان الطلاب منهم يكتبون في خانة « ولي الأمر » بيت عبد الرازق في عابدين.

تلك هي أسرة مصطفى عبد الرازق كما يصفها أحد أبناء هذه القرية وهو الدكتور « حسن محمود » وهي الأسرة التي خرج منها هذا العالم الكبير ، وخرج منها أيضاً شقيقه الشيخ علي عبد الرازق صاحب كتاب « الإسلام وأصول الحكم » وهو كتاب شهير أثار ضجة كبرى عند ظهوره سنة ١٩٢٦ وقد حصل الشيخ مصطفى عبد الرازق علي العالمية من الأزهر سنة ١٩٠٨ وسافر إلي باريس سنة ١٩٠٩ ، وبقي في فرنسا حتى سنة ١٩١٤ ، وحصل علي الدكتوراه من جامعة « السوربون » عن « الإمام الشافعي أكبر المشرعين في الإسلام » .. وعاد

إلي مصر بعد ذلك ليعمل أستاذاً للفلسفة الإسلامية وظل يـؤدي عملـه في التدريـس الجامعي والكتابة والتأليف حتى تم اختيـاره وزيـراً للأوقـاف سـنة ١٩٣٨ ، ثـم شيخاً للأزهر سنة ١٩٤٥ ، وهو آخر منصب شغله قبل وفاته سنة ١٩٤٧ .

هذه ملامح عامة لحياة الشيخ مصطفى عبد الرازق . فمـا الـذي ربـط بـين هـذا الشيخ وبين أم كلثوم ؟

كان الشيخ مصطفى عبد الرازق إلي جانب ثقافته الدينيـة العاليـة أديبـاً وفنانـاً وصاحب ذوق رفيع ، فقد بدأ حياته شاعراً ينشر قصائده المختلفة وهـو طـالب في الأزهر في بدايات القرن الماضي أي القرن العشرين . وله كتاب يروى فيه ذكرياتـه في باريس من ١٩٠٩ إلي ١٩١٤ عنوانـه « مذكـرات مسـافر » وفيـه يتحـدث عـن تجاربه وعن الشخصيات المختلفة التي التقى بها خلال جولاته المختلفة في أنحـاء فرنسا ، وله كتاب آخر عنوانه « صفحات من سفر الحيـاة » وكلمـة « سـفر » علي وزن « صفـر » هنـا معناهـا كتـاب ، وفي هذيـن الكتـابين تبـدو روح الفنـان واضحة في شخصية الشيخ مصطفى عبد الـرازق ، ففـي الكتـابين نمـاذج إنسـانية مختلفة ، وفيهما تجارب حية وملاحظات دقيقة علي الحياة والناس .. وقد كتب الشيخ مصطفى عبد الرازق دراسات عديدة أخرى منها « تمـهيد لتـاريخ الفلسـفة الإسلامية » و « ابن الهيثـم » و « البـهاء زهـير » و « محـاضرات عـن الشـيخ محمد عبده » ، وغيرها من الدراسات القيمة في الأدب والفكر والدين .

بعد أن جاءت أم كلثوم إلي القاهرة من قريتها « طماي الزهايرة » سـنة ١٩٢٣ وأخذ نجمها يسطع في سماء الغناء ، بدأت الحروب تشـتعل ضدهـا مـن جـهات عديدة ، فقد حققت أم كلثوم نجاحاً سـريعاً وقويـاً وعاصفـاً ، ممـا كـان لابـد أن يكون له رد فعل عنيف من جانب المطربات الشهيرات في ذلـك الوقـت ، حيـث أحس الكثيرات منهن أن أم كلثوم تتقدمهن جميعاً لتصبـح الأولى بالنسـبة لهـن ،

بل شعرت الكثيرات منهن أن عصرًا جديداً من الغناء قد بدأ ، وأن الذوق الفني أخذ يميل عنهن ليلتف حول أم كلثوم وليس من الإنصاف التاريخي أن نقول إن « منيرة المهدية » هي وحدها التي شعرت بالخطر من ظهور أم كلثوم ونجاحها، فقد كان هناك كثيرات غيرها ، فكما تقول الدكتورة نعمات فؤاد في صفحة ١٥٩ من كتابها الشامل البديع عن أم كلثوم الذي كانت مادته العلمية أساساً للمسلسل التليفزيوني عن أم كلثوم :

« الحقيقة أن المطربات في ذلك العصر كن بالجملة فهناك غير توحيدة مطربة اسمها وسيلة وكانت مطربة خاصة للسلطان حسين وكانت تجيد العزف علي العود وتؤدي أغاني عبده الحامولي من أدوار وموشحات وكان هناك كريمة العدلية وخيرية وسهام ونجاة وسوسن وزينب وأناسي زاخريان التي اشتهرت باسم نادرة فيما بعد ».

وكان لكل هؤلاء المطربات ، خاصة « منيرة المهدية » معجبون وأنصار ، وعندما بدأ خطر أم كلثوم يلوح ، تكونت جبهة كاملة عريضة لشن الحرب ضدها، وكانت هذه الجبهة لها صحافتها التي تناصرها ، في وقت كانت الصحافة فيه هي القوة الوحيدة المؤثرة علي الرأي العام ، وكان هناك مجلة اكتسبت شهرة سريعة هي مجلة « المسرح » وكان يملكها ويرأس تحريرها أكبر ناقد فني في ذلك العصر ، وأحد أكبر النقاد في تاريخ النقد المسرحي العربي وهو « محمد عبد المجيد حلمي » ـ ١٩٠٣ — ١٩٢٧ ـ الذي مات شاباً صغيراً لا يزيد عمره علي ٢٤ سنة، وقد دخل هذا الناقد ميدان النقد الفني سنة ١٩٢٢ في جريدة « كوكب الشرق » ثم أنشأ مجلة « المسرح »سنة ١٩٢٥ وظل يصدرها أسبوعياً حتى وفاته في ٢٧ أغسطس سنة ١٩٢٧ ، أي بعد وفاة الزعيم سعد زغلول بأربعة أيام فقط حيث توفي سعد زغلول في ٢٣ أغسطس من نفس العام ـ ١٩٢٧ ـ وقد كتبت السيدة فاطمة اليوسف ـ روز اليوسف ـ في كتابها « ذكريات » تقول عن

محمد عبد المجيد حلمي : «.. وعبد المجيد حلمي هو أكثر النقاد حرارة وتطرفاً، لا يخفي سخطه ورضاه حتى علي أبسط الأشياء .. دخل يوماً حجرة إحدى الفنانات في المسرح فوجد في أرضها قشر فستق ،فخرج غاضباً وكتب مقالاً طويلاً عما يجب أن تكون عليه حجرة الفنانات ».

وقصة هذا الناقد قصة عجيبة ، وتستحق دراسة أخرى مستقلة ، وهناك كتاب وحيد مهم عنه من تأليف الأستاذ صلاح حسنى عبدالعزيز ، وفيه تفاصيل كثيرة في غاية الدقة والطرافة والعمق عن شخصية هذا الناقد ومأساته ، والذي يهمنا هنا أن هذا الناقد المليء بالحيوية والنبوغ جعل من مجلته «المسرح » أشهر وأنجح مجلة فنية في العشرينيات من القرن الماضي ، وهو القرن العشرون ، وكانت السقطة الكبرى التي وقع فيها هذا الناقد هو انحيازه لمنيرة المهدية ضد أم كلثوم ، وعدم إدراكه لإمكانية الجمع بين الإعجاب بمنيرة والإعجاب بأم كلثوم في وقت واحد وعلي غير عادته في الحماس الدائم لكل فن جميل ، فقد شن حملة شخصية علي أم كلثوم سنة ١٩٢٦ ، وأوشكت هذه الحملة أن تعصف بها وتعيدها إلي قريتها من جديد مع أسرتها للابتعاد عن مؤامرات الوسط الفني في القاهرة ومكائده الكثيرة .

فقد كتب عن « أم كلثوم » يقول إنها رفعت قضية علي شاب في قريتها غرر بها ورفض أن يتزوجها ووعدت المجلة أن تنشر تفاصيل القصة في عدد من أعدادها القادمة ولكنها لم تفعل .

ونص ما كتبته مجلة « المسرح » عن أم كلثوم نجده في كتاب جميل يفيض بالمعلومات الغزيرة للأستاذ الناقد عبد النور خليل وهو كتاب « رجال حول أم كلثوم » صفحة ٧٨ .

وقد كانت هذه الحملة الشخصية ضد أم كلثوم في بداية حياتها حملة خطيرة، فهي تطعنها في شرفها وسلوكها الشخصي ، وبالنسبة لأم كلثوم الفلاحة الفقيرة القادمة إلي القاهرة من بيئة محافظة كان ذلك كفيلاً بوضع صعوبات كبيرة في حياتها وهي تخطو خطواتها الأولى الناجحة في مجال الفن وقد قرر والدها الشيخ « إبراهيم » بالفعل أن يعود بابنته إلي قريته وأن ينفض يديه نهائياً من حياة القاهرة .

وهنا يظهر دور الشيخ العظيم مصطفى عبد الرازق رجل الدين والفنان وصاحب الرجولة العالية والأخلاق الرفيعة ، فقد وقف مصطفى عبد الرازق إلي جانب أم كلثوم ، وفتح لها ولأسرتها أبواب قصره في عابدين ، فكانت تجد فيه الأمان ، والاطمئنان ، وكانت تجد التشجيع والمساندة ، معنوياً ومادياً، ولعل الشيخ مصطفى عبد الرازق قد كتب بعض المقالات في الدفاع عن أم كلثوم فقد كان الشيخ يكتب النقد الفني في جريدة « السياسة » ولم يكن يوقع باسمه الصريح ، وإنما كان يضع مكان اسمه ثلاث نقاط علي هذه الصورة « ... » .

ولا شك أن موقف الشيخ مصطفى عبد الرازق من أم كلثوم في تلك المحنة الساحقة التي كادت تقضي عليها كان له الفضل الأكبر في نجاتها من العاصفة التي أثيرت ضدها في بداية حياتها ، كما كان للشيخ تأثيره الكبير علي شخصية أم كلثوم ، وثقافتها ونظرتها للحياة والناس.

وهنا ينبغي أن نعود إلي بعض جوانب شخصية الشيخ مصطفى عبد الرازق ، فنجد أن العالم الجليل لم يكن يرى أي تناقض بين الدين والفن الرفيع ، ولم يكن رجلاً سلبياً يخفي آراءه وأفكاره ، بل كان يدافع عنها بكل ما يملك من وسائل أدبية ومادية .. وهذه شهادة من أحد تلاميذه النابغين المقربين منه وهو المرحوم الدكتور عثمان أمين رئيس قسم الفلسفة بجامعة القاهرة سابقاً ، حيث

يقول الدكتور عثمان أمين عن أستاذه مصطفى عبد الرازق في دراسة له نشرتها مجلة « العربي » في يناير ١٩٦٥ :

« كان أستاذنا مصطفى عبد الرازق ـ رحمه الله ـ يعتقد أن هناك شيئاً فوق العلم وفوق الفن ، وهذا الشيء هو ما يطلق عليه اسم الأخلاق ، وقد كان الفلاسفة اليونانيون المعروفون باسم « الرواقيين » يسمونه « فن الحياة » وهو أعلى الفنون، وكان مصطفى عبد الرازق يرى أن الأخلاق ينبغي أن تكون فناً للحياة ، أي أن ترسم قاعدة ثابتة لسلوك الشخص مع نفسه ومع الله والناس ، بمعنى أن يكون للإنسان في حياته موقف مقرر وخطة مرسومة حتى لا تتجاذبه الأهواء والانفعالات، فإذا بلغ الإنسان هذه المرتبة كان حكيماً ، وآية الحكمة هي ما يلازم سلوك الإنسان من ثبات واستقرار ، ولكن هذا الثبات .. فيما يرى مصطفى عبد الرازق ـ يجب أن يكون في فعل الخير ،وليس الخير في المال أو الصيت ، وإنما الخير هو جمال الروح وهو الحب والسماحة والجود ».

ثم يقول الدكتور عثمان أمين : « كان أستاذنا مصطفى عبد الرازق كثيراً ما يحدثنا فيقول : إن هناك فلسفة جميلة ظهرت منذ فجر الفكر الإسلامي هي فلسفة كرام النفوس ، أولئك الذين عاشوا للعالم كله وليس لأنفسهم فقط وظلوا علي وفاق مع قانون المحبة والسخاء ..

« ويذهب مصطفى عبد الرازق إلي أبعد من ذلك كله فيطالب الإنسان بأن يحب لغيره أكثر مما يحب لنفسه ، والواقع أن هذا هو طابع الحب الحقيقي فليس الحب هوى جامحاً يريد التغلب والامتلاك ، لكنه فضيلة تبتغي أن تعطي دائماً، وأن تعطي من غير حساب » .

ثم يقدم الدكتور عثمان أمين هذه الشهادة الجوهرية المهمة عن أستاذه مصطفى عبد الرازق فيقول :

« من المفيد أن نشير إلي جانب في حياة مصطفى عبد الرازق غير مألوف عند شيوخ المسلمين والشيوخ الأزهريين بصفة خاصة ، ذلك هو الجانب الجمالي في نظرته إلي العالم ، وليس عجيباً أن يهمل كتاب سيرته هذا الجانب من جوانب حياة الشيخ لأن آخر مناصبه الدينية كان منصب شيخ الأزهر ، وقد جرت الأحكام العامية علي أن تضع حواجز بين الدين والحياة ودفعت الأوهام هذه الأحكام إلي أن تتخيل تعارضاً بين الفن والدين ، وقد كانت للشيخ مصطفى عبد الرازق روح جمالية واضحة ، فهو بالرغم من تحفظه وحذره الطبيعي كان دائماً شغوفاً بتوسيع خبرته في الحياة ، عاملاً علي تنمية تفسيره الجمالي له ،وكان تفسيره ، خلافاً للكثيرين ممن كانت لهم مثل تجاربه ، بعيداً عن نوازع الاستهتار ، لأن ما في طبعه من رقة ولطافة ، وفهم وتعاطف ، قد جعله يرى الجمال الذي لا تكشفه عيون المستهترين ، وقد عبر مصطفى عبد الرازق عن تجاربه تعبيراً شائقاً. ففي بعض رسائله الأولى غير المنشورة وصف باريس وصفاً تحدث فيه عن الرسم والموسيقى والنحت والرقص والحدائق الغناء التي تمتزج فيها الابتسامات بالدموع ، وهذه الرسائل وحدها كافية لتخليد المفكر الأديب الفنان أكثر مما خلدته محاضراته الجامعية عن الفلسفة والفقه وعلم الكلام » .

هذه شهادة حية ورائعة عن مصطفى عبد الرازق كتبها أحد تلاميذه النابغين الذين كانوا وثيقي الصلة به . وهذه الشهادة وحدها تكفي لتفسير حماس مصطفى عبد الرازق لأم كلثوم ودفاعه القوي عنها . وهي تكفي لتوضيح الأثر الكبير الذي تركه مصطفى عبد الرازق بشخصيته الجبارة المستنيرة الكريمة علي تكوين أم كلثوم ورحلتها الناجحة الطويلة في الفن والحياة .

وهناك شهادة أخرى تستحق أن نسجلها هنا حول شخصية الشيخ مصطفى عبد الرازق وهي شهادة تلميذ آخر من تلاميذه المعروفين وهو الدكتور عبد الرحمن

بدوي وقد جاء في مذكرات الدكتور بدوي التي جعل عنوانها « سيرة حياتي » الجزء الأول « ص ٦١ وما بعدها » حيث يقول الدكتور بدوي :

« لم يكن الجانب العلمي في الشيخ مصطفى عبد الرازق أقوى جوانبه بل الجانب الإنساني، لقد كان النبل كله ، والمروءة كلها . كان دائماً هادئ الطبع ، باسم الوجه ، لا يكاد يغضب ، وإن غضب لم يعبر عن غضبه إلا بحمرة في وجهه ، وصمت كظيم، كان آية في الحلم والوقار ، ولكنه وقار طبيعي لا تكلف فيه ولا تصنع ، وفي حالات الأنس بمحدثيه من الأصدقاء والتلاميذ كان ودوداً محباً للسخرية الحقيقية .

وإذا أراد التقريع والتأنيب لجأ إلي التهكم اللاذع ، وكان آية في الإحسان إلي الآخرين ما لجأ إليه مظلوم إلا حاول إسعافه ، أو صاحب حاجة إلا بذل ما استطاع حتى لو كان من ماله وكم له من أياد بيضاء علي بعض طلابه الذين سألوه المساعدة رغم أنهم لا يستحقونها كما تجلى في سلوكهم فيما بعد، وكان عزوفاً عن المناصب الإدارية ويتنازل عنها لمن هو حريص عليها ، أذكر أنه في شهر مايو ١٩٣٦ أجريت انتخابات لمنصب العمادة في كلية الآداب بعد أن أصبح المنصب شاغراً بنقل منصور فهمي إلي دار الكتب فنال الشيخ مصطفى أكبر عدد من الأصوات وتلاه الدكتور طه حسين وحينئذ أعلن الشيخ مصطفى أنه لا يريد تولي منصب العميد ، فكان أن عين طه حسين عميداً ، كذلك كان الشيخ مصطفى رئيساً لقسم الفلسفة فلما جاءنا ـ من فرنسا ـ الأستاذ أندريه لالاند في أكتوبر ١٩٣٧ تخلى له الشيخ مصطفى عن رئاسة القسم تقديراً لمكانة لالاند .. ولما عين وزيراً للأوقاف في مارس سنة ١٩٣٨ استمر في التدريس لنا حتى الوقت المقرر عادة وعرفا لانتهاء الدروس في حوالي ٢٠ إبريل ، واشترك في الامتحان السنوي لنا في أواخر مايو في مادة الفلسفة الإسلامية وكان متحرر الفكر اجتماعياً يدعو إلي تحرير

المرأة ومن هنا كان يكتب في مجلة « السفور » مقالات ذات نزعة تحريرية للحياة الاجتماعية .

وهذا التحرر الاجتماعي هو الذي كان هدف هجمات الأزهريين عليه خصوصاً حين صار شيخاً للأزهر سنة ١٩٤٥ .

هذه بعض ملامح من شخصية الشيخ مصطفى عبد الرازق وأفكاره وصفاته الإنسانية النبيلة كما شهد بها بعض تلاميذه الذين عرفوه عن قرب وهذا الشيخ الأزهري المستنير هو أحد الرجال الكبار الذين وقفوا إلي جانب أم كلثوم في بداية رحلتها الفنية وأخذ بيدها واستطاع أن يصد عنها كثيراً من المتاعب التي حاول البعض أن يخلقها لها في البداية حتى لا تواصل نجاحها وتثبيت أقدامها في التعبير عن موهبتها الكبيرة الاستثنائية وكان هناك من يسعون إلي خلق هذه المتاعب في حياة أم كلثوم حتى تهرب وتبتعد عن الساحة الفنية وتترك المجال لغيرها ممن كانوا يحسدونها ويحاربونها ويعملون بكل جهدهم للقضاء عليها وهي في أول الطريق.

♫ ♫ ♫

بين أم كلثوم وأحمد رامي

يروي الشاعر الراحل صالح جودت هذه القصة الطريفة عن صديقه الحميم أحمد رامي فيقول : حدثني الأستاذ أبو الوفا محمود رمزي نظيم - رحمه الله - وقد عرف رامي منذ سنة ١٩١٨ أو قبل ذلك ، أن « رامي » كان أجمل فتيان القاهرة في زمانه ، والذين عرفوا رامي بعد ذلك بكثير قد لا يصدقون هذه الرواية ، لولا أنها صادرة عن رجل لم أشهد عليه كذباً في حياته ، لكنهم يجمعون على حقيقة لا خلاف حولها ، تلك هي أن رامي كان صاحب أجمل روح في القاهرة ، واذكر أن سيدة من حسان القاهرة الرفيعات في كل معنى من معاني الجمال الحسي والمعنوي دعتنا - رامي وأنا - وكرمتنا بليلة حلوة جمعت لها جمعاً من أعذب صديقاتها مظهراً وجوهراً ، وهذه ظاهرة ما كنت أحسب أن لها أثراً في مصر .. أن تظفر بسيدة جميلة مثقفة تهب ليلة من لياليها لتكريم شاعرين ، وتجمع حولهما باقة من بنات البيوتات ، ذوات جمال وثقافة معاً . ولم تكن الجميلات قد رأين رامي من قبل وكن يعرفنه من شعره وأغانيه ويتخيلنه شاعراً فاتن الصورة متموج الشعر قاتل العينين ، فما أن وقعت عليه عيونهن حتى بدت عليهن شبهة من اليأس ، وتحدث رامي فانساب صوته كما ينساب نغم الناي في الليل الناعم وأشاع في جو الغرفة روحاً من البهجة والشاعرية ، فلم تمض ساعة حتى كانت الحسان يحطن به إحاطة السوار بالمعصم ، وبدا رامي في قلوبهن أجمل إنسان في الوجود . هذه قوة الروح عند رامي لا يكاد يطمئن إلي مجلس حتى يستولي علي من فيه بحديثه الخيالي العذب ، وتعبيراته المبتكرة الشاعرة ».

تلك هي القصة التي يرويها صالح جودت عن صديقه رامي ، وهي قصة طريفة لطيفة ، ولكنها إلي جانب ذلك تكشف عن العنصر الرئيسي الذي تتكون منه شخصية رامي وهو عنصر روحي وجداني يسيطر علي قلبه ويجعل منه كائناً شفافاً رقيقاً مولعاً بمعاني الجمال المعنوي في الإنسان ، وقد عاش رامي حياة طويلة ، فهو من مواليد ١٨٩٢ ، وكانت وفاته سنة ١٩٨١ وهو أكبر من أم كلثوم بست سنوات ، فأم كلثوم من مواليد ١٨٩٨ ، وقد توفى رامي بعد أم كلثوم بست سنوات أيضاً ، حيث ماتت ام كلثوم سنة ١٩٧٥ وهي في السابعة والسبعين ، أما رامي فقد مات وهو في التاسعة والثمانين سنة ١٩٨١ كما سبقت الإشارة و «الزمن» دائماً قادر علي أن يغير ملامح الوجه والجسم وهذا ما حدث لرامي الذي كان كما قيل عنه أجمل فتيان القاهرة في شبابه الأول وكان محتفظاً بهذا الجمال عندما التقي بأم كلثوم لأول مرة حوالي سنة ١٩٢٥ ولكنه فقد هذا الجمال في وجهه بمرور السنين ، فكان صاحب وجه عادي لا جمال فيه عندما تقدم به العمر بعد ذلك، ولكن الزمن الذي يغير الوجوه والأجسام لم يستطع أن يغير من روح رامي شيئاً ، بل ازدادت هذه الروح نضارة وشباباً وصفاء ورقة بمرور الأيام وتلك هي قوة الإنسان الذي لا يستطيع أن يهزم الزمن بجسمه ، ولكنه يستطيع أن ينتصر عليه بروحه وقلبه.

وقد ظل رامي حتى آخر أيامه يحمل لقب « شاعر الشباب » ،ولم يستنكر أحد ذلك أبداً لأن رامي كان طيلة حياته يشعل شمعة الحب الدافئ في القلوب، والحب هو عاطفة الشباب . وإذا اشتعل الحب في قلب الإنسان ، فإن ذلك يجعله شاباً حتى لو كان في التسعين .

علي أن لقب « شاعر الشباب » الذي أصبح وصفاً دائماً لرامي له قصة يرويها صالح جودت أيضاً في دراسته الصغيرة الممتعة عنه ، وقد تم نشر هذه الدراسة سنة ١٩٥٨ ضمن فصول كتاب عنوانه « ملوك وصعاليك » يقول صالح جودت :

« سافر رامي لبعثة لدراسة اللغات الشرقية وفن المكتبات سنة ١٩٢٣ وهناك في باريس قضى عامين في جامعة السوربون هما أسعد ذكريات شبابه ، وعاد رامي بعد هذين العامين إلي القاهرة حيث عين بدار الكتب المصرية ، وظل يتدرج في مناصبها ثمانية وعشرين عاماً ، حتى أصبح وكيلاً لها ، وقد جاوز الستين ، ومع هذا فإنه لا يزال يلقب في الصحف والمنتديات باسم « شاعر الشباب » وقصة ذلك أنه كان في بدايته ينشر شعره بمجلة « الشباب » لصاحبها الأستاذ عبد العزيز الصدر ، الذي كان يلقبه بلقب « شاعر الشباب » نسبة إلي اسم المجلة ، وبقيت التسمية عالقة برامي إلي الآن ».

ويواصل صالح جودت حديثه عن صديقه رامي فيثير قضية مهمة جداً تناولها الكثيرون من الباحثين والنقاد والدارسين لأشعار رامي في الحب ، وقد غرق رامي في تصوير عاطفة الحب إلي الحد الذي جعله يقول في أغنية معروفة له :

عزة جمالك فين ..

من غير ذليل يهواك

وكان لابد أن تثير مثل هذه الصورة الشعرية غضب الذين يفسرونها علي معناها الظاهر المباشر فالحب الحقيقي لا يجوز أن يكون مرتبطاً بالذل ، فالحب الصادق كريم علي نفسه وعلى الناس ، ولا حب بغير كرامة وكبرياء، ولكن الذين يفهمون رامي علي حقيقته ، يعرفون أن فيه نزعة « صوفية » عميقة ، ولذلك فإن كلمة الذل هنا تحمل معني التواضع والرفق والحنان وهي أشبه بلغة أهل التصوف، فكثيراً ما يقول المتصوف عن نفسه إنه « العبد الحقير » أو « العبد الفقير » والمتصوف هنا لا يقصد أنه « فقير » أو « حقير » ولكنه يقصد أنه تخلص من الغرور والأنانية والامتلاء بحب النفس ، ذلك لأن المتصوف قد تجرد من كل شيء ليكون خالصاً لعاطفة الحب الإلهي ، وهي العاطفة التي تسيطر عليه، وكذلك كان رامي ، فقد أعطى قلبه لعاطفة الحب ، وعاطفة الحب عنده

كانت لوناً من التصوف السامي ، فهو في حبه كأنه يعبد الله بتقدير نعمة الجمال التي أنعم بها علي الإنسان ،وهو ليس ذليلاً في حبه بالمعني الحرفي الظاهر لكلمة الذل ، ولكنه متواضع وذائب في هواه ومتجرد تماماً من الغرور والادعاء والاعتداد بالنفس.

وقد أثارت مثل هذه المعاني في قصائد رامي حملة عليه اتهمته بأنه شاعر « الضعف » و « التخاذل » و « الهوان » في الحب ، وهذا هو الاتهام ، الذي يرد عليه صالح جودت رداً قوياً وصحيحاً ، حيث يقول :

« لقد ثارت في وقت من الأوقات حملة من حملات النقد تقسم الأدب إلي بابين، باب القوة وباب الضعف وقيل يومئذ إن شعر رامي بما فيه من لهفة علي الحب والحبيب ، وما يزخر به من دموع وتأوهات ينهض نموذجاً لأدب الضعف وهذه قولة سخيفة إن أخذنا بها وجعلنا أخلد الشعر العاطفي في التاريخ من أدب الضعف ، وإني لأرى أن أدب الضعف ليس هو الذي يمتلئ بالعاطفة ويلتهب بالحرقة علي الحبيب ، وإنما أدب الضعف هو ذلك الذي يسوق اللفظة السقيمة أو المعنى الواهي أو الخيال المجوج ، وأني لأرى أدب القوة ليس هو الذي يتحدث عن الجهاد والجلاء والقلاع والحصون ، وإنما أدب القوة هو ذلك الذي يصدر عن القلب والروح ويسوق اللفظة الحلوة والمعنى الرفيع ، وأدب رامي علي هذا القياس الصحيح أدب قوة ، لأنه أدب صدق مستمد من أعماق نفسه وخياله وثقافته ، وصحيح أن أدبه حافل بالأنين غارق في الدموع ، ولكن ماذا تطلب منه وهذه حياته كلها تشوق وتشوف ووحشة وحنين وأنين ؟ أمن العدل أن نطالب شاعراً هذه حياته بأن يحدثنا عن السيف والدم ؟ إن الشاعر الحقيقي هو الذي يجعل شعره صورة صادقة من حياته ».

ذلك هو دفاع صالح جودت عن رامي وهو دفاع في موضعه فالحقيقة أن الكاذبين من الشعراء والناس هم الضعفاء حتى لو تشدقوا بكلمات القوة والعنفوان

وصرخوا أمام الجميع بأعلي الأصوات ، أما الصادقون مع أنفسهم ومع الناس فهم الأقوياء حتى لو امتلأت كلماتهم بكل ألوان الأسى والدموع ، فالقاعدة الإنسانية الصحيحة التي تفسر لنا كل أسرار الحياة هي أن الكذب ضعف والصدق قوة والكاذبون ينهزمون حتى لو بدا لنا أحياناً أنهم أصبحوا سادة الدنيا ، أما الصادقون فهم الذين ينتصرون في آخر الأمر حتى لو بدا لنا أحياناً أنهم وحيدون بلا أنصار ولا أعوان وأنهم يسيرون في طرقات الحياة وفي عيونهم دموع وفي قلوبهم أشجان وأحزان ، ورامي كان قوياً بصدقه مع نفسه ومع الناس ، وقد استطاع بقوة الصدق أن يجعل لعاطفة الحب في عصره، وبالتحديد في أغانيه التي كتبها لأم كلثوم صورة مليئة بالرقي والشفافية والذوق الرفيع وقد ظل يكتب لأم كلثوم أغانيه الرقيقة الناعمة لمدة تقرب من خمسين سنة ، تمتد من سنة ١٩٢٥ وحتى سنة ١٩٧٥ ، وكانت هذه السنوات في تاريخ مصر سنوات صاخبة مليئة بالأحداث والحروب والانقلابات والمفاجآت في السياسة والمجتمع والاقتصاد والذوق والأخلاق ، ولولا هذا الثنائي الذي يتكون من رامي وأم كلثوم لكان هذا العصر نوعاً من الضجيج المتلف للأعصاب والأرواح ولكن ثنائي رامي وأم كلثوم ، استطاع ان يعزف علي وتر حساس جميل عذب هو وتر العاطفة الإنسانية الراقية، فأنشأ لنا هذا الثنائي وسط غابة الأحداث المتشابكة ، حديقة كبيرة مليئة بالورد والريحان ، يجد فيها قلب الإنسان كثيراً من الراحة والحنان ، ويستنشق فيها عطر المشاعر النبيلة والعلاقة بين أم كلثوم ورامي لا تزال فيها صفحات تستحق حديثاً آخر لها في الفصل التالي.

♫ ♫ ♫

الزواج المستحيل

كان حب الشاعر أحمد رامي (١٨٩٢ – ١٩٨١) لأم كلثوم حباً حقيقياً وكبيراً ونادراً ، وكان هذا الحب هو مصدر أغانيه الجميلة التي كتبها لها من وحيها ، وقد بلغ عدد هذه الأغاني فيما يقول بعض المؤرخين ١٣٧ أغنية من بين ٢٨٣ أغنية غنتها أم كلثوم طيلة حياتها الفنية والأرقام النهائية الدقيقة ليست ميسورة ، وذلك لأن الناس كانوا ـ في حياة أم كلثوم ـ يعيشون معها يوماً بيوم وأغنية بأغنية ، ولم يفكر أحد أن يكتب تاريخاً دقيقاً لأم كلثوم وفنها ، وهي علي قيد الحياة ، تسعى في عالم الجمال بأغانيها الرائعة وصوتها الملائكي العجيب . لقد شغلت أم كلثوم الناس في حياتها بفنها وحده، ولم يكن أحد يفكر أن يسجل ويتابع ويذكر التواريخ والتفاصيل ، خاصة أن أم كلثوم ظلت خلال أكثر من خمسين سنة تشغل الناس بأغانيها ولا يكاد جمهورها يسمع إحدى هذه الأغنيات ويعشقها حتى تفاجئهم أم كلثوم بأغنية جديدة ، تشغل الناس عما سبق لهم أن سمعوه.

ولولا أن الله قد هيأ لأم كلثوم وتاريخها وفنها عاشقة من بين عشاقها الكثيرين وهي الدكتورة « نعمات أحمد فؤاد » التي كانت تتابع منذ وقت مبكر تفاصيل حياة أم كلثوم وفنها ـ لكانت أم كلثوم الآن وبعد رحيلها في حاجة إلي عشرات الباحثين ، حتى يتمكنوا من جمع المادة الأساسية لتاريخ هذه الفنانة النادرة ، وقد استطاعت نعمات فؤاد ـ بالجهد والحب والمثابرة ـ أن تكتب موسوعتها الشاملة « أم كلثوم ـ عصر من الفن» ، وهي الموسوعة التي يمكن اعتبارها المرجع الأول عن حياة أم كلثوم وفنها ، والتي اعتمد عليها مسلسل أم كلثوم الرائع الذي

كـتبه « شاعر التاريخ » محفوظ عبد الرحمن والذي أحـب أن أطلق عليه اسم « نجيب محفوظ عبد الرحمن الرافعي» لأنه جمـع في شخصيته بين « الفنان » و « المؤرخ » واستطاع أن يخرج من الجمع بينهما بمزيج رائع من الفن والحقيقة، وقد أتيح لهذا المسلسل ـ الذي هز مصر والعالم العربي كله ـ مخرجة فنانـة رائـدة نابغة هي إنعام محمد علي والتي هي في تاريخنا الفني والثقافي واحدة من سلسـلة النساء العظيمات التي تقف أم كلثوم علي قمتها ، وهذه السلسلة النسائية الرائعـة تقول في وضوح وقوة لكل من يحاولون التهوين من شأن المـرأة العربيـة : اخجلـوا من أنفسكم !.

كنا ـ في العادة ـ نلخص أم كلثـوم في كلمـة واحـدة هـي كلمـة « مطربـة » أو كلمة « فنانة » ولكننا اكتشفنا بعد رحيلها بربع قرن كامل ، أنها كـانت ظـاهرة وطنيـة واجتماعيـة وإنسـانية فريـدة ، وأنـها كـانت في القـرن العشـرين تمثـل في مجتمعنا ما يشبه القلب في الجسد . حيـث كـانت تعمـل بصـورة دائمـة علـي أن تدفع بدماء الحياة إلي كل الشرايين ، فيتحرك الجسم الاجتماعي بأكملـه وينشـط وينهض ويسعى في الأرض لمواجهة الدنيا بكل ما فيها من أفراح وأحزان ومشـاكل ومتاعب.

فلاحة فقيرة تصل إلي القمة بجهدها وموهبتها وذكائها وقدراتها الخارقة علـي تقدير الأمور ووزنها بالميزان الصحيـح ، وامـرأة ليـس لديـها مـيراث ، ولا تقـف وراءها عائلـة كبـيرة ولا قبيلـة ذات مـال أو نفـوذ تسـتطيع أن تخـوض التقلبـات العاصفة التي مرت بمصر منـذ نهايـة الحـرب العالميـة الأولى سـنة ١٩١٨ وحتـى وفاتـها يـوم الإثنـين ٣ فـبراير سـنة ١٩٧٥، وتسـتطيع أم كلثـوم في هـذه الرحلـة الطويلة أن تبقى موضع احترام الجميع وحبهم لها وارتفاعهم بشخصيتها ودورهـا فوق كل الخلافات والتقلبات والتغييرات العاصفة.

امرأة .. ظلت تعمل وتنتج منذ تفتحت عيناها علي موهبتها وفنــها ، قبـل أن تصل إلي العشــرين ، ولم تتوقـف عـن العمـل والإنتـاج حتـى تجـاوزت الخامسـة والسبعين وأقعدها المرض ثم انتصر عليها الموت.

أليست هذه المرأة بإرادتها الجبارة ، وقدرتـها علـي العمـل والإنتـاج والإتقـان طيلة أيام عمرها ، وحتـى النهايـة تستحق أن تكـون مثـلاً أعلـى يلـهم الجميـع ويعلمهم كيف يواجهون الحياة بجدية وإخلاص وشجاعة ؟ وكـانت محـط أنظـار الجميع من الكبار والصغار ، ومع ذلك فإنها لم تفقد توازنها ، ولم تسـمح لشـيء من ذلك كله أن يحول بينها وبين أن تغني في آخـر حفلـة لهـا في الخميـس الأول من يناير سنة ١٩٧٣ بنفس الجهد والقوة والإتقان والذوبان الروحـي في كـل كلمـة تؤديها كما كانت تفعل تماماً وهي فتية صبية في العشرينات والثلاثينات .

لقد كانت بحق مثلاً أعلى وكـانت جامعـة كـبرى يتعلـم فيـها الذيـن يريـدون النجاح في حياتهم ، والنجـاح في هـذه الجامعـة « الكلثوميـة » الكـبرى أساسـه الجهد المستمر المتواصل ، وعدم الاستسلام للإغراءات ، والصبر الجميـل علـي مـا في الحياة من مشقات ومصاعب وتقلبات.

ونعود بعد ذلك إلي موضوعنا الأصلـي وهـو : رامـي وأم كلثـوم .. لقد تشـكك البعض في قصة الحب التي شاع أمرها وقالوا إن رامي كان يحـبها حـباً خـيالـياً « مصطنعاً » لكي يساعده ذلك علي أن يكتب القصائد : قصائدهـا الـتي تغنيـها والتي بلغت كما أشرنا ١٣٧ أغنية من بين ٢٨٣ أغنية هي كل ما غنتـه أم كلثـوم في حياتها الطويلة . وقال البعض : لو كان هناك حب بين أم كلثوم ورامي فلماذا لم يتزوجـا ، وقـد التقيـا وهمـا في عـز الشـباب سـنة ١٩٢٤ وكـانت أم كلثـوم في السادسة والعشرين وكان رامي في الثانية والثلاثين ؟!.

أسئلة كثيرة حول قصة الحب بين رامي وأم كلثوم . ولـو توقفنـا أمـام كـل مـا قيل عن الحب لوجدنا أنفسنا في « متاهة » لا يستطيع أحـد أن يخـرج منـها أو

يعرف فيها طريق اليقين ، ولكي نخرج من هذه « المتاهة » فليس أمامنا إلا أن نقرأ أغاني رامي التي كتبها لأم كلثوم ، ونسأل أنفسنا ببساطة : هل يمكن أن تخرج هذه الأغاني من قلب لا يحب ؟ وهل يمكن أن تغنيها أم كلثوم بكل هذا « الذوبان » الروحي وهي أيضاً لا تعرف الحب ؟ لن تكون الإجابة عسيرة علي الإطلاق ، فرامي كان يحب أم كلثوم من كل قلبه وأم كلثوم كانت تعرف ذلك وتبادله نوعاً خاصاً من الحب ، ليس هو الحب التقليدي الشائع بين الناس ، ولو كان الحب بينهما هو الحب العادي المألوف لانتهي الأمر بالزواج ، ولما كتب رامي كلمة واحدة من أغانيه ، ولا غنت أم كلثوم هذه الأغاني وجعلت منها قصة لكل القلوب العاشقة ، وكل العواطف الإنسانية الصادقة عند ملايين الناس من كل الأجيال.

لقد كان الحب بين رامي وأم كلثوم حقيقة ، ولكن الزواج بينهما كان هو «الزواج المستحيل » وقد صدق شيخ نقاد الجيل الماضي الدكتور « محمد مندور » عندما قال : « إن قصة رامي وأم كلثوم وما قاله فيها من شعر فريد في تاريخ الآداب هي قصة نحسبها أقرب إلي الأساطير منها إلي تجارب الحياة ».

ولا شك أن أم كلثوم هي التي كانت « تدير » قصة الحب العجيبة بينها وبين رامي ، وقد أدركت أم كلثوم بعبقريتها منذ البداية أن رامي « نبع صاف» من الفن الرقيق العذب الصادق ، وأدركت أن اشتعال عواطفه هو «المحرك» الأساسي لفنه ، وكان رامي كما عرفته أم كلثوم وكما عرفه الناس أيضاً إنساناً طيباً وديعاً لا يعرف الحقد ولا الرغبة في الثأر لنفسه ، بل ولا يعرف حب الامتلاك الذي يسيطر علي كل العشاق . فهو متصوف في حبه وفي حياته كلها ، ولم يكن يجد سعادته إلا في التعبير الجميل عن عاطفته الصادقة.

ولذلك حرصت أم كلثوم علي أن يبقي رامي في حياتها شاعراً عاشقاً ، يغني ويبدع ويفرح ويتألم ويعاني كل مشاعر الحب القوية الساخنة ، ولا ينتصر علي

آلامه العاطفية إلا بتحويلها إلي أغان رائعة ، أي إلي ألحان وأنغام ، وانتقال رامي من موقع « العاشق الشاعر » إلي موقع « الـزوج » معنـاه أن يتوقـف عـن كتابـة أغانيه ، لأن الزواج يجعل الحب قصة خاصة باثنين ، لا حـق لأحـد أن يعـرف شيئاً عن أسرارها ، وبذلك يتوقف نبع الفن في قلب العاشق عندما تصل قصته إلي الاكتمال والنجاح فيسعد بها وحده دون سائر الناس . وقد وصل التفكير في قضيـة التفرقة بين الحب والزواج بمفكر أوروبي مجهول إلي أن يقول منـذ مئات السـنين والنص من ترجمة الدكتور صـادق جـلال العظم في كـتابه الصغير الجميـل عـن « الحب العذري » صفحة ١٩ :

« إننا نعلن حقيقة ثابتة نؤمن بـها وهـي أنـه لا يمكـن للحـب أن ينشأ بـين المتزوجين أو تؤثر قوته فيهم ، إذ أن العاشقين يـهبان بعضـهما كـل شـيء طوعـاً واختياراً بعيداً عن تأثير كل ضرورة أو فـرض ، أم الزوجـان فـهما ملزمـان بحكـم الواجب أن ينزلا نزولاً كلياً عند رغبات بعضهما ، وألا يضن أحدهما بشيء علـي الآخر ».

وهذا الكلام الأوروبي مجهول المصدر منذ مئات السنين فيه قسوة وظلم ، ولكن فيه أيضاً بعض الحقيقة . فالزواج لا يقتل الحب ، والزواج السعيد لابد أن يستمد قدرته علي الاستمرار من الحـب ، ولكـن الحـب في الـزواج يتحـول إلي « عاطفـة خاصة » لا شأن للآخرين بها . والزواج السعيد « حياة » ، ولا مجال في الزواج السعيد لعواصف الحب وتقلباته وموجاته المختلفة ، والزواج السعيد من النـادر أن يكون مصدراً للفن ، لأن السعادة عندما تكتمـل ليسـت بحاجـة إلي مـا يغذيـها ، والسعادة فن في حد ذاتها ، ولكنها فـن يستمتع بـه أصحابـه فقـط ، فليـس مـن المألوف أن يكتب شاعر أغاني حب في زوجته وينشرها علي الناس إلا في حـالات نادرة قلـيلة ، مثلما فعـل الشـاعر الفرنسي « أيلوار » وكتب ديوانـاً عنوانـه : « عيون إلزا » والديوان كله غزل في زوجته.

وفي هذا الإطار يمكننا أن نتصور علاقة الحب بين رامي وأم كلثوم . ولعلنا نحس بأن الاثنين معاً كانا خاضعين لنوع من الأقدار لا يمكن لأحد أن يغيرها . فرامي كان بحاجة إلي حبه ليكتب قصائده الرائعة المشتعلة الصادرة عن قلب مخلص متصوف شديد النقاء ، وأم كلثوم كانت بحاجة إلي قصائد رامي العاطفية لكي تغني للناس ما يعبر عنهم جميعاً ، وليس ما يعبر عنها وحدها. ولذلك كان الزواج مستحيلاً بين الاثنين ، فهما يشبهان المطر والنهر ، فلو توقف مطر « رامي » لما فاض « نهر » أم كلثوم ، ومن المستحيل أن يصبح المطر والنهر شيئاً واحداً ، وإن كانت الصلة بينهما هي أصل كل شيء في الطبيعة.

لقد تجسدت قصة الحب الراقية النبيلة بين رامي وأم كلثوم في ١٣٧ أغنية لا مثيل لها في أدب العشاق الصادقين ، لا في الأدب العربي وحده ، بل ربما في الأدب العالمي كله. وسوف تظل قصة « رامي وأم كلثوم » مادة رائعة لألوان من الفنون في عصرنا وبعد عصرنا . وقد وقعت في يدي «رواية » رائعة ونادرة الجمال عنوانها « كان صرحاً من خيال » وهذه الرواية العاطفية البديعة بطلها « رامي » وبطلتها « أم كلثوم » وقد كتبها بالفرنسية سنة ١٩٩٤ كاتب لا أعرف عنه شيئاً هو « سليم نسيب تركية » وترجمها إلي العربية الأستاذ « بسام حجار » سنة ١٩٩٩ وأصدرتها دار « المسار » في بيروت ، ولو أننا حذفنا اسم رامي وأم كلثوم من هذه الرواية العاطفية ، ووضعنا بدلاً منهما اسمين آخرين مختلفين ، لكانت هذه الرواية إحدى روائع الأدب العاطفي الإنساني ولكن كاتب الرواية استوحاها من حب رامي لأم كلثوم . وجمع كل التفاصيل الخاصة بالعلاقة بين الحبيبين . وأبقى علي اسم رامي واسم أم كلثوم ، وقال في آخر سطور روايته البديعة « استوحيت فصول هذا الكتاب من قصة رامي الحقيقية غير أن المذكرات التي تشتمل عليها هذه الصفحات هي مجرد خيال ».

ورغم هذا التحفظ فقد جاءت الرواية دقيقة في كثير من تفاصيلها ، ولكن الجمال الذي تفيض به الرواية مصدره هو تصوير الكاتب لمشاعر « رامي » ومشاعر « أم كلثوم » في المواقف المختلفة التي مرت بهما، ولذلك جاءت الرواية عملا فنيا رائعا ونادرا، وهي رواية تعتمد اعتمادا كاملاً علي تصوير ممتع وعميق لكل فصول الحب الكبير بين رامي وأم كلثوم ، والبطل الأساسي في الرواية هو « الحب » .. والرواية كلها تتحدث بلسان رامي ، فكأن هذه الرواية هي مذكرات رامي السرية التي لم يكتبها هو نفسه ، وجاء هذا الكاتب المبدع فكتب روايته علي لسان رامي، وصور فيها كل مشاعره العميقة كما تخيلها ، ويكاد الخيال في هذه الرواية يقول لنا ـ مثل كل فن جميل : إن الخيال أكثر صدقاً وجاذبية وتأثيراً من أي واقع . إنها رواية رائعة حقاً . وهي تؤكد أن قصة رامي وأم كلثوم هي قصة غنية مليئة بالمواقف المؤثرة التي تكشف عن الكثير من حقائق النفس الإنسانية ، وحقائق الحب الكبير الذي يملأ بعض النفوس فيجعلها تنسى كل شيء إلا الحب نفسه، وفي الرواية بفصولها المختلفة ما يقنعنا بأن الزواج بين رامي وأم كلثوم كان أمراً مستحيلاً ، فقد خلقه الله ليحب ، وخلقها لتكون محبوبة ، ولكي تغني لكل المحبين في الأرض ، وسوف تبقى قصة « رامي وأم كلثوم » مصدراً لكثير من الفنون الجميلة وسوف تزداد مع الأيام روعة وأصالة ، وسوف يفهمها الناس بصورة أعمق وأصدق كلما مرت عليها الأيام . وفي الفصل القادم نتوقف مع رواية « كان صرحاً من خيال » لنعرف كيف تصورت هذه الرواية علاقة رامي بأم كلثوم؟!

♫ ♫ ♫

الحب الأفلاطوني ممكن

الرواية التي أشرنا إليها في الفصل السابق وهـي رواية تحـت عنـوان « كـان صرحاً من الخيال » هي رواية كتبها بالفرنسية سـنة ١٩٩٤ كـاتب هـو « سـليم تركية » وترجمها إلي العربية سنة ١٩٩٩ الأستاذ « بسام حجـار » ونشرتها دار « المسار » في بيروت . وأنا لا أعرف شيئاً عـن مؤلـف الروايـة، ولم أقـرأ لـه أي عمل أدبي من قبل ، ولكن هذه الرواية تكشف عـن موهبـة أدبيـة جميلـة وعذبـة وهي من الروايات التي يمكن أن نسميها باسم « الرواية التسجيلية » أي الروايـة التي تعتمد علي أحداث حقيقية وشخصيات عاشت في الواقع وليسـت خياليـة ، وبطل الرواية هو الشاعر « أحمد رامي » أما البطلة فهي « أم كلثـوم » ولاشـك أن مؤلف الرواية قد جمع مادة علمية غزيرة ، وبذل في سبيل ذلك جهداً كبيراً ، ولم يترك مرجعاً إلا وعاد إليه ، سواء أكان هذا المرجع كتاباً أو صحيفة أو شخصاً من الأشخاص عاصر الأحداث وعرض عنها بعض التفـاصيل عـن قـرب . ثـم قـام الكاتب بعد ذلك بتقديم روايته التسجيلية في أسلوب عذب وبـالغ الرقـة ، ولكـن العذوبة والرقة اللتين تفيض بهما الرواية في كل صفحاتها التي تبلغ ٣٢٤ صفحـة قد استمدت جمالها من أنها تروي كل الأحداث في جو عاطفي ، فالروايـة قائمـة علي أساس فكرة رئيسية هي أنه كانت هناك عاطفة حب قوية وثابتة تربـط بـين أحمد رامي وأم كلثوم ، وأن الحب قـد استمر قائماً في القلبـين الكبـيرين ، منـذ التقى رامي لأول مرة مع أم كلثوم سنة ١٩٢٤ ، وحتى رحيل أم كلثـوم في فـبراير سنة ١٩٧٥ . الرواية كلها مكتوبة علـي شـكل « مذكـرات .. كتبـهـا .. رامـي » يسجل فيها تفاصيل علاقته وعن تفاصيل أخـرى دقيقـة حـول مشـاعره وعواطفـه

العاشقة لأم كلثوم ، ويقول المؤلف في آخر سطور روايته : « توفي الشاعر أحمد رامي عام ١٩٨١ وكان قد نظم ١٣٧ أغنية من أصل ٢٨٣ أنشدتها أم كلثوم خلال حياتها الفنية . وقد استوحيت فصول هذا الكتاب من قصة أحمد رامي ، غير أن المذكرات التي تشتمل عليها الفصول هي مجرد خيال » . وهذه العبارات تدل علي أمانة مؤلف رواية « كان صرحاً من خيال » والتي يحب المؤلف أن يسميها باسم « الكتاب » ولا يحب أن يطلق عليها اسم « الرواية » ولعل ذلك يعود إلي حرص الكاتب علي أن يؤكد أنه يكتب عن « شيء واقعي » و « أشخاص حقيقيين » وقصة عاطفية كبيرة لا شك في صدقها وقيمتها وما تركته من آثار في نفوس أصحابها ، وما تركته من آثار أخرى في الحياة العربية في القرن العشرين ، فلاشك أن حب رامي لأم كلثوم هو من أقوى قصص الحب التي عرفها التاريخ العربي منذ ظهرت في هذا التاريخ كلمة « حب » ولعل هذه القصة تكون أقوى وأجمل قصة عربية في القرن العشرين ، وقيمة هذه القصة أنها « حب » فقط ، أي أنها كانت منذ البداية حتى النهاية تدور علي ساحة العاطفة الحقيقية العميقة ، وأنها كانت بعيدة عن أي نوع من أنواع العلاقة بالجسد ، وقد يكون هذا النوع من الحب غريباً علي القرن العشرين وما بعد القرن العشرين ، حيث يبدو أن ما كان العرب يسمونه باسم « الحب العذري » وما يسميه الغربيون باسم « الأفلاطوني » لم يعد لهما وجود ، ففي عصرنا العملي الواقعي أصبح الحب بالجسد أيضاً ، وغير ذلك يبدو غريباً علي عصرنا وبعيداً عن نزعته العملية الواقعية التي تعتبر العواطف الخالصة من أي علاقات جسدية أمراً بالغ الغرابة والشذوذ ، وهذا الموقف العصري من « الحب » قد يبدو منطقياً بالنسبة للعقلية السائدة في القرن العشرين وما بعده ، ولكنه موقف خاطئ من الناحية الإنسانية الخالصة ، فالقلب الإنساني يمكنه أن يحب حباً حقيقياً عميقاً يملأ النفس بالسعادة ، ويوفر لها نشوة روحانية عالية ، دون أن يرتبط ذلك برغبات الجسد. وهذا الحب مادام حباً طبيعياً فإنه لا يلغي تلك الرغبات ولكنه فقط يقوم بما

يسمى في علم النفس باسم « التصعيد » ، أي أن هذا الحب يرتفع بالرغبات الحسية ويعلو ويقوم بتحويلها إلي موسيقى هادئة تعزف في روح الإنسان عزفاً رائعاً ومستمراً . فالحب الذي يعلو علي رغبات الجسد ممكن ، بل لقد أثبتت تجارب الحياة الروحية للإنسان أن مثل هذا الحب عمره أطول بكثير ، ومذاقه الروحي أحلى وأعذب . ومن أعجب حقائق الإنسانية المعروفة وإن كان الكثيرين يتجاهلونها وأحياناً يسخرون منها .. أقول إن من هذه الحقائق العجيبة أن « الحرمان » من بعض الأشياء مفيد لصحة الإنسان ونفسيته ، فالنباتيون الذين يحرمون أنفسهم من أكل اللحوم أطول عمراً وأكثر عافية وصحة من الذين يأكلون، وكلما كان الطعام بسيطاً وقليلاً وأقرب إلي العناصر الطبيعية التي تنبتها الأرض ، كلما كان ذلك أنفع للإنسان وأكثر عوناً علي تحقيق شفافية روحه ونضارة وجهه وجسمه ، والأمر نفسه يتحقق للإنسان إذا سيطر علي غرائزه الأخرى وتحكم فيها وعاملها بدون إفراط أو إغراق . فالقادرون علي ذلك هم الذين يعرفون بوضوح تام أن العقل الإنساني يعمل بنشاط ، وأن النفس تتخلص من أي تعكير يصيبها ، وأن التفاؤل النشيط يمكن أن يكون هو اللون الأساسي الذي يسيطر علي نظرتهم للحياة والناس فيبدد من أمامهم ظلمات اليأس والتشاؤم والشك . كل ذلك يتحقق بالتخفف من الطعام والتحكم العاقل في رغبات الجسد فذلك كله يحقق لأصحابه عمراً أطول ، وعافية أقوى ، ونفساً أكثر شفافية وأقل اهتماماً بصغائر الحياة .

ولا أظن أن تاريخ الإنسان يعرف نبياً أو عبقرياً أو فناناً كبيراً مبدعاً أو زعيماً يعمل من أجل الخير العام بإخلاص وأمانة .. أقول لا أظن أن التاريخ يعرف من هؤلاء جميعاً من كان شرهاً في طعامه ، أو كان من الماجنين الغارقين في شهوات الجسد ورغباته ، بل لقد كان هؤلاء جميعاً من الذين يتحكمون تحكماً شديداً في رغباتهم وعلاقاتهم بمظاهر الحياة المادية . ولذلك تحققت الشفافية التي ساعدتهم علي أن يصلوا إلي الدرجات العليا في التفكير والشعور والنشاط والحيوية ،

واستطاعوا أن يكونوا من أصحاب النفوس المتفائلة إذ أنه بدون التفاؤل الداخلي لا يستطيع الإنسان أن يخدم دعوة يؤمن بها، أو يبدع فناً جميلاً ، أو يحس بأي معني من معاني الجمال في الحياة.

هذا استطراد كان لابد منه ، ودفاع كان ضرورياً للتأكيد علي إمكانية وجود « حب كبير» لا يتحقق له ما يتحقق للحب العادي من رغبات الجسد ، فالحرمان مع الحب الكبير يزيد روعة الحب وجماله ، ويصعد به إلي درجات عالية ولا يهبط به لأسفل . وهذا الحب الكبير هو الذي ربط بين «رامي » و « أم كلثوم»، فقد كان الزواج بين هذين الحبيبين مستحيلاً كما أشرت في الفصل الماضي ، ولو أنهما تزوجا ، لفقد كل منهما غذاء قلبه المشتعل بذلك الحب الرائع القائم علي الحرمان ، وقيمة هذا الحرمان أنه كان حرماناً اختيارياً ، ولم يكن أبداً نتيجة إجبار من جانب أحد ،والاختيار هنا يقوم علي أن رامي ـ قاصداً أو غير قاصد ـ كان يريد أن يكون محروماً من حبيبته مشتاقاً إليها ، مترجماً مشاعر حنانه ولهفته إلى قصائد حب ، كان لا يمكنه أن يكتب شيئًا منها لو أن حرمانه من حبيبته انتهي وأصبحت حبيبته زوجة له ، فالزواج يحول الحب إلى حالة شخصية خاصة لا تهم غير الطرفين المشتركين فيها وهي الزوج والزوجة ،ولا يمكن أن يكون حب الزوجين مصدراً لشعر عاطفي يظل الشاعر يكتبه من قلبه ليقدمه إلى الناس، فمثل هذا الشعر الذي يكتبه شاعر عن زوجته لا يمكن إلا أن يكون نوعاً من « التعري » أمام الناس وكشف ما هو شخصي وخاص للعيون الغريبة ، وهو ما لا يمكن أن يفعله فنان حقيقي ، أو إنسان طبيعي يحافظ على الدائرة الشخصية التي تخصه وتعنيه وحده ، ولا تخص أحداً سواه هو وزوجته ، حتى لو كانت العلاقة بين الزوجين في قمة « الاشتعال العاطفي ».

أما في حالة رامي وأم كلثوم ، فقد أحبا بعضهما البعض ولكنهما فرضا على نفسيهما الحرمان ، لأنهما كان حريصين ـ ربما دون أن يعرفا ذلك معرفة واضحة

ودقيقة ـ أن يبقى هذا الحرمان هـو طفلـهما العزيـز المدلـل ، وأن أي محاولـة إلي تحويل العلاقة إلي علاقة زوجية روتينية معناها الحكم بالإعدام علي ذلك الطفل المدلل الجميل وهو « الحرمان » فبفضل هـذا الطفـل الرائـع كتـب رامـي قصـائد الحب التي كانت غذاء روحياً للملايين من أصحـاب القلـوب العاشـقة ، وبفضـل هذا الطفل الرائع غنت أم كلثوم من قلبها ، يغذيها ويدفـع بـها إلي القمـة موهبـة إلهية في صوتها ، وحرمان حقيقي ملتهب في قلبها كان يمكن أن ينطفئ تماماً لـو إنها أصبحت « مدام رامي » أو « السيدة حرم الشاعر أحمد رامي » . ففي ذلك نزول من سماء العواطف الكبرى وعواصف الحب المشتعل إلي أرض الواقع المحدود والشخصي والمحافظ علي أسرار الحياة الخاصة .

لم يكن رامي يستطيع أن يكتب قصيدة من قصائد حبه لأم كلثوم لو أنه تـزوج أم كلثوم ، ولم تكن أم كلثوم تستطيع أن تغني كل هذه القصائد العاطفية الصادقة العذبة لو أنها كانت مجرد « حرم الشاعر احمد رامي » .

كان رامي وأم كلثـوم محكومـاً عليـهما بالحرمـان الجميـل والقاسـي في الوقـت نفسه. ولاشك أن تضحية أم كلثوم كانت أكـبر مـن تضحيـة رامـي . ذلـك لأن أم كلثوم تركت طبيعتها الأنثوية التي تحلم بالأمومة كغريـزة أساسية في داخـل كـل امرأة ، وفعلت ذلك باختيارها ولم تكن مرغمة عليه ، ذلـك لأنـها مسـكونة بقـوة أخرى رهيبة ، تدفعها مثل « الصاروخ » إلي الفضاء الخارجي للأنوثة العادية فلم تعد تعبأ بشيء إلا بأن تكون وتراً عازفاً يعبر عن كل العاشقين الحقيقيين في هـذه الدنيا . والحب والعشق مثل الخبز والملح همـا مـن ضـرورات الحيـاة ، وبدونـهما تبدو الحياة بدون معنى .

وهناك ملاحظة أخرى حول شخصية رامي ، هي أنه كـان محبـاً وعاشـقاً مـن طراز رفيع ، ففي العادة عندما يعجز المحب لسبب أو لأخـر عـن تحقيـق هـدف حبه وهو الارتباط الكامل بمـن يحـب ، فـان الحـب هنـا ينقلـب إلي كـره وحقـد

ونقمة، ولكن رامي انتصر بقوة روحه وصفاء نفسه علي كل المشاعر السلبية التي تولد عن الحب غير الناجح في تحقيق هدفه في الارتباط الكامل فحافظ رامي علي صفاء حبه ونقائه ، وهذا دليل قوي علي أن رامي كان شخصية معجونة من الخير والمشاعر النبيلة ، وأن تكوينه النفسي كان تكويناً اقرب إلي تكوين المتصوفين الذين صفت نفوسهم ورقت مشاعرهم وأصبحوا غير قابلين لاختراق المشاعر الحاقدة السيئة القائمة علي الانتقام ، فنفوسهم لديها « مناعة قوية » ضد جراثيم المشاعر المدمرة والمنحطة . فقد بقى رامي من البداية إلي النهاية يعيش في علياء حبه السامي لأم كلثوم ، ولم يشعر يوماً بالحقد عليها لأنها لم تقدم إليه مقابلاً لحبه لها ، غير غنائها لقصائده من قلبها وسيطرتها علي نفوس الناس بهذه القصائد العاطفية التي كانت تغنيها بكيانها كله ، وكان هذا فيه الكفاية لرامي وفيه ما فوق الكفاية ، فالحب الحقيقي لا يطلب شيئاً في المقابل ، وقد كان رامي من المحبين الحقيقيين وفرسان الحب النبلاء.

ونعود إلي رواية « كان صرحاً من خيال » التي كتبها بالفرنسية علي لسان رامي الكاتب « سليم تركية » وترجمها إلي العربية الأستاذ « بسام حجار » . فهذه الرواية العذبة تحكي قصة قلب رامي ، وقصة حبه لأم كلثوم ، ولا تكتفي بسرد الوقائع بل تهتم اهتماماً كبيراً بالمشاعر الرقيقة ، بما فيها من دفء وحنان وشجن وحزن صامت في كثير من الأحيان . وسوف أقدم هنا مشهداً واحداً من مشاهد هذه الرواية الجميلة ، وفي هذا المشهد صورة حية من أسلوب كاتب الرواية، ومن تصوره للعلاقة العاطفية العميقة والشفافية العجيبة والتي ربطت بين القلبين .. قلب أم كلثوم وقلب رامي . وهذا المشهد يأتي لي على لسان رامي مثل بقية مشاهد الرواية ويبدأ المشهد بأن تقول أم كلثوم لرامي : « لقد عرضوا علي دوراً في فيلم سينمائي » ويقول رامي رداً علي ذلك : « سمعت ما قالته بكل

الحياد الذي أمكنني أن أتظاهر به وقلت لها: أي دور ؟!! » ثم يستمر المشهد الروائي الواقعي الشاعري معاً :

« كأنها انتظرت جوابي هذا بلهفة كبيرة . فهرعت إلي حجرتها وجاءت بملف أزرق . كان الملف يضم تلخيصاً لسيناريو الفيلم المعروض عليها . قصة لائقة، جيدة . وكانت أم كلثوم كأنها تطلب مني إذناً لأدائه . تدور أحداث القصة في عهد المماليك ، حيث الفتاة « وداد » محظية أحد الأسياد ، وهو عاشق لها وهي تحبه ، قلبه طاهر ، وهي تغني له . ولشدة شغفه بها يجعل ثروته في خدمتها . وعندما ينفق كل ما يملك ولا يبقى له شيء من ثروته يرفض أن يبيع « وداد » التي لم يعد يملك غيرها ، فهي « جارية » ويمكن بيعها في سوق الرقيق . أما هي ، فلما عرفت بأحوال سيدها ، فتصر علي أن تباع . وحين يتم عرضها في سوق الرقيق يشتريها شيخ عجوز لإعجابه بجمال صوتها قبل إعجابه بجمال جسمها . ويدرك الرجل الذي اشتراها مقدار حزنها علي فراق سيدها الأول ، فيقرر أن يتنازل ويعيدها إلي حبيبها.

قال رامي :

- إن فهمت جيداً ، فأن وداد هذه تدمر حياة الرجال بكل براءة .

قالت أم كلثوم :

- أجل .

قال رامي :

- وهل يحل الصوت الجميل محل الجنس .

قالت أم كلثوم :

- ولم لا ؟

قال :

- إذن .. هذا هو المطلوب .. أن تكون وداد امـرأة تحطـم قلـوب الرجـال بجمـال صوتها قبل جمال جسمها.

قالت أم كلثوم :

- هل توافق علي كتابة السيناريو والحوار ؟

قال رامي :

- لن أعجز عن مثل هذا الأمر..

ثم يواصل مؤلف الرواية سرد المشهد علي لسان رامي .

« أقبلت علي العمل ، فاستغرق كل أوقاتي . في الظاهر كنـت أتـابع ملخـص السيناريو بأمانة .

« وداد » الفتاة العفيفة والمحبة ، تبـذل نفسـها مغمضـة العينـين .. وخـلال إغماضة عينيها تسبب الكوارث للرجال .. كتبت عن إرادة الامتـلاك لديـها رغـم أنها جارية مملوكة للغير ، كتبت عن شذوذها وطغيانها.

والشذوذ هنا معناه أنها ـ رغم أنها جارية مملوكة ـ تتصرف كأنها هي السـيدة الحرة وهي المالكة للآخرين . باختصار كتبت الفكرة كما أريد ، علي طريقتي ».

ثم يستمر المشهد علي لسان رامي :

« حول طاولة مستديرة ، كان المنتجون يدققون في النص صفحة بعـد الأخـرى أمر واحد كان يستوقفهم هو : أن السيناريو يخلو من وجود « قُبلة » واحدة .

وهذه القبلة ضرورية . وعندما يسجل المنتجون هذه الملاحظة تقول أم كلثـوم : يحتضني شريكي في تمثيل الفيلم بين ذراعيه ويضمني إلي صدره .. هذا أقصى مـا

أستطيع .. يقول أحد المنتجين : الفيلم بدون قبلة ليس فيلماً .. تقول أم كلثوم حول حوض الماء أغني ، فيجلس بطل الفيلم ورائي ، فألتصق به ، هذا كل شيء، ولن تكون هناك قبلة .. يقول المنتج : بدون «قبلة » يعني ليس فيلماً ، تقول أم كلثوم : أقترح أن يدني شفتيه من شفتي ثم يتم قطع المشهد قبل أن تتلامس الشفتان .. وهذا كل ما أستطيع أن أفعله»..

« وافق المنتجون وانتقلوا إلي مشهد راقصات « هز البطن » ، وتم التوصل إلى تسوية بهذا الشأن ، إذ ينبغي أن يتم ستر بطون الراقصات حين تظهر «أم كلثوم» في المشهد ، وبإمكانهن أن يتعرين من ستورهن حين تختفي أم كلثوم من المشهد ، واستمرت المفاوضات علي هذا المنوال ، خطوة خطوة ، وطيلة أربع ساعات ، وفي الختام أصرت أم كلثوم أن تلحق في تفاصيل العقد الرسمي نصاً يقول : « احترام التقاليد الشرقية » .

أما بنود العقد الأخرى فتنص على أن يكون لها ٤٠٪ من أرباح الفيلم ، وأن تتقاضى مقدماً خمسة آلاف جنيه ، وأن يكون لها حق « الاعتراض » على بطل الفيلم وبقية الممثلين والموسيقى وكلمات الأغاني » .

ثم يقول بقية المشهد الروائي على لسان رامي أيضاً :

« ثم عرض فيلم « وداد » وعاد عليها بأموال طائلة ..

وكانت تلك هي المرة التي تكسب فيها أم كلثوم هذه المبالغ من المال . وذات يوم اصطحبتني أم كلثوم في نزهة علي ضفاف النيل ، دون أن تنطق بكلمة ، حتى بلغنا جزيرة « الزمالك » وتوقفت أمام قطعة أرض بور في شارع « أبو الفدا» .. قالت لي : « هذه أرضي . لقد اشتريتها منذ أيام قليلة »

« ثم خلعت أم كلثوم نعليها وخاضت حافية فوق التراب ، وكنت أراقب مشيتها ، كانت بقدميها الحافيتين تستعيد ذكرى قديمة مليئة بالبهجة والغبطة

لأيامها الأولى في القرية . وتغيرت أم كلثوم . في كل صباح كانت تذهب بحجة مراقبة العمل عن قرب ، كانت تلمس التراب بيديها وترفع راحتيها بكمية منه وتشمه . كانت تتجول بين عمال البناء وتحشر أنفها في أدق التفاصيل . لقد عاشت نحو عشر سنوات في شقة في الطابق الرابع من إحدى العمارات ، وهاهي تعيد صلتها بالشيء الوحيد الذي له قيمة عند الفلاحين وهو : الأرض أو التراب، وكانت بذلك كأنها تستعيد جذورها المفقودة »

كنت قد نسيت تقريباً أخاها الشيخ خالد ، لكنه ظهر مجدداً ، حاملاً تصاميم البناء . ترك العمامة والجبة وارتدى البدلة ورابطة العنق ، فقد أصبح تمويل مشروع « الفيللا » الجديدة في يده ، غير أن قرشاً واحداً لا يتم صرفه دون موافقة أم كلثوم . أما سعدية « سكرتيرة الست » فكانت الأشد حماية لمثل هذا المشروع. وكانت تتبع « الست » كظلها وتردد أوامرها ، وتوبخ عمال البناء وتندهش وتقول: « بسم الله الرحمن الرحيم » عند الحاجة لاتقاء « الحسد » و «العين». وكان القصبجي يسخر من سعدية ويقول لها إن « الأرض ليست سوى ملك لله وينبغي التنبه للعفاريت المقيمة في الأساسات » وعندما تسمع سعدية كلام « القصبجي » تتركه وتنصرف عنه . أصبح العمل في « فيللا » شارع أبو الفدا قائمًا بصورة نشيطة ومستمرة . وأقامت فلاحتي أم كلثوم ركناً علي أطرافه ، كنا نجتمع فيه كل ليلة . القصبجي والشيخ زكريا أحمد وعازفون آخرون يحضرون معهم آلاتهم الموسيقية ، ومن بينهم أيضًا الملحن الجديد الشاب « رياض السنباطي » وكان قد لحن إحدى قصائد فيلم وداد وهي « علي بلد المحبوب وديني » وقد لقيت هذه الأغنية نجاحاً مذهلاً . كان السنباطي رجلاً شديد التحفظ ، أنيق المظهر . بدأ حياته الموسيقية بتلحين الأدعية الدينية ، وهاهو يصبح مدعوا للحضور معنا كل ليلة في سهرتنا التي نقيمها في ركن من أركان «الفيللا» التي تبنيها أم كلثوم الآن . كنا نسهر هناك بعد رحيل عمال

البناء لسماع الموسيقى ، وعندما يتقدم الليل كانت أم كلثوم تغني تحت السماء المكشوفة وفي أضواء قليلة خافنه ، ويمر علينا الليل سريعا بفضل صوتها الساحر.. كانت تبني بيتها أخيراً وكانت في الرابعة والثلاثين.

أخيراً انتهى تشييد « الفيللا » أبيض سكري وأزرق . صالتا استقبال في الطابق الأرضي ، وثماني غرف في الطابق العلوي وشرفة مطلة علي النيل. وحديقة نسيمه الأرجاء محاطة بسور كبير . زرناها سوياً ، هي وأنا غرفة غرفة . وكانت رائحة الطلاء والغراء لا تزال تفوح من كل مكان . كانت تتقدمني ربما لكي تقنع نفسها بأن ما نراه هو بيتها حقاً ، وما أن أوشكنا علي مغادرة الفيللا حتى لامست كتفي وقالت لي : « ليلة الافتتاح أريد أن تكون عند المدخل . معنا أنا وخالد لاستقبال الضيوف ».

« طلبت مني ذلك علي عجل دون أن يتورد خداها . وواصلت حديثها : لقد بنيت بيتي ، وأريد أن تكون هنا .. فقط أن تكون هنا ، بجانبي . وفجأة شعرت أنا بالمرارة ، بل كدت أسقط مريضاً . وأحست هي بكل شيء . فوضعت يدها علي فمي حتى لا أنطق بشيء ، فقد كانت هي تفهم وتحس بكل شيء ».

« وجاء يوم الافتتاح . الفيلا مضاءة ، ومهيأة للاستقبال . كنت أصافح الأيدي التي تمتد لمصافحتي . أدباء، صحفيون ، ملحنون ، سينمائيون ، رجال سياسة، شعراء . وكانت كل العيون تحاول أن تخفي دهشتها لرؤيتي هناك الجميع : منيرة المهدية التي أنهت للتو من تصوير فيلمها « الغندورة » ، والملحن العجوز داود حسني وبرفقته اكتشافه الجديد أسمهان ومعهم القصبجي والشيخ زكريا ، وحتى محمد عبد الوهاب . « سعدية » سكرتيرة أم كلثوم تمارس سلطتها في المطبخ ، و « جرسونات » في قمصان بيضاء يقدمون للمدعوين أكواب عصير الفاكهة . اختلط الضيوف مع بعضهم البعض : أصحاب شركات أسطوانات ، مديرين للبرامج الإذاعية وصحفيون .. منذ أشهر طويلة ، حرصت

الصحافة علي اجتناب أي خـبر فيـه تشـهير بـي . فقـد بسـطت كوكـب الشـرق مظلتها الواقية فوق رأسي ، وأصبحت في حمايتها . أشخاص كـانوا يتجـاهلونني منذ أيام أصبحوا الآن يمدون أيديهم لمصافحتي. وكنت أتقبـل هـذا كلـه بابتسـامه متواضعة ، ولكن في أعماقي ، كنت أود أن أبصق عليهم هـم الذيـن طالمـا سـخروا من حبي لها ، ما كانوا يشعرون به ، كنت أشعر أنا به أيضاً . ففـي هـذه الليلـة كانت تعاملني كأنني سيد الدار ».

هذه لوحة جميلة من لوحات هذه الرواية العذبة « كـان صرحـاً مـن خيـال » والتي قام فيها مؤلفها « سليم تركية » بكتابـة قصـة أم كلثـوم مـن البدايـة علـي لسان حبيبها « الأفلاطوني » الذي أخلص لها إخلاصاً عاطفياً غير محـدود وهـو احمد رامي، ولاشك أن هذه الرواية هي عمل فريد بين كل الأعمال المكتوبة عن أم كلثوم، لما تتميز به من شاعرية جميلة تسجل أحداث حياة أم كلثـوم الواقعيـة في جو وجداني بالغ الشفافية والعذوبة ..

♫ ♫ ♫

بين أم كلثوم ومصطفى أمين

في التحقيق الصحفي المتاز ، الذي نشرته جريدة « الأهرام » في ملحقها الصادر يوم الجمعة ٢٨ يناير سنة ٢٠٠٠ تحت عنوان : « نغم مصر الجميل» طالعتنا أحاديث متعددة حول شخصية أم كلثوم فنانة مصر الأولى وسيدة الغناء العربي الراقي في القرن العشرين ، وقد توقفت في هذا التحقيق الصحفى المتاز أمام عبارة وردت علي لسان الأستاذ « سمير خالد إبراهيم » ابن الشيخ خالد شقيق أم كلثوم ، حيث قال : « لقد نشأت مع أم كلثوم - عمتي - في بيتها بالزمالك ، واذكر أن والدي وافق علي زواجها من أحد كبار الصحفيين ، وقد تزوجته لمدة عشر سنوات » علي أن الأستاذ سمير خالد لم يذكر اسم الصحفي الكبير ، الذي يقول أن أم كلثوم قد تزوجته لمدة عشر سنوات ، فمن هو هذا الصحفي ؟ ولماذا بقي هذا الزواج في طي الكتمان حتى الآن دون أن يشير إليه أحد، رغم أنه كان زواجاً شرعياً ، ولم يكن فيه ما يسيء إلي أم كلثوم من قريب أو بعيد ؟! لقد أعاد كلام الأستاذ سمير خالد إلي ذكرياتي قصة سمعتها من مسئول كبير سابق لم يأذن لي بذكر اسمه، ولم يفصح لي عن الظروف التي ساعدته علي معرفة حقيقة زواج أم كلثوم من الصحفي الكبير ، ومع ذلك فأنا لا أجد الآن ما يمنعني من رواية القصة نفسها ، كما سمعتها من ذلك المسئول الذي أثق بصدقه وأمانته ، ولعلي قبل أن أروي القصة نفسها أجدني مضطراً للوقوف أمام سؤال يخطر علي البال هو : هل من حق أحد أن يتناول الأسرار الخاصة لشخصية مهمة مثل أم كلثوم تعيش في قلوبنا جميعاً ونعتبرها مثلاً أعلى في الفن والأخلاق والوطنية ، ونرى فيها نموذجاً إنسانياً نقياً ، لم يصبه أي خدش يمس جماله وعبقريته ؟ هل من حقنا أن نفعل ذلك أو أننا لو فعلناه نكون قد تجاوزنا الحدود المقبولة وطنياً وأخلاقياً بالنسبة للشخصيات العامة ؟ .

إن الإجابة علي هذا السؤال الدقيق ليست سهلة ولا ميسورة ، ومع ذلك فأنا أرى ،ـ وقد أكون مخطئاً ـ أن الشخصية العامة تصبح ملكاً للتاريخ فمن حقنا أن نسعى لمعرفة كل ما يتصل بها ، خاصة إذا كان من الواضح أن ما كان يمكن اعتباره من الأسرار الخاصة في حياة الشخصية العامة لم يعد من الضروري أن يبقى سراً بعد انتهاء كل الظروف والاعتبارات التي فرضت الإبقاء علي هذا السر في طي الكتمان ، ويضاف إلي ذلك أن مثل هذه الأسرار يمكن أن تساعد على تفسير بعض الجوانب فى حياة الشخصية العامة، كما يمكن أن تساعد على تفسير بعض الأحداث التاريخية التي أحاطت بهذه الشخصية العامة .

وأعود إلي القصة التي سمعتها من المسئول الكبير السابق ، حيث روى لي أنه في إحدى المناسبات التي لم يشأ هذا المسئول أن يحددها وقعت في يده الأوراق الخاصة بالكاتب الصحفي الكبير مصطفى أمين ـ ١٩١٤ – ١٩٩٧ ـ ووجد المسئول بين هذه الأوراق عقد « زواج رسمي » وليس «عرفياً » بين مصطفى أمين وأم كلثوم، كما وجد مجموعة من رسائل أم كلثوم إلي مصطفى أمين تخاطبه فيها بقولها : « زوجي العزيز » وكان وقوع هذه الأوراق في يد المسئول الكبير السابق، وهو من عشاق أم كلثوم سنة ١٩٦٠ ، ويواصل المسئول الكبير روايته فيقول : « إنني حملت هذه الأوراق علي الفور وقدمتها ، كما هي إلي الزعيم الراحل جمال عبد الناصر وأن عبد الناصر أمسك بها ونظر إليها وابتسم دون أن يعلق بشيء ثم وضعها في جيبه ، ومن يومها لم تظهر هذه الأوراق علي الإطلاق ، ولم يطلع عليها أحد » ، ثم يقول المسئول الكبير : « ولا أدري ماذا فعل بها عبد الناصر وأغلب الظن أن عبد الناصر قد أخفاها تماماً ولم يتحدث فيها إلي أم كلثوم ولا إلي غيرها ، واعتبرها شأناً خاصاً لا يجوز لأحد أن يتدخل فيه » .

ثم علق المسئول الكبير السابق علي هذه القصة بقوله : « إن عبد الناصر كان يحب أم كلثوم ويحترمها ويعتبرها قيمة وطنية عالية ، ولم يكن يتهاون في الدفاع عنها وتكريمها وحمايتها من أي محاولة للإساءة إلي مكانتها او المساس

بمشاعرها، ولذلك ـ كما قال المسئول الكبير ـ فإن عبد الناصر يمكن أن يكون طوى هذا الموضوع نهائياً من تفكيره ولم يسمح بتسريبه إلي أحد ، مادامت أم كلثوم نفسها كانت لا تحب الإعلان عنه ، ولعل هذه الأوراق الخاصة قد أعيدت إلي صاحبها أي إلي الزوج وهو مصطفي أمين ، وذلك بعد وصولها إلي عبد الناصر . وذلك هو التصرف السليم اللائق .. هذه هي الرواية التي سمعتها منذ أكثر من ثلاثين سنة ، وأعادها إلي ذاكرتي مسلسل « أم كلثوم » الرائع ، ثم ما أشار إليه ابن شقيقها « سمير خالد » في حديثه مع ملحق الأهرام الصادر في ٨ يناير سنة ٢٠٠٠ ، مما يؤكد أن الزواج بين أم كلثوم ومصطفى أمين كان حقيقة ولم يكن إشاعة كاذبة .

فما الذي جمع بين أم كلثوم ومصطفى أمين ؟ .

كان مصطفى أمين أصغر من أم كلثوم بحوالي ١٦ عاماً ، فهو كما سبقت الإشارة من مواليد سنة ١٩١٤ وأم كلثوم من مواليد ١٨٩٨ وربما كان هذا الفارق في العمر من بين الأسباب الرئيسية في ميل أم كلثوم إلي إخفاء هذا الزواج وعدم الإعلان عنه ، وقد كانت أم كلثوم عندما تعرفت لأول مرة علي مصطفى أمين في منتصف الثلاثينات تقريباً في بدايات مجدها الفني العظيم ، ولكنها مع ذلك كانت تتعرض لحروب مختلفة من الوسط الفني ومن خارجه ، وهي في الأصل فتاة قروية فلاحة وفدت إلي مدينة القاهرة دون أن تكون علي معرفة وثيقة بالأجواء الصاخبة لهذه المدينة والتيارات العنيفة المتصارعة فيها ، وكانت أم كلثوم بحاجة إلي من يقف إلي جانبها ويساعدها علي مواجهة المعارك الصعبة التي تدور حولها، وكان أقوى ما يساعد أم كلثوم علي مواجهة الحياة بعد موهبتها العالية هو ذكاؤها الحاد ، وقدرتها النادرة علي فهم الناس واستعدادها الكبير لاكتساب المعرفة والثقافة ، وقد أتيح لي أن ألتقي بها وأتعرف عليها سنة ١٩٦٦ وسافرت معها في رحلتين من رحلاتها الفنية المشهورة التي كانت تقوم بها من أجل المجهود الحربي بعد سنة ١٩٦٧ ، وكانت الرحلة الأولى إلي السودان سنة ١٩٦٨ وسافرت

وكانت الرحلة الثانية سنة ١٩٦٩ إلي ليبيا .. وعندما اقتربت منها شعرت بما كنت أسمعه عنها من قوة الشخصية واتساع الثقافة والمعرفة ، فهذه السيدة التي لم تدخل مدرسة ولا جامعة ، ولم تتعلم سوى فترة قصيرة في كُتّاب قريتها وهي طفلة ، كانت تعطيك إحساساً قوياً بأنها تخرجت في أعظم جامعات الدنيا ، وأنها تتفوق علي الذين يحملون الدكتوراه من هذه الجامعات العالمية ، ذلك لأن أم كلثوم لم تعتمد علي موهبتها فقط ، ولكنها بذلت جهداً كبيراً ومستمراً في تنمية ثقافتها ، وتوسيع معرفتها بشئون الحياة حتى وصلت إلي ما وصلت إليه من ثقافة عالية رفيعة ، وما حققته أم كلثوم لنفسها لم يكن غريباً علي عصرها ، فروح هذا العصر كله كانت قائمة علي الإرداة القوية والطموح النادر ، فقد نشأت أم كلثوم في عصر « العقاد وطه حسين وعبد الوهاب » وغيرهم من العباقرة المعاصرين لها، وعندما نقرأ قصص حياة هذه الشخصيات جميعاً نجد أنها كلها قصص كفاح شاق ارتفع بأصحابها إلي القمة الاجتماعية ، برغم أنهم نشأوا في ظروف صعبة يحيط بها الفقر وضعف الإمكانيات في كل جوانب الحياة ، ولكنه كان كما قلت عصر «الإرادات القوية » التي استطاعت أن تقهر الصعوبات العسيرة ، وتنتصر عليها.. وقصة نجاح أم كلثوم من بين هذه القصص العظيمة التي كان للإرادة القوية فيها دور البطولة .

إلا أن أم كلثوم كانت امرأة في مجتمع محافظ ، لم يكن من السهل فيه أن تشق المرأة طريقها في الحياة ، وهي وحيدة بلا عون ولا مساندة ، وقد تغيرت الدنيا الآن ، وأصبحت المرأة تجد طريقها إلي التعليم والعمل ، وتجد الاحترام والمساندة وتستطيع أن تصل إذا أرادت ، واجتهدت إلي المكانة التي يحققها الرجال ، ولكن عصر أم كلثوم وبالتحديد في النصف الأول من القرن العشرين، لم يكن علي هذا القدر من التفتح في النظر إلي المرأة ، وخاصة إذا كانت هذه المرأة فنانة مثل أم كلثوم .. فقد كان علي أم كلثوم أن تبذل جهداً خارقاً لكي تكون ـ كما حدث بالفعل ـ شخصية يحترمها الجميع وقد حققت أم كلثوم أكثر من ذلك

ففرضت علي الجميع احترام الفن نفسه ، وجعلت من الفن عملاً راقياً يُنظر إليه باحترام عظيم ، ويضعه بين الأعمال المؤثرة في المجتمع ، بعد أن كان الفن بصورة عامة يبدو في درجة ثانوية من احترام المجتمع وتقديره.

ولاشك أن أم كلثوم في رحلتها الطويلة الشاقة كانت بحاجة إلي من يقف إلي جانبها ويساندها ويساعدها على مواجهة أي مصاعب تعترض حياتها ، وفي هذه الظروف التقت بمصطفى أمين ، فوجدت فيه شخصية قوية وقادرة علي أن تقوم بدور أساسي في حياتها ، فقد كان مصطفى أمين في الثلاثينيات والأربعينيات من ألمع شباب مصر ، وكان قد تعلم في أمريكا مع شقيقه الصحفي الكبير علي أمين . وكان مصطفى أمين من عائلة أرستقراطية تمت بصلة قوية إلي الزعيم سعد زغلول وزوجته صفية زغلول ، مما أتاح له الاتصال الوثيق بالطبقات ذات النفوذ في المجتمع المصري قبل الثورة ، ومن المعروف أن أحمد حسنين معلم الملك فاروق ورئيس ديوانه قد اختار مجموعة من الشباب ، ممن كان يقال عنهم أنهم من أبناء العائلات ليكونوا أصدقاء للملك فاروق ، حتى يعيش الملك في وسط اجتماعي مصري بعد عودته من إنجلترا وهو في السادسة عشرة ، وكان من بين الشباب الذين اختارهم أحمد حسنين لصداقة الملك مصطفى أمين ، غير أن مصطفى أمين لم يكتسب أهميته ودوره في حياة مصر الحديثة من صداقته للملك أو من عائلته الأرستقراطية ، بل اكتسب أهميتها من موهبته الكبيرة وحبه للصحافة، ولاشك أن مصطفى أمين مهما اختلفت حوله الآراء كان من مؤسسي الصحافة المصرية الحديثة ، ويعود إليه فضل كبير في تطور الصحافة المصرية ونهضتها ، وكما استطاعت أم كلثوم أن ترفع من سمعة الفنان وتحقق له الاحترام الاجتماعي ، فإن مصطفى أمين كان واحداً من الرواد الكبار الذين رفعوا سمعة الصحافة ، وجعلوا منها مهنة محترمة ، وقد أنشأ مصطفى أمين جريدة « أخبار اليوم » سنة ١٩٤٤ وشاركت أم كلثوم بأموالها في إنشاء هذه الجريدة ، كما ذكر مصطفى أمين نفسه مراراً .. واستطاعت «أخبار اليوم » أن تصبح مدرسة صحفية كبيرة .

عميدها ومؤسسها هو مصطفى أمين مع شقيقه علي أمين ، ولا تزال هـذه المدرسة تؤدي دورها المؤثر حتى اليوم ، وبرغم أن مصطفى أمين كان له أعداء كثيرون، وكان هناك نقاد أشداء لأفكاره ومواقفه وكانت له معاركه الصعبة في مختلف مراحل حياته ، وكان هناك من يعترضون علي أسلوبه ومدرسته الصحفية كلها ، إلا أن الإنصاف يقتضي القول بأن مصطفى أمين كان له أنصار وتلاميذ كثيرون ، وكان له ملايين المعجبين بين المواطنين العاديين ، وكان مصطفى أمين من الأنصار المتحمسين للديمقراطية وحرية الرأي والتعدد في وجهات النظر ، وظل مخلصاً لهذه القضية حتى آخر يوم في حياته ، وبرغم كل ما يأخذه عليه خصومه من مآخذ وما يوجهونه إليه من اتهامات فإن الأمر يحتاج إلي تحقيق تاريخي دقيق ، وذلك للفصل في قضية الاتهامات ، وهل كان مصدرها اختلاف في الرأي أو كان مصدرها شيئًا أخر . واعتقادي الشخصي أن مصطفى أمين كان صاحب رأي يعتقد في صوابه ولم تتقبله السلطة منه ، ولم يكون جاسوساً ولا خائناً كما قيل عنه.

مصطفى أمين شخصية قوية جبارة وجذابة مهما اختلفت الآراء حولها ، وتعددت الاجتهادات في تفسيرها وتحليلها ، بين المعجبين به والمعترضين عليه ، ولم يكن من الغريب أن يصبح مصطفى أمين موضع اهتمام أم كلثوم ولم يكن من الغريب أيضاً أن ينتهي هذا الاهتمام بالزواج ، فقد كان مصطفى أمين ، وخاصة في فترة الأربعينيات والخمسينيات يملك من القوة والنفوذ والتأثير ما يجعله قادراً علي مساعدة أم كلثوم ومساندتها والوقوف إلي جانبها ، ولم تكن أم كلثوم بحاجة مادية إلى مصطفى أمين ، فقد كانت إمكانياتها المادية ـ بعد نجاحها المبكر ـ أقوى بكثير من مصطفى أمين ولكن أم كلثوم ربما كانت تعتمد علي مصطفى أمين في جوانب أخرى ، استناداً إلي شخصيته القوية ومعرفته الواسعة والعميقة بالحياة الاجتماعية والسياسية ، بحيث كان يستطيع أن يقدم لأم كلثوم المشورة الصحيحة في التعامل مع الحياة والمجتمع والناس ، ويبقى السؤال هو : لماذا ظل زواج أم كلثوم بمصطفى أمين سراً رغم انه أستمر عشر سنوات ، كما يقول ابن الشيخ خالد

شقيق أم كلثوم ؟ ربما كان السبب هو أن مصطفى أمين كان يخوض معارك عنيفة خلقت له عداوات كثيرة قبل ثورة يوليو وبعدها ، وكانت أم كلثوم تحرص علي أن تكون بعيدة عن كل هذه الصراعات ، فهي تريد أن تكون لمصر كلها وللعرب جميعاً ، وأظن أن هذا السبب القوي كان كافياً ليجعل أم كلثوم تفضل أن يكون زواجها من مصطفى أمين سراً ، لا يعرفه إلا المقربون منها ومنه ، وقد كان حرص أم كلثوم علي أن تكون للأمة كلها حرصاً يدل علي وطنيتها وذكائها وأمانتها ، وهو حرص لم يفارق أم كلثوم طيلة حياتها ، فقد كانت موضع الإجماع وكانت هي دائماً مع « الإجماع » ، لأنها كانت تخضع موهبتها في خدمة الوطن ، لا في خدمة السياسة ، والاختلاف بين الوطنية والسياسة كبير ، فالوطنية تجمع الناس أما السياسة ، فكثيراً ما تفرقهم وتدفعهم إلي الاختلاف فيما بينهم ، وعلي العكس من أم كلثوم . كان مصطفى أمين من رجال المعارك والصراعات ولذلك كان له أعداء وأنصار أما أم كلثوم فكان الجميع من أنصارها، وكان حب الناس لها من حب الوطن يملأ كل القلوب ، وليس في زواج أم كلثوم من مصطفى أمين ما يسئ إليها أو يسئ إلي مصطفى أمين ، فهو أمر طبيعي مهدت له ظروف كثيرة يمكن فهمها وتقديرها ، وعندما نتذكر هذا الزواج الآن ونخرج به من عالم النسيان، فنحن لا نفعل أكثر من أن نضع وردتين إحداهما علي ذكرى أم كلثوم والثانية علي ذكرى مصطفى أمين ، وبرغم إنني لم أكن يوماً من تلاميذ مصطفى أمين ولا من أنصاره أو المتفقين معه في كل آرائه ومواقفه إلا أنني لا أملك إلا الاحترام له والاعتراف بفضله وموهبته والتقدير لجهده الكبير في خدمة مصر والصحافة المصرية.

ومن المفيد هنا أن أشير إلي رسالة تلقيتها من الكاتب الأديب الأستاذ محمد الحديدي ، وفي هذه الرسالة يشير الكاتب إلي أن مصطفى أمين كان يحب أم كلثوم منذ أن كان في السادسة عشرة من عمره وهذا هو نص الرسالة :

« اكتب إليكم معقباً علي مقالكم في الأهرام الأحد ٦ فبراير ٢٠٠٠ الـذي يـدور حول زواج أم كلثوم من مصطفى أمين ، وهذه بالطبع أمور تاريخية لها موضوعـها من اهتمامات المصري سواء كان مفكراً أو كاتباً أو مجـرد فـرد في المجتمع ، وأود أن أضيف أنني برغم كوني مجرد كاتب وليس صحفياً محترفاً كنت قد أجريت ، حديثاً صحفياً مع مصطفى أمين سجلته علي شـريط مـازال عنـدي وقـد نشـرته في جريدة « الأحرار » في عددها الصادر بتاريخ ١٩ ديسمبر ١٩٧٧ وفي هذا الحديث روى لي مصطفي أمين أنه رأى أم كلثوم لأول مرة وهو في الحادية عشرة مـن عمـره وقصة ذلك أنه كان يتناول الغداء في بيت الزعيم سعد زغلول « بيت الأمة » وقـد أقيم « الغداء » لتكريم رجل من كينيا اسمه « علي مبارك » وكان هذا الرجل قد أكرم قادة زعماء مصريين علي رأسهم سعد زغلول وكان الإنجلـيز قـد أفرجـوا عـن هؤلاء الزعماء من سجنهم في جزيرة « سيشل » وتركوهـم في مينـاء « مومباسـا » دون أية معاونة تمكنهم من العودة إلي مصـر ، وقـام هـذا الرجـل الكيـني « علـي مبارك » بمعاونتهم وتوفير كل ما يحتاجون إليه وعندما جـاء بعـد ذلـك إلي مصر دعاه الزعيم سعد زغلول إلي بيته ، وكان ذلـك سـنة ١٩٢٥ ، ثـم يقـول مصطفـى أمين إن الزعيم سعد زغلول كلف والده « أمين يوسف » بـأن يصطحـب الضيـف إلي سهرة ليلية وأن مصطفى أمين وعلي أمين طلبا من والدهما أن يصحبهما معه في تلك السهرة وطلبا أن يذهبا إلي مسرح « علي الكسار » لمشاهدة مسـرحية اسمـها « أبو زعيزع » ولكن الوالد « أمين يوسف » رفض وأخذهم جميعـاً إلي أم كلثـوم وهكذا كان أول لقاء لمصطفى أمين مع أم كلثوم ضد إرادته ، وبعـد ذلـك بسـنوات كلفتـه السـيدة « روز اليوسـف » بـإجراء حديـث مـع أم كلثـوم في أي موضـوع يختـاره. وكـان عمـره آنـذاك ١٦ سـنة وعندمـا قـابلها قـال لهـا : أنـه جـاء ليحـدثها عن « الحـب » .. ويسـتمر حديـث مصطفـى معـي والتسـجيل عنـدي فيقول : أنه في هذا اللقاء باح لها بحبـه ، وأن صلتـه معـها بعـد ذلـك اسـتمرت بدرجة متزايدة الوثوق ، كما قال في حديثه بالنص .. ثم قال مصطفـى أمـين أنـه مضت بعد ذلك سـنون طويلـة ، وفي اليـوم التـالي للقبـض عليـه دار حديـث بـين

الرئيس عبد الناصر وبين عبد الوهاب وأم كلثوم في نادي الضباط في ليلة ٢٣ يوليو سنة ١٩٦٥ فقال عبد الوهاب : « إن المخطئ ينال جزاءه » أما أم كلثوم فقالت : « أن واثقة أن مصطفى أمين وطني مخلص ولا يمكن أن يخون بلده » ،وظلت أم كلثوم تسانده في محنتــه حتــى النهايــة ، والشـريط الـذي سـجلت عليـه حديـث مصطفى أمين بصوته تحت يدي لمن أراد الاستماع إليه ».

وقد تعرض مصطفى أمين للمحاكمة والسجن سنة ١٩٦٥ ، وتم توجيه اتهامات إليه تمس وطنيته ، وهي اتهامات تحتاج إلى مراجعة تاريخية وبحث علمي دقيق علي أساس وثائق ليست متاحة حتى اليوم ، وأنا أميل ميــلاً شـديداً إلي الاعتقـاد بأن مصطفى أمـين قـد تعـرض لمـا تعـرض لـه بسـبب اختلافـه الشـديد في الـرأي والسياسة مع الزعيم الراحل جمال عبد الناصر ، مما لم يكن عبد الناصر يستطيع أن يتسامح فيــه ، وبذلـك يكـون مصطفـى أمـين قـد دخـل السـجن بسـبب رأيـه السياسي ، وليس بسبب شيء يمس وطنيته ، وفي البحث العلمي الدقيق بعد توفر الوثائق ما قد يثبت صواب هذا الرأي أو ينفيه.

♫ ♫ ♫

أم كلثوم بالتركية ..!

في أوائل القرن العشرين وفد إلي مصر مفكر ديني تركي كبير هو الشيخ مصطفى صبري ، الذي كان شيخاً للإسلام في تركيا ، وعضواً في مجلس الشيوخ العثماني، وكان نائباً للصدر الأعظم ـ والصدر الأعظم ـ هو التسمية التركية لرئيس الوزراء ، وذلك في فترة الخلافة العثمانية ، وعندما استولى مصطفى كمال أتاتورك « ١٨٨٠ – ١٩٣٨ » علي السلطة بصورة كاملة في تركيا وألغى الخلافة العثمانية وبدأ يشن حربه علي الإسلام وكل مظاهره في المجتمع التركي فر الشيخ مصطفى صبري هارباً من تركيا وجاء إلي مصر سنة ١٩٢٣ ، وكان الشيخ يسافر بين الحين والحين إلي بعض البلدان الأوربية وعاش في اليونان خمس سنوات ، كان يصدر فيها جريدة اسمها « الغد » أو « باران » باللغة التركية ، وكان هدف هذه الجريدة هو مقاومة حركة مصطفى كمال أتاتورك في عدائها للإسلام واللغة العربية، ثم استقر الشيخ مصطفى صبري في مصر بعد ذلك ، وله العديد من الكتب التي ألفها باللغة العربية وكلها دفاع عن الإسلام والدعوة إليه ، وكان ما عاناه الشيخ مصطفى صبري في تركيا تحت قيادة مصطفى كمال هو سبب تركيزه لكل جهوده علي الدفاع عن الإسلام، فقد أيقن كما يقول الدكتور محمد حسين في كتابه : « الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر ـ الجزء الثاني صفحة ٢٢٤ » :

« إن الغرب يعمل علي محو الإسلام ، وأن مؤامرة الغرب قد نجحت في تركيا ، مما ينذر بانتشار هذه المؤامرة وينذر بنجاحها في بقية العالم الإسلامي ، ولذلك فقد أخذ الشيخ مصطفى صبري في مصر يجاهد بكل ما يسعه من قوة لمنع المسلمين من الانحدار إلي نفس المصير الذي صار إليه الأتراك علي يد مصطفى كمال ، بعد أن لمس الشيخ نكبة الأتراك، وجربها بنفسه ، ومارسها في كفاحه السياسي

الطويل الذي تنقل فيه بين العواصم المختلفة، حتى استقر به الأمر في مصر : فاتخذها مركزاً لنشاطه بعد أن سحبت تركيا يدها من العالم الإسلامي ».

تلك هي الصورة التي رسمها الدكتور محمد حسين للشيخ مصطفى صبري في مصر ..

ولعل حماس الشيخ مصطفى صبري غير العادي للدفاع عن الإسلام بصورة عنيفة وحادة ، تصل به أحياناً إلي درجة من المبالغة تنكسر فيها أية قيمة من أي نوع للحضارة الغربية .. هذا الحماس المندفع لا يفسره إلا أنه كان رد فعل للإجراءات التي اتخذها مصطفى كمال أتاتورك في تركيا ، ابتداء من سنة ١٩٢٣ ، وحتى وفاته سنة ١٩٣٨ وهي الإجراءات التي تابعها خلفاؤه من بعده وحتى الآن.

فمن بين إجراءات مصطفى كمال كما يقول المؤرخ الكبير محمد عبد الله عنان في دراسة له بعنوان : « حرب منظمة يشهرها الكماليون علي الإسلام » إن مصطفى كمال أصدر قوانين تقرر « إلغاء النص الموجود في دستور الجمهورية التركية الأول بأن تركيا دولة مسلمة وإباحة القانون لزواج المسلمة من غير دينها مع بقاء الزوج علي دينه ، ثم تحريم الأذان وتلاوة القرآن في المساجد باللغة العربية » ويقول المؤرخ الكبير الأستاذ عنان بعد ذلك : « إن حكومة أنقرة انتدبت لجنة لإصلاح العبادات ومظاهرها - سنة ١٩٢٨ - وأذيع يومئذ أن اللجنة تقترح أن تكون الصلاة في المساجد كالصلاة في الكنائس وأنه لا بأس أن يؤدي المسلمون صلاتهم وقوفاً أو جلوساً علي المقاعد ، وأن تطربهم الموسيقى ، وأن تعزف لهم الأدعية والنصوص داخل المساجد نفسها ، وطبعاً فإن هذه الاقتراحات الأخيرة قد أثارت غضب الرأي العام ، ولم يستطع مصطفى كمال تنفيذها ، ولكنه استطاع أن يقوم بتنفيذ إجراءات كثيرة أخرى ، منها شن حرب شاملة علي اللغة العربية ، وقد اتخذت هذه الحركة ضد اللغة العربية ، كما يقول الأستاذ عنان : «ثوب » الإصلاح والتجديد القومي ، وتقرر كتابة اللغة التركية بالحروف اللاتينية بدلاً من الحروف العربية ، وقيل فى ذلك إن اللغة التركية

غنية بأصولها وموادها القومية، فهي ليست بحاجة إلي العربية تشتق منها وتستعين بها ، ولذلك فمن الواجب تحرير اللغة التركية من جميع الألفاظ العربية، وتم تنفيذ الفكرة ووضعها موضع التنفيذ بسرعة ، واستعمل الأتراك الحروف اللاتينية بقوة القانون ، وسارت الحركة لنفي الألفاظ والأصول العربية بسرعة أيضاً ، واتخذت أحياناً بعض المظاهر المثيرة ، فقد حدث مثلاً أن أستاذاً جامعياً خطب في مؤتمر تم عقده لهذا الغرض ، فنوه بأهمية استمرار التعاون والعلاقات بين التركية والعربية فغضب مصطفى كمال ـ وكان من شهود المؤتمر ـ وغادر المؤتمر في الحال وفي اليوم التالي عوقب الأستاذ بالعزل والحرمان من منصبه العلمي ».

هذه صورة موجزة يرسمها المؤرخ الأستاذ محمد عبد الله عنان للتطرف الذي وقع فيه الزعيم مصطفى كمال في حربة ضد الإسلام واللغة العربية بحجة إخراج تركيا من التخلف الحضاري ولكي تكون دولة حديثة وعصرية وكأن تخلف تركيا مصدره الإسلام واللغة العربية.

وهذا التطرف عند مصطفى كمال ، قد أوجد تطرفاً مقابلاً عند الشيخ مصطفى صبري ، الذي لجأ إلي مصر وعاش فيها حتى وفاته سنة ١٩٥٤ ، وفي مصر أصدر العديد من الكتب ، كان أهمها كتابه الضخم : « موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين » والكتاب في أربعة مجلدات تزيد صفحاتها علي الألفين وقد أصدرته مكتبة تسمى باسم مكتبة «الإيمان للطباعة والنشر والتوزيع » سنة ١٩٥٠ ورغم ما في الكتاب من حرارة وإيمان وصدق ، فهو ملئ بآراء تحتاج إلي المراجعة والتعديل ولا يمكنها أن تكون موضع اتفاق بين العلماء والمفكرين.

هذه فكرة عامة عن الشيخ مصطفي صبري ، وهو ليس موضوعنا الرئيسي، ولكنني حرصت علي أن أقدم عنه هذه المعلومات الأولية لأقول أن الشيخ صبري قد استقر في مصر وكان له فيها أبناء ، ولا يزال له فيها أحفاد يقيمون الآن بيننا ويحملون الجنسية المصرية ويعملون في بعض المناصب العلمية البارزة ، وذلك كما

سمعت من صديقي الدكتور محمد حرب رئيس المركز المصري للدراسات العثمانية وبحوث العالم التركي .

ومن بين أبناء مصطفى صبري أبنه إبراهيم صبري الذي عمل أستاذاً للغات الشرقية بجامعة الإسكندرية.

وكان إبراهيم صبري شاعراً يكتب أشعاره بالتركية ، وقد كتب عنه صديقه الأديب عثمان عسل سنة ١٩٤٢ ، دراسة قصيرة يقول فيها : «إبراهيم صبري شاعر موهوب من شعراء اللغة التركية ، وهو يعيش في مصر في غربة متصلة منذ أكثر من عشرين عاماً ، يعيش في داخله لا أنيس له إلا شيطان شعره .. وهو شاعر يترنم أو ينوح لنفسه » .

وكان هذا الشاعر التركي إبراهيم صبري صديقاً لعدد من الأدباء والشعراء المصريين المعروفين في جيله، وهو الجيل الذى يمكن أن نسميه باسم جيل الثلاثينيات والأربعينيات ومن هؤلاء الأدباء والشعراء : محمود حسن إسماعيل ومحمود شاكر .

وقد عاش إبراهيم صبري في بيئة والده الدينية المتألمة مما حدث للإسلام واللغة العربية في بلدهما تركيا . ولكنه أكثر تفتحاً علي الحياة العامة من والده ، أولاً لأن الابن شاعر موهوب وفنان حساس ، ولم يقتصر في ثقافته علي تحصيل العلوم الدينية وحدها ، وثانياً لأنه من جيل جديد ينظر إلي الدنيا نظرة مختلفة عن نظرة والده الشيخ مصطفى صبري ، فقد كان الشيخ الوالد ـ بسبب تجاربه الخاصة في الصراع ضد الزعيم مصطفى كمال ونظامه وأفكاره ـ لا يرى في الحضارة الحديثة فضيلة واحدة تستحق الإعجاب والتقدير ، وهذا ما لم يكن يؤمن به ابنه الشاعر إبراهيم صبري وجيله ، فقد كانوا يرون في مظاهر الحياة العصرية الحديثة ما يستحق الحب والاهتمام ، ومن الطريف واللافت للنظر أن إبراهيم صبري كان يستمع إلي أم كلثوم ، وكان يعشق صوتها ويحب أن يتردد هذا الصوت الملائكي الفاتن في بيته وفي بيوت أصدقائه.

وذات يوم دعاه صديقه العالم الأديب الشاعر محمود شاكر إلي بيته وكان بيت محمود شاكر مشهوراً بمائدته الدائمة اليومية العامرة بالطعام الشهي الممتع وقد تعود محمود شاكر أن يدعو أصدقاءه إلي لقائه في بيته ومشاركتهم له في مائدة طعامه التي كانت قائمة كل يوم في هذا البيت الكريم وفي زيارة الشاعر إبراهيم صبري لصديقه محمود شاكر أدار شاكر بعض الاسطوانات من أغاني أم كلثوم وقضي الشاعر التركي يوماً كاملاً عند صديقه شاكر يتحدثان ويستمعان إلي أم كلثوم وبعد أيام تلقى محمود شاكر رسالة من صديقه الشاعر التركي يقول له فيها: إلي أخي محمود شاكر، انصرفت من دعوتك الماضية ، وقد احتفظت بشعور وإحساس كتب في ذاكرتي هذه الأبيات ، ومع هذه الرسالة القصيرة قصيدة باللغة التركية عنوانها : « ذكرى أم كلثوم» وقد نشرت مجلة «الرسالة» ترجمة للقصيدة في عددها رقم ٤٨٦ والصادر بتاريخ ٢٦ أكتوبر سنة ١٩٤٢ ، وقالت المجلة في تقديم ترجمة القصيدة : « هذه قصيدة جديدة للشاعر التركي إبراهيم صبري ترجمها صديقه الأستاذ « محمود محمد شاكر » وفيها يصف الشاعر ذلك الصوت الشعري السامي الذي يسحر السمع ويسبح بالروح في جو ممتد كامتداده ، مرتعش كارتعاشه ، منتحب كانتحابه ، وهو صوت أم «كلثوم».

وهنا لابد من تسجيل ملاحظة صغيرة ، فمحمود شاكر في حدود علمي لم يكن يعرف اللغة التركية وأغلب الظن أن أحد العارفين بالتركية قد ترجم معانيها ، وقام محمود شاكر بصياغة الترجمة صياغة أدبية رقيقة وجميلة .

وملاحظة أخرى هي أن إبراهيم صبري ، الشاعر التركي العاشق لأم كلثوم وصوتها ، قد نشأ في بيت ديني خالص ، ولم يكن لوالده « الشيخ مصطفى صبري » هدف في حياته أهم وأقدس من الدفاع عن الإسلام ، ومع ذلك لم يجد ابنه الشاعر حرجاً في أن يستمع إلي أم كلثوم ويعلن حبه لصوتها ويكتب قصيدته التركية عنها ، وفي ذلك دليل جديد علي أن الفن الراقي الذي كانت «أم كلثوم» تمثله خير تمثيل ، ليس فيه أي تناقض مع المشاعر الدينية الصحيحة كما يزعم بعض الزاعمين .

ولعل من الطريف أن نشير في هذا المجال إلي ما تحدثت عنه الدكتورة نعمات فؤاد في كتابها الشامل الرائع عن « أم كلثوم » صفحة ٣٣٢ من أن واعظاً اسمه الشيخ محمد النجار خطيب جامع « السهلي » بمدينة كفر الزيات قد ألقى خطبة في الجامع هاجم فيها أم كلثوم وقال إن الاستماع إليها حرام.

وفي المقابل تقول الدكتورة نعمات في نفس الكتاب ـ صفحة ٢٥٥ ـ في أوائل الأربعينيات سرت شائعة تقول إن الشيخ محمد رفعت ـ المقرئ العظيم ـ يطلب من الإذاعة مساواته في الأجر بأم كلثوم ، فنشر الشيخ رفعت بياناً في الصحف ينفي فيه هذه الشائعة لإيمانه بأن صوت أم كلثوم هو أعظم الأصوات . وبذلك تكون عندنا نظرتان : إحداهما يمثلها خطيب الجامع في مدينة كفر الزيات الذي هاجم أم كلثوم واعتبر الاستماع إليها حراماً من الناحية الدينية ، ونظرة أخرى إيجابية رفيعة يمثلها الشيخ محمد رفعت ، وهو واحد من أعظم المؤثرين في قلوب المؤمنين بصوته الرائع وتلاوته الفريدة للقرآن الكريم ، ونظرة الشيخ محمد رفعت تحمل معني واحداً ، هو أن صوت أم كلثوم هو أعظم الأصوات إلي الحد الذي يرفض فيه الشيخ رفعت مقارنة صوته بصوتها وفي موقف الشيخ رفعت وهو من أنبل المواقف، ما يؤكد أن صوت أم كلثوم يرتفع بالنفوس والأرواح ولا يهبط بها، ولذلك فإن هذا الصوت لا يمكن أن يكون هناك اعتراض عليه وتحريم له من صاحب قلب مؤمن .

وهذه النظرة التي يمثلها الشيخ محمد رفعت ، هي نفسها نظرة الشاعر التركي إبراهيم صبري في قصيدته التركية الجميلة « ذكرى أم كلثوم » .

وفي هذه القصيدة التركية يقول الشاعر ، والترجمة كما أشرت للأستاذ محمود شاكر : « كان يوماً بديعاً ملؤه السرور . واحسرتا لذلك اليوم . لقد مضى . ألوان من الطعام المتعة اتصلت بموسيقى ساحرة فاضت علي شفتي أم كلثوم الفاتنة وأم كلثوم هي قصيدة وردية انسكبت من أباريق اللحن في أرواحنا ، حين تأخذني سكرة الإبداع أجد قلبي نشوان ، وتذهب أعصابي في نوم عميق هادئ لفرط ما

سكرت بهذا الصوت ، حينئذ أشعر بصعود خيـالي وحـده إلي عـالم الأرواح تاركـاً علي الأرض كل ما هو نقيض لهذا الصوت السماوي .

« أراني أصل بخيالي إلي القمر ، وفي هذا القمر أجد ألحانـاً مـن عـالم الجمـال والسحر ، وفي هذا القمر الذي يرفعني إليه صـوت أم كلثـوم أجـد الهـواء والأرض والنور الشفاف .. إن صوت أم كلثوم ليس للـتراب وإنمـا مـن حقـه أن نسـمعه في السماوات .. وفي مصر التي تشعرك آثارها بالخلود ، يبدو لي صوت أم كلثوم مثـل الأهرام ، في هذا الصوت تتمزق صدور العشـاق ، وحـين تبدأ أم كلثـوم في الغنـاء ينبعث صوتها كأنه « وسوسة » من الـرذاذ المنطفـئ علـي النيـل الأخضـر الـذي يجري أمام الشمس حين يصبح لونها مثل لون « النارنج » ثم إذا بك تحس بهذا الصوت الذي بدأ مثل «الوسوسة » ينقلب إلي أمواج في بحر ، حيث تندفع هـذه الأمواج لترتطم بالقلب ، ثم إذا بك تـرى الصـوت ينتصر علـي جميـع المسـافات والأبعاد ، وتحس أن صداه يأتيك من وراء الفضاء.

هذا الصوت يغرد كتغريد البلبل في الجنة ، وكأنما تفوح منه رائحة مـاء الـورد وهو صوت كأنه « ماء الحياة » لو سقطت قطرة منه علي أجسـاد المـوتـى لشـعروا به، هذا الصوت يمس خد السامع له كأنه منديل من الحرير في كف معطرة ، وكم من قلوب قد اعتمـدت علـي هـذه اليـد السـاحرة ، أنـها تبكـي وتنـوح غارقـة في حنانها، ولذلك فهو صوت يحرق ، كما يحرق البكاء» .

واكتفي من هذه القصيدة التركية الجميلة للشاعر إبراهيـم صبري بـهذا الجـزء فبقية القصيدة تعبير عن أحـزان الشـاعر الشـخصية والـتي تثـور في نفسـه عندمـا يستمع إلي صوت أم كلثوم حيث يعود به هذا الصوت الذي يشبه « اليد الحانيـة التي تمس الروح » إلي ذكريات عديدة وقديمة ومليئة بالأسى والشجن.

علي أن المهم في ذلك كله أن صوت أم كلثوم قد اخترق الآفاق العربية ليصل إلي أعماق قلب الشاعر التركي إبراهيم صبري فيهزه ويثيره ويكتب عـن هـذا الصـوت الملائكي قصيدته العذبة الجميلة .

بين أم كلثوم وزكي مبارك

لا يزال الحديث عن « أم كلثوم » مستمراً بين الناس ، حيث كان مسلسل «أم كلثوم » التليفزيوني الذي قام بتأليفه الكاتب الكبير الموهوب محفوظ عبد الرحمن وأخرجته المخرجة اللامعة المثقفة الجادة إنعام محمد علي ، أشبه بإعادة اكتشاف هذه الفنانة العبقرية ، وعصرها الطويل المليء بالأحداث والشخصيات والصراعات القوية العنيفة ، فقد كانت أم كلثوم قبل هذا المسلسل « مشهورة ومجهولة » فهي مشهورة لأن الناس جميعاً يعرفون أنها مطربة ذات صوت ذهبي أو ماسي أو أكثر من ذلك ، وصوتها الرائع يرن في الآذان كل صباح مساء ، ولكن تاريخها وكفاحها الكبير وأسلوبها في التعامل مع موهبتها ومع الناس والحياة في عصرها ، والصعوبات الكثيرة التي وقفت في طريقها قبل أن تصل إلي القمة .. كل ذلك لم يكن معروفاً إلا لعدد قليل جداً من الباحثين والمهتمين بتاريخ الفن العربي . وكان هذا التاريخ الطويل لأم كلثوم بتفاصيله المختلفة « مختبئاً » في عدد من الكتب وعلي رأسها كتاب عاشقة أم كلثوم الدكتورة « نعمات فؤاد » التي كانت تتابع حياة أم كلثوم وفنها منذ أواخر الأربعينيات حتى استطاعت في آخر الأمر أن تصدر كتابها الموسوعي الشامل « أم كلثوم .. عصر من الفن » في أكثر من خمسمائة صفحة ، وهو كتاب أو موسوعة مليئة بالمعلومات والتفاصيل عن « أم كلثوم » منذ ميلادها سنة ١٨٩٨ في قريتها البسيطة الفقيرة في ريف المنصورة ، وهي قرية « طماي الزهايرة » ، وحتى وفاتها في مستشفى المعادي بالقاهرة يوم ٣ فبراير سنة ١٩٧٥ ، وقد رحلت أم كلثوم بعد نقلها إلي المستشفى عندما داهمتها أزمة صحية حادة نتيجة لارتفاع شديد في ضغط الدم ، كما تقول الدكتورة نعمات فؤاد مما أدى إلي نزيف في المخ مع تدهور في الكليتين نتج عنه مضاعفات في القلب

ولم تمهلها هذه الأزمة سوى ثلاثة أيام ماتت بعدها « أم كلثوم » وأصبحت بين يدي الله والتاريخ.

علي أن تاريخ أم كلثوم لم يكن مكشوفاً للناس بهذه الدقة وهذا الوضوح وهذه الكثافة وغزارة التفاصيل إلا بعد أن امتدت يد الفنان الكبير محفوظ عبد الرحمن إلي كتاب الدكتورة نعمات فؤاد لتصنع منه حلقات المسلسل الرائع الذي شاهده الناس في أواخر سنة ١٩٩٩ ، وأوائل سنة ٢٠٠٠ .. وكما أشرت في فصل سابق فأنا أحب أن أسمي محفوظ عبد الرحمن باسم « نجيب محفوظ عبد الرحمن الرافعي » ، ذلك لأنه جمع في عمله بين « الفنان » و « المؤرخ » أي بين نجيب محفوظ وعبد الرحمن الرافعي ، فمحفوظ عبد الرحمن صاحب قدرة فنية عالية ، وصاحب قدرة أخرى علي فهم التاريخ والإحساس به ، في الوقت نفسه ، ولولا ذلك لما استطاع أن يقدم هذا العمل الفني المتألق حيث بدا للجميع أن أم كلثوم ليست عصراً من الفن فقط بل هي أيضاً عصر من التاريخ والسياسة والاقتصاد والوطنية والعروبة والمشاعر الإنسانية النادرة ، وأهم ما قدمه محفوظ عبد الرحمن في مسلسل أم كلثوم هو أنه فتح باباً مغلقاً من أبواب الفن والتاريخ ، وفتحه علي مصراعيه مما أتاح لنا أن نعرف الكثير مما كان مجهولاً ومختبئاً وراء الباب المغلق وهو بذلك يدفع الكثيرين من الفنانين والكتاب إلي أن يلتفتوا إلي أهمية التاريخ كأحد المصادر الأساسية للفن ، فالتاريخ مادة حية ، لو وقف أمامها الفنان الموهوب ونظر إليها نظرة عميقة حساسة فسوف يجد فيها الكثير من التجارب الروحية التي تمس قلب الإنسان.

والتاريخ مثل الحياة ليس تقديمهما كما هما من الفن الصحيح في شيء ، ولكن استخلاص المادة الفنية من التاريخ والحياة يعتمد علي قدرة الفنان في التمييز بين ما هو فن وما هو أحداث عادية ، وبدون هذه القدرة فإن الفن يفقد تأثيره وقيمته.

ومحفوظ عبد الرحمن يملك القدرة العالية علي أن يختار بعينه الموهوبة ما هو فن من مادة التاريخ ويستبعد منه ما هو أحداث عادية متكررة.

وإذا كان محفوظ عبد الرحمن قد استطاع أن يقدم إلينا صورة عامة لأم كلثوم أعادت الحياة إليها وإلي عصرها فإن هذه الصورة القوية تغرينا بالبحث عن المزيد إذا كان هناك مزيد.

والحق أن هناك مزيداً من الجوانب والتفاصيل في صورة أم كلثوم وأمامي وأنا اكتب هذا المقال دراسة لأديب عربي كبير معاصر لأم كلثوم هو الدكتور زكي مبارك.

وزكي مبارك أديب ساحر القلم ، ذكي العقل والقلب ، واسع الثقافة وهو من المظلومين لأنه لم يترك وراءه بعد وفاته تلاميذ أو أحزاباً أدبية تدافع عنه ، وتهتم بآثاره ، وتقدم للناس ما تركه وراءه من أعمال أدبية وفكرية رائعة ، وقد توفى زكي مبارك سنة ١٩٥٢ عن ستين عاماً وتوفى علي إثر حادث ، إذ تعثرت قدمه فسقط علي رصيف في أحد شوارع القاهرة واصطدمت رأسه بالحافة الصخرية للرصيف فأصيب بنزيف حاد قضى عليه . وكان زكي مبارك في حياته مشهوراً بجرأته وصراحته وإقدامه علي خوض المعارك الأدبية والفكرية ، مما جعل بينه وبين الناس في عصره نوع من الفجوة، فكثر أعداؤه وكان معظم أدباء عصره يخشونه ، ويلتزمون بالحذر منه ، مما جعل كتاباته تمتلئ بالشكوى والأنين والشعور بالاضطهاد ، ولو أن زكي مبارك كان في دهاء طه حسين وفي حرص العقاد ، وتحصين حياته بالعزلة التي لم يكن يخترقها سوى تلاميذه وأنصاره ، ولو كان زكي مبارك من أصحاب الخطط المدروسة والمحسوبة مثل توفيق الحكيم الذي كانت لديه قدرة عالية علي معرفة الميول والأذواق ، وكانت لديه قدرة أخرى علي تجنب المآزق والأزمات .. لو كان زكي مبارك لديه شيء من هذه الصفات لكان نصيبه في الحياة وبعد الممات أكبر بكثير مما ناله ، فهو لا يقل في نبوغه وعبقريته وموهبته عن كبار أدباء عصره ، ولكنه لم ينل ما نالوه من العناية والاهتمام ، ويكاد الذين يتحدثون عن عصره ورجال عصره ينسونه ولا يحسبون له أي حساب.

أمامي هذه الدراسة التي كتبها زكي مبارك عن شخصية أم كلثوم ونشرها في مجلة « الرسالة » في عددها الصادر في ٢١ أكتوبر سنة ١٩٤٠ وكانت أم كلثوم في ذلك الوقت قد بلغت قمة مجدها ، ولم تنزل عن هذه القمة بعد ذلك حتى وفاتها سنة ١٩٧٥ ، وفي هذه الدراسة يلقي زكي مبارك بأسلوبه الساحر وعقله النافذ أضواء جديدة علي شخصية أم كلثوم وقد اختار زكي مبارك عنواناً طريفاً لمقاله أو دراسته القصيرة هو « ٤٥٠٠ ثانية في صحبة أم كلثوم » ومعنى العنوان أن زكي مبارك قضى مع أم كلثوم ٧٥ دقيقة ، أي ساعة وربع الساعة .

وفي هذه الدراسة الممتعة يكشف زكي مبارك عن جوانب في شخصية أم كلثوم لا أظن أن أحداً من الكتاب والباحثين اقترب منها قبله أو بعده.

يطلق زكي مبارك علي أم كلثوم اسم « الحمامة الموصلية » والموصل معروفة في التاريخ بأنها بلد الحرير والغناء ، ومن تاريخ الغناء في الموصل استمد زكي مبارك وصفه لأم كلثوم بالحمامة الموصلية ، أي الحمامة التي طارت من بلد الغناء الجميل والأصيل ، وهو « الموصل ».

يقول زكي مبارك :

« هذه الحمامة الموصلية ـ أي أم كلثوم ـ تغني بلا وعي ولا إحساس في نظر من يحكم بمظاهر ما يند عن شفتيها الورديتين من أغانٍ وأحاديث فهل تكون في حقيقة الأمر كذلك ؟ إن كانت أم كلثوم بلا وعي ولا إحساس فعلي الأدب والفن العفاء . وكيف تكون أم كلثوم محرومة من قوة الروح وهي بلا نزاع ريحانة هذا العصر وأغرودة هذا الجيل ؟ وأين من يزعم أن قلبه سلم من الشوق لأغاني أم كلثوم ، وما مرت لحظة واحدة في المشرق أو في المغرب بدون زفرة أو لوعة تثيرها أغاني أم كلثوم ؟ وهل سمع الناس في حديث أو قديم صوتاً أندى وأعذب من صوت أم كلثوم ؟ تلك الفتاة هي الشاهد علي أن الله يزيد في الخلق ما يشاء فتبارك الله أحسن الخالقين.

ثم يلقي زكي مبارك بهذا السؤال :

« ولكن كيف نحل هذه المشكلة ، مشكلة الفرق بين غناء أم كلثوم وحديث أم كلثوم ؟ ».

الحل سهل لأن العقدة مشتركة بينها وبين محمد عبد الوهاب ، وإليه وإليها انتهى الإبداع في عالم الغناء ».

ثم يفاجئنا زكي مبارك بهذا الرأي الطريف فيقول : « عبد الوهاب رجل أعمال وأم كلثوم رجل أعمال ، وذلك سر العبقرية عند هذين الروحين وهو الدليل علي أن الله لا يهب المواهب لأهل التخاذل والانحلال ، والزهد في جمع الثروة هو الآية علي التخاذل والانحلال ، وغضبة الله علي من يحسبني أمزح في هذا الحديث ! ».

« دعتني أم كلثوم مرة في أحد مطاعم القاهرة ، فأجبت الدعوة ولكني رأيت أن أدفع عن نفسي - أي يدفع زكي مبارك حساب عشائه - فاستظرفتني أم كلثوم جداً ، وصرحت بأني لم أقل غير الحق حين قلت : «أنني أعظم من الجاحظ ولو غضب الدكتور طه حسين ».

وفي السطور السابقة يشير زكي مبارك في لفتة ذكية إلي أنه « أعظم من الجاحظ» لأن الجاحظ قد أحسن فهم نفوس البخلاء وكتب عنهم كتابه الشهير، ولما كان زكي مبارك - في رأي نفسه أعظم من الجاحظ - فقد فهم نفسية أم كلثوم.. وعرف أنها من كبار البخلاء ! وقد سعدت أم كلثوم به واستظرفته عندما قرر أن يدفع حساب عشائه ، رغم أنها هي التي دعته علي هذا العشاء.

وكان من بين حضور هذه الدعوة نفسها الموسيقار محمد القصبجي الذي قدم لأم كلثوم مجموعة من أروع ألحانها ، وعن مشاركة القصبجي في هذه الدعوة يقول زكي مبارك :

« .. لن أنسي موقف القصبجي الملحن وقد زعم وهو يشاركني دعوة أم كلثوم علي العشاء ، أنه صائم ، مع أن العشاء كان في جوف الليل ، ولم نكن في رمضان ولا شعبان ، ولكن القصبجي كان يعرف أن « حمامة الشرق » - أي أم كلثوم - لا

يسرها أن يكون القصبجى رجلاً له أمعاء تظمأ وتجوع كسائر الناس ، وكيف يكون فناناً وهو يحس الظمأ والجوع ؟! ».

ثم يخرج زكي مبارك من هذه القصة إلي نتيجتها وهي تمجيده للبخل وحب الثراء وجمع المال فيقول بأسلوبه الساخر اللطيف : « أشهد أن البخل حق ، وأنه من خصائص أهل العبقرية ، وإلا فكيف صحبت الدكتور « طه حسين » عشر سنين ولم أتناول الغداء في داره غير مرة واحدة لظروف قهرية قضت بأن نمضي النهار كله في درس شواهد الشعر المنحول « أي المنسوب كذباً إلي أصحابه» سنة ١٩٢٦ ؟!.

ثم يتحدث زكي مبارك بعد ذلك عن صديقه محمد عبد الوهاب ، فيؤكد أنه شريك في البخل لأم كلثوم ، فالبخل والحرص علي المال من علامات العبقرية في نظر زكي مبارك وله في ذلك تفسير سوف نذكره بعد أن نقرأ رأيه في محمد عبد الوهاب ، وكيف أنه ينافس أم كلثوم في البخل والحرص علي المال ، وكيف أنهما معاً من « رجال الأعمال » ؟!.

يقول زكي مبارك :

« كذلك يكون شقيق الروح محمد عبد الوهاب ، فهو أبخل من الجارم « أي الشاعر علي الجارم » ، وعبد الوهاب إلي اليوم - سنة ١٩٤٠ - لا يدرك أن الدينار قد ينقسم إلي فلوس ، إنما الدينار دينار ، فإذا انقسم فهو هباء ، وإليكم هذا الخبر الطريف : نشر الموسيقار محمد عبد الوهاب في مجلة « الاثنين » عن ذكرياته في زيارة العراق ، وقد قرأت تلك الذكريات وأنا في بغداد ، فحزنت لأنني عرفت منها أن صديقي العراقي الأستاذ « الصراف » خدعه فزين له الذهاب من دمشق إلي بغداد في سيارة عربية لا إنجليزية ، وكانت النتيجة أن يقضي عبد الوهاب ثلاثة أيام بلياليها في الطريق بين دمشق وبغداد ، فصممت علي تأنيب الأستاذ « الصراف » حين أراه ، ثم عظمت الدهشة وعظم الاستغراب حين عرفت من الأستاذ « الصراف » أن الموسيقار عبد الوهاب هو

الذي اختار تلك السيارة لأن أجرتها أرخص بمبلغ لا يقل بحال من الأحوال عن دينارين !» .

فعبد الوهاب عند زكي مبارك لا يقل بخلاً عن أم كلثوم . وهنا نتساءل عن ذلك التفسير العجيب الذي يقدمه زكي مبارك لرأيه ، في أن البخل هو علامة من علامات العبقرية . يقول زكي مبارك في تفسير ذلك:

« ماذا أريد أن أقول ؟ »

لعلي أريد القول بأن الاهتمام بجمع الثروة يدل علي الشغف بحب الدنيا ، وحب الدنيا هو الأصل الأصيل لحيوية النوازع والغرائز والأحاسيس . وحب الدنيا هو السر في عبقرية أحمد شوقي أمير الشعراء ، فقد صحبته مرات كثيرة وهو يطوف علي أملاكه بالقاهرة وضواحي القاهرة ، وشهدت كيف ينظر إلي كل بقعة من أملاكه وقلبه يهتف « كل مليحة بمذاق » ، ورحم الله شوقي فما مات إلا وهو حزين ، حزين علي فراق أملاكه الواسعة بأرجاء هذه البلاد . وحب الدنيا هو السر في عبقرية عبد الوهاب وأم كلثوم ، عبد الوهاب ساكن « العباسية » وأم كلثوم ساكنة « الزمالك » وهل يستطيع أحد أن يقول أنه علي شيء من الأدب والفن وجيوبه خاوية ؟ ».

هذا هو تفسير زكي مبارك لظاهرة البخل في حياة عبد الوهاب وأم كلثوم وشوقي وغيرهم من العباقرة ، فالبخل والحرص علي المال معناه حب الدنيا والإقبال علي الحياة والتمسك بها ، لأن « الفقر » يدمر الفنان ، بل ويدمر كل إنسان . والفقر يشغل كل من يصاب به بمصاعب الحياة وتعقيداتها ، ونتيجة لذلك فان مشاعره وقدراته الذهنية يصيبها الكثير من الضعف والتشتت . ومن الناحية الواقعية ، وبعيداً عن أي سخرية ، تبدو هذه النظرية سليمة ، فالفقر يسحق المواهب . وما أكثر المواهب التي بددها الفقر وقضى عليها وأصابها بالخمول والضياع . ولذلك فصاحب الموهبة لابد أن يسعى إلي مقاومة الفقر بقدر ما يستطيع ، خاصة إذا كان من أمثال عبد الوهاب وأم كلثوم ممن نشأوا نشأة بسيطة فقيرة ، وعرفوا في بدايتهم معنى الحاجة وسوء الظروف الاقتصادية . فقد

كادت أم كلثوم علي سبيل المثال تفقد فرصتها في الفن والحياة بسبب نشأتها الفقيرة ، حيث عارض والدها في طفولتها رغبة أمها في أن تعلم أم كلثوم القراءة والكتابة في « كُتاب القرية » ، وذلك لحاجة والدها إلي القروش القليلة التي يمكن أن يدفعها لتعليم ابنته . ولو لم تتعلم أم كلثوم القراءة والكتابة ، فكيف يمكن أن نتصور أنه كان بإمكانها أن تتقدم في حياتها الفنية وترعى موهبتها وتكتشف طريقها الناجح في الفن ، ثم ترتقي بنفسها حتى تصل إلي القمة ؟ . وما أكثر النماذج التي صرعها الفقر وقضى علي مواهبها ، لا في عصرنا وحده ، بل في كل العصور . والذين نعرف قصص عذابهم بسبب الفقر من الأدباء والفنانين أقل بكثير ممن سحقتهم الحياة دون أن يعرفوا حتى هم أنفسهم أنهم يملكون شيئاً من الموهبة ، وقد نشأ المجتمع العربي في الأجيال الماضية علي ثقافة عامة شائعة ، تدعو الإنسان إلي الزهد في الحياة ، وامتلأت نفوس الناس في المجتمعات العربية بهذه الفلسفة السلبية المدمرة . وإذا نظرنا إلي الشعوب الأخرى التي اكتوينا بنيران بعضها ، وجدنا الفلسفة السائدة بين هذه الشعوب هي فلسفة «النضال في الحياة» بشتى الطرق والأساليب . فالإنجليز أحسوا أنهم يعيشون في جزيرة معزولة ، وأنهم لو استسلموا لوضعهم الجغرافي لأصبحوا أكثر شعوب العالم فقراً وبؤساً وتعاسة ، ولكنهم اختاروا أن يكونوا تجاراً ، وأن يخوضوا عن طريق التجارة معارك الحياة ، وقد قادتهم نزعتهم منذ مئات السنين إلي اقتحام البحار، فكانوا قبل اكتشاف الطيران ، هم أصحاب أقوى قوة بحرية في العالم ، سواء من ناحية الأساطيل العسكرية أو من ناحية الأساطيل التجارية ، وبذلك تغيرت حياة الإنجليز واستطاعوا أن ينتصروا علي وضعهم الجغرافي والذي كان يسجنهم في جزيرة فقيرة معزولة عن العالم ، وبدلاً من أن يتركوا أنفسهم معرضين لاستعمار من هم أقوى منهم ، أصبحوا هم أصحاب نزعة استعمارية قوية ، فاستولوا علي بلاد كثيرة في العالم كله ، وكان لهم في استعمارهم وضع السيادة علي تلك البلاد، واستغلوا ثروات الشعوب الأخرى لحسابهم ، وكانوا في طليعة المهاجرين إلي أمريكا بعد اكتشافها ، واستقرت أمواج الهجرات الإنجليزية في أمريكا ، وأصبحت أمريكا تتكلم اللغة الإنجليزية مما جعل لما يمكن أن يسمى «بالمجال

الحيوي » للإنجليز مساحة واسعة علي سطح الأرض ، وهكذا فرض الإنجليز وجودهم علي الدنيا برفضهم التام لسياسة الزهد والرضا والقناعة بما فرضته الطبيعة عليهم من قيود كثيرة . ولاشك أن الإنجليز في نضالهم من أجل نهوضهم وتقدمهم لم يكونوا يسلكون سبيل المبادئ الأخلاقية السليمة ، ولكن تلك هي وجهة نظرنا نحن الذين اكتوينا باستعمارهم واستثمارهم ، لكل ما في بلادنا من خيرات وثروات ، ولكن الإنجليز من وجهة نظرهم هم كانوا يحملون رسالة الحضارة والتقدم والعمران في البلاد التي استعمروها ، فهي بلاد متخلفة غارقة في الجهل ، وكانت رسالة « الرجل الأبيض » كما ردد الإنجليز كثيراً في القرون الماضية هي نقل هذه الشعوب الخاضعة لاستعمارهم إلي مستوى أرقى وإيقاظها من نومها وتعميرها وتخليصها من الخراب الذي تعانيه.

ولو نظرنا إلي تاريخ اليهود لوجدنا أنهم منذ عصور طويلة كانوا يؤمنون بقوة المال ، ويسعون إلي الحصول عليه بكل الوسائل والأساليب وقد أصبحوا في القرن العشرين اكبر قوة مالية واقتصادية في العالم ، وأصبحوا عن طريق هذه القوة يتحكمون في مصيرهم ومصير غيرهم ، فقد ابتعد اليهود منذ وقت طويل عن فلسفة الزهد في الحياة ، ولم يترددوا في خوض الصراع المادي والواقعي ، ولم يرضوا بأن يكونوا من فقراء العالم الخانعين المنكسرين . وقصة اليهود وإقبالهم الشديد علي تكوين الثروة والاستناد إليها في تحقيق كل خططهم أصبحت واضحة لنا نحن العرب تمام الوضوح ، فنحن نعاني الآن من قوة اليهود أشد المعاناة ، وقوة اليهود معتمدة علي الثروة وجمع المال وتكوين اقتصاد قوي راسخ للأفراد والمؤسسات بين اليهود جميعاً ، بصرف النظر عن أي مبادئ أخلاقية . وقصة نشأة المجتمع الأمريكي منذ حوالي أربعمائة سنة فقط ، هي قصة الجرأة والإقدام والمغامرة ورفض الزهد في الحياة ، والأمريكان هم في الأصل مهاجرون أوربيون وإنجليز بصورة أساسية وخاصة في أمريكا الشمالية وقد ارتكب هؤلاء المهاجرون كل ما يمكن وصفه بالقسوة والعنف والهمجية والوحشية ضد سكان أمريكا الأصليين ، ولكنهم لم يعبأوا بشيء من ذلك ، لأنهم كانوا يحملون قوة اندفاع ومغامرة وإصرار تدفعهم

لإقامة مجتمعهم الأمريكي الجديد علي أساس قوى ، وواصلوا جهودهم ومغامراتهم حتى أصبحت أمريكا الآن أقوى وأغنى دولة في العالم.

ولا يمكن طبعاً أن يكون تاريخ الأوربيين واليهود والأمريكيين بريئاً من الاتهامات الأخلاقية الثابتة ضدهم ، ولكن القضية هي قضية فلسفة الزهد التي سممت المجتمع العربي بأقطاره المختلفة لفترات طويلة من التاريخ ، فأفقدت العرب قدرتهم علي الحياة السليمة وأضعفتهم في مواجهة موجات العدوان عليهم من الآخرين ، وليس من العسير رغم ذلك كله أن تجمع الشعوب بين الإقبال علي الحياة والالتزام بالمبادئ الأخلاقية.

وتلك هي الفكرة الأساسية التي يعبر عنها زكي مبارك في تمجيده « للبخل» وربطه بين العبقرية والبخل ، إذ أن ما يسميه بالبخل هو بألفاظ أخرى : القدرة علي توفير وسائل الحياة وحماية النفس من الآثار المدمرة للحاجة والفقر ، وزكي مبارك لا يعبر عن فكرته بأسلوب فلسفي أو تاريخي ، ولكنه في الحقيقة يلمس جوهر العجز الذي تعاني منه الشخصية العربية تحت ستار الادعاء بالزهد واحتقار المادة والمال ، وهذا الادعاء ليس فضيلة ، لأنه نوع من النفاق والاستسلام والهروب من معارك الحياة الصعبة.

والطريف في موقف زكي مبارك أنه هو نفسه لم يكن من الأثرياء ، ولم ينجح في تكوين ثروة حتى لو كانت هذه الثروة متواضعة ، وهو يعترف بذلك ويفسر تفسيراً ساخراً طريفاً بأنه جمع ثروة أضاعها علي الفاتنات اللواتي أحببهن قلبه ، فبدد ثروته في سبيل الهوى العنيف والعواطف المشتعلة، ثم يقول أنه أيضاً قد تعلم « الكرم » أثناء إقامته بالعراق ، التي عمل بها أستاذا للأدب سنة ١٩٣٨ ، حيث يقول عن ذلك : « إن هجرتي إلي العراق هي سبب هذا البلاء - أي الفقر - فقد أعداني العراق بالكرم وراضني علي البذل والجود ، فأنا اليوم بلا ذخيرة ولا عتاد» .

ثم يقول زكي مبارك بأسلوبه الساخر الجميل : « ألم تسمعوا أني كنت أتمرد علي رؤسائي بالجامعة وبوزارة المعارف ، فكنت املك الزهد في مناصب الحكومة

في كل وقت ؟ فإن صح أني صبرت أخيراً علي خدمة الحكومة أربع سنين فاعلموا أن أخاكم مكره لا بطل ، وأنـه لم يتمرغ في تراب « الميري » إلا وهو في فاقة وإملاق . وآه من الصبر علي خدمة الحكومة أربع سنين ! .. وهل خلق الشعراء لهذا الاستعباد ؟ وهل كان ذلك هو المصير المنشود لمن يؤمنون بفاطر النخيل والأعناب؟ ولكن لا بأس فمن واجب الشاعر الذي أخضعه الفن للقوافي والأوزان أن يقبل الخضوع لقيود الوظيفة وقيود المجتمع وما قيمة الفلسفة إن لم تحسن بقليل من الصبر علي قيود الوظيفة وقيود المجتمع؟ ».

وهكذا يدافع زكي مبارك عن البخل وجمع الثروة والحرص علي المال ، ثم يجد تبريرات أدبية خيالية ساخرة لفقره وقلة ماله . ولابد من الإشارة هنا إلي أن زكي مبارك قد استخدم كلمة « البخل » وهو يقصد الحرص علي بذل الجهد في سبيل الحصول علي المال الذي يحفظ كرامة الإنسان.

علي أن الذي يهمنا أخيراً هو ما ألقاه زكي مبارك من أضواء جديدة علي شخصية أم كلثوم وأولها ما سماه بالبخل الذي هو عند زكي مبارك صفة من صفات العباقرة ، وهو بعد ذلك يلقي أضواء قوية وطريفة أخرى علي شخصية أم كلثوم ، ويروى قصة ٤٥٠٠ ثانية ، أي ساعة وربع الساعة قضاها مع أم كلثوم في قطار مسافر من القاهرة إلي طنطا ، حيث افترقا ، ليذهب زكي مبارك إلي الإسكندرية ، وتذهب أم كلثوم إلي المنصورة ، ويروى زكي مبارك ذلك بأسلوبه الساخر الطريف الذي يتضمن تحليلاً نادراً لشخصية أم كلثوم حيث يقول : « كانت النفس حدثتني بوجوب السفر إلي الإسكندرية في أواخر سبتمبر ، فرأيت في محطة القاهرة فتى من عصبة الفن الجميل وهو يهتف « أما ترى ثومة يا دكتور » والتفت فرأيت إنسانة نحيلة تكبح سحر عينيها بمنظارين سمراوين وهي تحاور المودعين حواراً تقع فيه ألفاظ غلاظ علي غير ما ينتظر من فتاة لها تلك المكانة بين « البيض الخضرات » من بنيات وادي النيل.

وأقبلت عليها فسلمت تسليم الشوق بتهيب واحتراس ، لتفهم أني لا أريد نضالها في ميدان التنكيت ولكن الشقية تغابت وتجاهلت رغبتي في البعد عن هذا الميدان ، ولم تكن إلا لحظة حتى اقتنعت بأن الزمالك تجاور البولاق « وفي هذه الإشارة الأخيرة من زكي مبارك إلي أن « الزمالك » تجاور «بولاق» ما يعني أن أم كلثوم التي تسكن حياً أرستقراطياً هو حي الزمالك إنما هي في حقيقتها شخصية شعبية من حي بولاق الشعبى المجاور للزمالك ، وتفسير ذلك كله يظهر لنا في جزء آخر من حديث زكي مبارك بعد ذلك عن أم كلثوم حيث يقول:

« ما الذي يحمل « ثومة » علي « خلع البرقع » وهي تحاور الرجال وفيهم من لا يتأدب وهو يحاور النساء ؟ لم يبق بين « ثومة » وبين الفصيلة النسائية أي صلة ، فهي اليوم رجل أعمال وهي أبو كلثوم لا أم كلثوم ! ! وقت ثومة لا يضيع في مراجعة الأدب القديم والأدب الحديث ـ كما تسمعون ـ وإنما يضيع وقت ثومة في تدبير المال لاقتناء النفائس من البيوت والبساتين . وثومة ليست غبية ، فهي تعرف أن البيئات الفنية يكثر فيها الوباء ، وأنه لا موجب لطاعة الفطرة التي يتجلى فيها الحنان النسائي ، لئلا يكون من أثر ذلك أن تدور حولها الأقاويل والأراجيف ، في زمن الأقاويل والأراجيف ، ومن أجل هذا لا تجيد أم كلثوم ـ ممثلة ـ إلا في مواقف الانفراد ، فهي كتلة من الثلج حين تحاور رجلاً في مواقفها التمثيلية ، وهي نار تتأجج حين تخلو إلي نفسها ، في موقف من مواقف التذكر والاشتياق. العزلة هي الفرصة الوحيدة لانفجار العواطف في صدر أم كلثوم، لأن هذه الإنسانة تتوهم أن المجتمع لا يحسن غير التجريح والاغتياب ، فهي تلقاه بلسان حديد لا يجيد غير السخرية والاستهزاء ، فإذا اعتزلت الناس أو توهمت أنها اعتزلت الناس صارت أم كلثوم الحقيقية بشفتيها الورديتين وأسنانها اللؤلؤية وأنفها المسنون . ولو استبحت مغازلة هذه الشقية لقلت إن ابتسامتها يصدر عن واد سحيق هو وادي الخلود . وما أسعد من يظفر بابتسامة صافية من أم كلثوم ولو لحظة واحدة من عمر الزمان . هانحن أولاء في محطة القاهرة ، وإني

وإياها لمختلفان ، فهي ذاهبة إلي المنصورة وأن ذاهب إلي الإسكندرية ، وسنفترق في طنطا كارهين أو طائعين ، وأترفق فأقول « ألا تحتاج الحمامة الموصلية - أي أم كلثوم - إلي رجل يضايقك لحظات ؟ فتجيب : وأنت ألا تحتاج إلي من يضايقك ساعات؟! ، ثم تأخذ في الحديث بعنف ولجاجة ، فهل كان بيني وبين هذه الروح ثأر قديم ؟ لا أعرف ما ذنبي عند أم كلثوم ولم أخرج علي الأدب فأقول أنها خير ما أخرجت مصر من ثمرات وأنها ألطف روح سكن الزمالك ، وتخطر في شارع فؤاد ؟ ثم تشتط أم كلثوم في المزاح الغليظ ولكن مع من ؟ مع الرجل العليم بمواقع أهواء القلوب ولو أسدل علي سرائرها ألف حجاب ».

« هل تذكرون المصباح المغطى بالأوراق الزرقاء ؟ هو قلب أم كلثوم لو تعلمون .

وبلفظة واحدة نزعت تلك الأوراق لأواجه ذلك القلب الوهاج فما هي تلك اللفظة السحرية ؟

قلت : إن حمامة الشرق - أي أم كلثوم - تستر بمزاحها الغليظ قلباً يحترق..».

وكانت هذه العبارة عن القلب الذي يحترق سبباً في أن تتنبه أم كلثوم من سباتها المتكلف المصنوع وابتسمت - كما يقول زكي مبارك - « ابتسامه لن أنساها ما حييت وترفقت أم كلثوم وتلطفت بعد التأبي والتمنع ، وانطلقت تتحدث بلا تكبر ولا إزدهاء ، فمن قال إنه عرفها قبلي فهو كاذب لأني أول من نزع الأوراق الزرقاء عن ذلك القلب الوهاج ، وأنا أول من فرض علي أم كلثوم أن تعرف أن الدنيا فيها أمانة وصدق وإخلاص .. من حق أم كلثوم أن تكون في دنياها رجل أعمال فنحن في عصر سخيف ، لا يقيم وزناً لمواهب أهل الأدب والفن إذا فاتهم سناد الجاه والمال .. ».

وينهي زكي مبارك مقاله الناقد الساخر الطريف بقوله : « إن كانت أم كلثوم تحب أن تكون « ابن بلد » فقد ظفرت بما تريد ، أما إن كانت تحب أن تكون أعظم من أم كلثوم فلذلك حديث غير هذا الحديث .. ».

ومقال زكي مبارك الذي نقلنا منه مقتطفات متفرقة ، يعطينا صورة حية وجريئة وغير شائعة لأم كلثوم في منتصف عمرها ، ومنتصف رحلتها الفنية الطويلة ، فقد كتب زكي مبارك مقاله سنة ١٩٤٠ ، وفي الصورة التي يرسمها زكي مبارك لأم كلثوم نجد أنه يصفها بالبخل ، وبأنها رجل أعمال وليست سيدة أعمال وأنها ابن بلد وليست بنت بلد وأنها عنيفة في حديثها ومليئة بالسخرية وقليلة الثقة بالآخرين ، وأنها خشنة وليست ناعمة حتى لا يستهين بها أحد ، ولكنها عند الحديث عن القلب الذي يحترق كانت تتغير وتصبح علي طبيعتها وتتخلص من كل ما فيها ، لعلها كانت حتى ذلك الحين ـ سنة ١٩٤٠ ـ تعيش في وحده وجدانية وعاطفية . ولا شك أن أم كلثوم تغيرت بعد هذا التاريخ ، وازدادت ثقتها بنفسها وبالناس والحياة ، وتخففت قليلاً من إحساسها بالوحدة والعزلة ، ولكن الصورة التي يرسمها زكي مبارك لأم كلثوم في منتصف حياتها هي صورة جديدة ومختلفة عما هو شائع .

ومع ذلك فهي صورة تؤكد علي عبقرية أم كلثوم التي تحتاج إلي الكثير من الجهد للكشف عن كل أسرارها وخبايا روحها.

وما أطرف وأعمق ما كتبه زكي مبارك عن أم كلثوم حتى لو لم نتفق معه في جانب أو آخر .

♫ ♫ ♫

عاشقة أم كلثوم

فجأة أصبحت أم كلثوم حديث الناس في العالم العربي كله ، بل وانتقل الاهتمام بها إلي العواصم العالمية حيث يعيش الآلاف من العرب هاربين أو لاجئين أو مشردين أو عاملين أو طالبين للعلم والثقافة ، وكان الفضل في إحياء أم كلثوم علي هذه الصور القوية المفاجئة يعود إلي المسلسل التليفزيوني الذي أذاعه التليفزيون المصري فيما بين ديسمبر ١٩٩٩ ، ويناير سنة ٢٠٠٠ ، عن «أم كلثوم» ولم يكن تقديم هذا المسلسل مقتصراً علي التليفزيون المصري ، بل نقلته كل قنوات التليفزيون العربية المحلية والفضائية أيضاً ، فشاهد العرب فى كل أنحاء العالم.

والحق أن نجاح المسلسل بالصورة المدهشة التي حدثت بالفعل يعطي فكرة عن « قدرة الفن الرفيع » علي إعادة الحياة إلي الشخصيات والأحداث التاريخية التي تجمدت في أذهان الناس ، فأم كلثوم ليست مجهولة من أحد ، فهي مشهورة عند الجميع وصوتها يتردد في كل مكان حتى بعد رحيلها ومع ذلك فقد اكتشفت الناس أن أم كلثوم « مشهورة ومجهولة » في الوقت نفسه فقد كشف المسلسل التليفزيوني الرائع صفحات كثيرة لم يكن يعرفها أحد عن أم كلثوم وبذلك أعيد اكتشاف أم كلثوم واندفاع الناس لشراء أشرطتها الغنائية أصبحت هذه الشرائط مرة أخرى هي الأولى بين كل شرائط المطربين والمطربات من حيث النجاح والرواج والإقبال عليها ، وذلك بعد أن كانت هذه الشرائط قد « نامت » وأصبحت تتحرك ببطء شديد ، وكأن أم كلثوم قد ظهرت سنة ٢٠٠٠ وليس في أوائل القرن العشرين.

والحقيقة أن ما حدث لأم كلثوم بعد المسلسل التليفزيوني الناجح ينطبق علي الكثيرين من أعلام النهضة العربية في مختلف المجالات . فكلهم مشهورون مجهولون في الوقت نفسه ، فنحن لا نعرف سوى المعنى العام الشائع لهم ، ولكننا لا نعرف التفاصيل فهذا زعيم سياسي ، وهذا أديب كبير ، وهذا رجل اقتصاد، وهذا موسيقار، وهذه مطربة ولكن التفاصيل الدقيقة مجهولة للجميع وهذه التفاصيل وحدها هي التي تعيد رسم الشخصية في العقول والنفوس ، فما من شخص وصل إلي القمة والشهرة والتأثير إلا وكانت مسيرة حياته مليئة بهذه التفاصيل المثيرة ، وعندما تظهر هذه التفاصيل تصبح الشخصية أقرب إلي قلوب الناس من صورتها العامة الشائعة ، فالناس لا تعرف التفاصيل ، ولا الجهود المضنية التي تبذلها الشخصيات الكبيرة حتى تصل إلي قمة النجاح ، وليس هناك في الدنيا ولا في التاريخ نجاح سهل علي الإطلاق . وهذا المعنى لا يمكن إثباته إلا عن طريق التفاصيل .

علي أن هناك شيئاً آخر يميز عصرنا عن غيره من العصور السابقة ، وأعني به تأثير الصورة علي العقول والنفوس فقد كنا قبل ظهور السينما والتليفزيون نعتمد علي الكلمة المكتوبة وحدها في تقديم الأحداث والشخصيات ، والكلمة المكتوبة مهمة وأساسية وهي الأصل في أي عمل فني تقدمه السينما أو التليفزيون ولكن الحقيقة أن الفرق هائل بين تأثير «الصورة» وتأثير الكلمة المكتوبة فقد اعتمد المسلسل التليفزيوني عن « أم كلثوم » علي كتاب أصدرته عاشقة أم كلثوم الدكتورة نعمات فؤاد من حوالي ربع قرن وهو كتاب « أم كلثوم.. عصر من الفن» ولكن هذا الكتاب عند صدوره لأول مرة سنة ١٩٧٦ لم يترك ذلك الأثر الشعبي الواسع المثير للانتباه ، بل كان نجاحه محدوداً بدائرة ضيقة من المثقفين والمهتمين بالأدب والفن.

ولكن عندما تحول هذا الكتاب إلي مسلسل تليفزيوني أحدث « زلزالاً » ثقافياً واضح التأثير علي جميع طبقات الشعب ، وقد أعادت الدكتورة نعمات فؤاد نشر

كتابها في طبعة جديدة صدرت بعد ظهور المسلسل ، فإذا بالكتاب الذي صدر في طبعته الأولى منذ حوالي ربع قرن دون أن يقرأه سوى عدد محدود يبدو كأنه كتاب جديد ، وإذا بالأيدي تتخاطفه وكل ذلك بفضل تأثير المسلسل التليفزيوني أي «الصورة» وهذا معنى يجب أن يلتفت إليه الجميع ، فقد أصبح التليفزيون الآن أخطر وسيلة من وسائل التأثير الإعلامي والثقافي، وهو يتفوق تفوقاً كبيراً علي الكلمة المكتوبة وإن كان يعتمد عليها ، ومع ذلك كله فينبغي أن نقول أيضاً إن المسلسل التليفزيوني عن « أم كلثوم » لم يكن لينجح كل هذا النجاح لولا أنه وجد فناناً موهوباً وحساساً يكتب حلقاته المختلفة وهذا الفنان هو محفوظ عبد الرحمن، والذي يجمع بين شخصية «الفنان» وشخصية « المؤرخ »« ومحفوظ تخرج في كلية الآداب جامعة القاهرة سنة ١٩٦٠ وكانت دراسته في قسم التاريخ بهذه الكلية وهو من مواليد ديسمبر ١٩٣٣ .

وقد كتب القصة القصيرة والرواية ولكنه نجح نجاحاً كبيراً في كتابة المسلسلات التليفزيونية ومعظم مسلسلاته تعتمد علي خلفية تاريخية ، ومنها «ليلة سقوط غرناطة» و « مصرع المتنبي » و « بوابة الحلواني » وغيرها من المسلسلات الناجحة ، ولاشك أن مسلسل « أم كلثوم » يعتبر من أنجح مسلسلاته وأكثرها متعة وقوة وتأثير علي الناس ، ولو أن محفوظ عبد الرحمن كان يعتمد علي المادة التاريخية وحدها لما استطاع أن يحقق كل هذا النجاح ، فهو إلي جانب ثقافته التاريخية صاحب رؤية فنية قوية ، كما أنه حساس جداً للمواقف التي تصلح مادة للفن ، فهو ليس راوياً ينقل ويسجل ، بل هو فنان يختار ويلتقط ولديه موهبة عالية تمكنه من أن يضع يديه علي المادة الشعرية في أحداث التاريخ ، فالشعر في التاريخ مثل الذهب في الصخور ، لابد من تنقيته وتخليصه من المادة الصخرية حتى يصبح ذهباً خالصاً له بريق ولمعان وقيمة وتأثير.

وهذه هي الموهبة الفنية العالية التي يمتلكها محفوظ عبد الرحمن فهو قادر علي استخلاص الذهب من الصخور ، وقادر علي تفجير ينابيع الشعر الجميل من

أحداث التاريخ ، وهذا ما أعنيه عندما أقول : أن محفوظ عبد الرحمن جمع بين موهبة الفنان وموهبة المؤرخ ، فخرج لنا من الالتقاء بين الموهبتين هذا الفنان الكبير ، ولولا موهبة الفنان الأصلية عند محفوظ عبد الرحمن لما استطاع أن يصنع من المادة العلمية الغزيرة التي جمعتها عاشقة أم كلثوم الدكتورة نعمات فؤاد هذا العمل الفني الجميل الذي قدمه للناس في مسلسل « أم كلثوم » ومن هنا ينبغي الالتفات إلي أن المادة التاريخية وحدها لا يمكن أن تقدم عملاً فنياً ناجحاً ومؤثراً، فنهاك فرق كبير بين العمل التسجيلي الذي يقوم علي السرد للأحداث ، وبين العمل الفني الذي ينتقي ويختار ويصنع من الأحداث ما يعطي للعمل الفني معناه وقيمته وتأثيره الوجداني . وهذا ما صنعه محفوظ عبد الرحمن في مسلسل « أم كلثوم » وما صنعه من قبل في الفيلم التليفزيوني الرائع « ناصر ٥٦ » والذي حقق نجاحاً مدوياً عند ظهوره سنة ١٩٩٦ .

ونعود بعد هذا كله إلي كتاب عاشقة أم كلثوم الدكتورة نعمات فؤاد والذي كان هو المادة التاريخية والعلمية التي صنع منها محفوظ عبد الرحمن مسلسله الناجح المثير.

لقد كانت نعمات فؤاد عاشقة لأم كلثوم منذ أن تفتح وعيها علي الحياة ورغم أن دراسة نعمات فؤاد هي دراسة أدبية في أساسها فهي متخرجة في قسم اللغة العربية في كلية الآداب بجامعة القاهرة وكانت رسالة الدكتوراه التي حصلت عليها من الجامعة موضوعها « أدب المازني » .. رغم هذا كله إلا أن حب نعمات فؤاد لأم كلثوم كان قوياً في قلبها ، فألفت عنها كتابا سنة ١٩٥٢ ، وكان هذا الكتاب هو أول كتاب يصدر عن أم كلثوم في المكتبة العربية ، وتقول نعمات فؤاد عن كتابها الأول : « إن أم كلثوم اعتزت بهذا الكتاب ، وظل في حجرتها الخاصة إلي يوم ٣ فبراير سنة ١٩٧٥ ، وهو اليوم الذي اختارها الله فيها إلي جواره ».

أما قصة الكتاب الثاني الذي كتبته عن أم كلثوم فتقول عنه نعمات فؤاد : في سنة ١٩٧٠ عكفت علي كتابة كتابي الثاني عن « أم كلثوم » وفرغت منه سنة ١٩٧٥ وصدر سنة ١٩٧٦ في ٥٣٠ صفحة من الحجم الكبير وهو موسوعة عنها موثقة معمقة شملت مائة سنة من عمر مصر الفني ، إذ حرصت فيه علي دراسة تأثيرها في العصر كله ، والكشف عن الروابط القوية التي تربطها به علي الساحة المصرية والعربية : شعوباً ورموزاً أدبية وفنية وثقافية .. وفي سنة ١٩٩٣ اشترى التليفزيون المصري حق تقديم مسلسل عنها مستمد من هذا الكتاب.

وفي سنة ١٩٩٧ بدأ إعداد المسلسل الذي أخرجته المخرجة الكبيرة إنعام محمد علي وظهر علي شاشات التليفزيون في ديسمبر ١٩٩٩ ، واستمر عرضه حتى أوائل يناير ٢٠٠٠ .

والحقيقة أن كتاب الدكتورة نعمات فؤاد الثاني عن أم كلثوم يعتبر أكثر المراجع العلمية التي تعرضت لحياة أم كلثوم دقة وشمولاً ، وهو أغنى هذه المراجع بالتفاصيل التي تتصل بحياة أم كلثوم وفنها ، ومن الواضح أن نعمات فؤاد قد بذلت جهداً كبيراً في جمع مادة هذا الكتاب ، وقضت خمس سنوات متواصلة في تأليفه بالصورة التي ظهر بها ، والكتاب إلي جانب مادته العلمية الغزيرة كتاب ممتع جداً ، فالكتاب يشير إلي النزعة العلمية الدقيقة عند نعمات فؤاد باعتبارها في الأصل باحثة جامعية ، فهي لا تروى حادثة إلا وتوردها إلي مصدرها ، ولا تقف أمام ما ترويه موقفاً سلبياً بل تعرض المواقف جميعاً للتحليل والنقد ، فتقبل ما يتفق مع المنطق وترفض ما يبدو أنه ملفق وضعيف ، والكاتبة العاشقة لأم كلثوم لا تكتفي بسرد تاريخها الفني ، بل هي تربط أحداث الفن مع الخلفيات السياسية والاجتماعية بصورة واضحة وقوية وبعيدة كل البعد عن الافتعال ، مما يعني أن نعمات فؤاد كانت تؤكد أن أم كلثوم ظهرت في بيئة خاصة وعصر محدد وأن هذه الفنانة الكبيرة لم تظهر في فراغ ، ولكي نفهم أم كلثوم فهماً صحيحاً فلابد أن نضعها في بيئتها وعصرها ، وقد نجحت الدكتورة

نعمات فؤاد نجاحاً كبيراً في تصوير البيئة والعصر ومكانة أم كلثوم بالنسبة لهما ، مما جعل كتابها موسوعة حقيقية يمكن الثقة بها والاعتماد عليها في معرفة عصر أم كلثوم كله ، وهو عصر يمتد من أوائل القرن العشرين حتى وفاة أم كلثوم سنة ١٩٧٥ .

يضاف إلي ذلك أن نعمات فؤاد هي في جانب من جوانب شخصيتها باحثة وناقدة أدبية ، ولذلك نجد أن هذا الجانب كان له انعكاس مفيد علي كتابها عن أم كلثوم ، فقد تناولت الكثير من نصوص أغانيها بإحساس من الناقد وذوقه ، مما جعل الكتاب عملاً أدبياً يتميز بالأضواء الكثيرة التي أضاءت بها المؤلفة نصوص أغاني أم كلثوم ، كل ذلك ، بالإضافة إلي أن الكتاب قد امتلأ بحركة حية للشخصيات التي أحاطت بأم كلثوم ، وبما كان بينها وبين أم كلثوم من عواطف وعواصف ومشاعر إنسانية كثيرة .. والكتاب بعد ذلك كله يفيض بما يمتلئ به قلب مؤلفته من حب لأم كلثوم فالكتاب بعد أن نطوي صفحاته التي تزيد علي خمسمائة صفحة يعطينا شعوراً قوياً بأنه قصيدة حب وعشق طويلة لأم كلثوم ، مما يجعل للكتاب قيمة وجدانية وفنية عالية ، ويجعل من قراءته متعة تشبه المتعة التي نجدها في أي عمل فني جميل .

والدكتورة نعمات فؤاد تعطينا أيضاً إحساساً بأنها قارئه ممتازة للتراث العربي، ففي كتابها نجد صورة أخرى لكتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني ، ولكنها صورة عصرية مكتوبة بأسلوب حديث يخلو من الصعوبات التي نجدها في كتاب الأغاني والتي فرضها أسلوب العصور القديمة في التأليف والبحث ، فقد أخذت نعمات فؤاد روح كتاب الأغاني الذي يمزج في صفحاته المختلفة بين الفن والسياسية والمجتمع والحياة ، فكتاب نعمات فؤاد في بنائه الأساسي يشبه بناء كتاب الأغاني الذي يقدم قصص أشخاص وأحداث ومواقف نخرج منها برؤية عامة رائعة تحرك النفس والوجدان.

ونتوقف أمام بعض ما ورد في هذا الكتاب الكبير الشامل عن أم كلثوم ، فكلمة « كلثوم » في اللغة العربية لها عدة معان منها « الحرير علي رأس العلم» وقد فسرت الدكتورة نعمات كلمة كلثوم فقالت وهي تناجي « أم كلثوم »:

« الكلثوم هو الحرير يكون في رأس العلم ، وقد كنت لنا حريراً ، وخيراً كثيراً وذخراً كبيراً ».

« وكان من المألوف في الأجيال السابقة في الريف المصري وخاصة في الصعيد ، أن يتم رسم وشم علي شكل عصفورة أو غير ذلك من الأشكال علي وجه الرجال والنساء ، وقد أوشكت أم كلثوم أن تتعرض لهذه التجربة القاسية في طفولتها ، والتي لم تكن تستطيع أن تتخلص منها بعد ذلك إلا بعملية جراحية قاسية ، وقد قامت بعض نساء القرية برسم وشم علي يد شقيق أم كلثوم « خالد » ولكن والدة أم كلثوم « فاطمة المليجي » ثارت ضد ما فعلته النساء بطفلها خالد ولولا غضبة الأم كما تقول الدكتورة نعمات «لامتدت أيدي نساء القرية إلي أم كلثوم وشوهن وجهها بوشم العصافير ، أو غير ذلك من أنواع الوشم ».

وهذه القصة الطريفة تشير إلي نشأة أم كلثوم في بيئة ريفية فقيرة بسيطة يسودها الفقر والجهل مما يكشف عن الجهد غير العادي الذي بذلته أم كلثوم لتصل إلي ما وصلت إليه من مجد ونجاح وثقافة وتأثير واسع علي الناس عن طريق استغلال موهبتها الطبيعية وتطويرها في الاتجاه الصحيح.

وتروي الدكتورة نعمات فؤاد قصة دخول أم كلثوم في أوائل القرن العشرين إلي « كُتاب القرية » لتتعلم القراءة والكتابة ، وكانت الطفلة أم كلثوم تبدي الرغبة في التعليم « ووجدت رغبة الطفلة أم كلثوم في التعليم تأييداً من رغبة أخرى خفية كانت تدفع أمها فاطمة المليجي دفعاً إلي إرسالها للكتاب في وقت كان التعليم في مصر ليس بذي خطر حتى في المدن ، وبالنسبة للبنين فما بالك بالقرى وخاصة بالنسبة للبنات ، ومن أجل هذا عارض والدها الشيخ إبراهيم في تعليمها متعللاً بأن نفقة التعليم في « الكُتاب » يحتاج إليها البيت .. وكانت نفقة الكتاب قرشاً

واحداً في الأسبوع أي أربعة قروش في الشهر ، وهو مبلغ رآه أبوها عبئاً يثقل كاهله ، فجملة دخل الرجل في الشهر عشرون قرشاً ولكن الأم أصرت علي تعليم ابنتها .. ترى هلي أحست تلك الأم خيراً في ملامح ابنتها الصغيرة ؟ هل أحست بوحي من أمومتها إحساساً غامضاً بما ينتظر ابنتها ؟ لقد قال رجل من رجال الدين يوماً لوالدها الشيخ إبراهيم : « أن هذه البنت لديها شيء من أسرار السماء، وأنها سوف تكون شيئاً عظيماً » ولعل هذه النبوءة وافقت هوى أمها السيدة « فاطمة المليجي » فعملت حساب المستقبل وأصرت علي تعليم ابنتها أم كلثوم ».

ثم تقول الدكتورة نعمات فؤاد :

« أنني لم أر السيدة التي أنجبت لمصر أم كلثوم .. لا أعرف الدافع لها علي تعليم ابنتها في وقت لا أحسب كثيراً من الأمهات نزعن هذا المنزع ، أو خطر لهن هذا الاتجاه ، ولكني لا أملك إلا أن أحييها تحية حارة ، وأنا في مقام التأريخ لأم كلثوم » .

تلك هي القصة التي ترويها الدكتورة نعمات فؤاد عن تعليم أم كلثوم ، وهو تعليم بسيط لم يتجاوز معرفة القراءة والكتابة ، حيث أن أم كلثوم لم تدخل مدرسة أو معهداً أو جامعة بعد ذلك .

ورغم هذا كله بذلت أم كلثوم جهداً « ذاتياً » لتثقيف نفسها ثقافة عالية جداً، وأذكر أنني التقيت بها لأول مرة في سنة ١٩٦٦ ، في بيتها بالزمالك وكان البيت « فيللا » أنيقة جميلة تم هدمها بعد وفاتها ، وأقيمت مكانها عمارة ضخمة رغم كل ما طالب به الكثيرون من الإبقاء علي المنزل وتحويله إلي «متحف أم كلثوم » وعند لقائي الأول بها ، وكانت زيارتي لها من أجل إجراء حديث طويل معها ، شعرت بقوة شخصيتها واتساع ثقافتها ، وكأنها قد تخرجت في أكبر الجامعات العالمية .. وقد صحبتها بعد ذلك ضمن وفد إعلامي في رحلة إلي السودان سنة ١٩٦٨ ورحلة أخرى إلي ليبيا في أوائل سنة ١٩٦٩ ، واقتربت منها

بصورة زادتني معرفة بهذه الشخصية القوية صاحبة الثقافة العالية المتنوعة . وهو ما كنت أعرفه عنها بالقراءة فعرفته بعد ذلك بصورة حية واقعية وهذا كله يكشف عن المجهود المتواصل الضخم الذي بذلته « أم كلثوم » لتصبح هذه الشخصية العظيمة التي وصلت إليها بالفعل وقد ساعدتها ثقافتها الواسعة ، وخاصة في الأدب العربي ، علي أن ترتقي بفنها ، وتصبح أفضل مطربة تغني بفصاحة ودقة وتذوق غير عادي مجموعة من أجمل قصائد الشعر العربي.

ومما ترويه الدكتورة نعمات فؤاد عن أم كلثوم أن جواز سفرها يقول : أنها من مواليد سنة ١٩٠٤ بينما يوجد إجماع أو شبه إجماع بين المؤرخين علي أن تاريخ ميلادها الحقيقي هو سنة ١٨٩٨ .

فهل غيرت أم كلثوم تاريخ ميلادها لتبدو أصغر من عمرها الحقيقي بست سنوات ؟!

يجوز ولكن المؤكد في جميع المراجع التي تحدثت عن أم كلثوم أن تاريخ ميلادها هو التاريخ الثاني ـ أي سنة ١٨٩٨ ـ وقد توفيت أم كلثوم سنة ١٩٧٥ عن سبعة وسبعين عاماً .

ونعود إلي كتاب الدكتورة نعمات فؤاد ، ونتوقف أمام بعض اللقطات المختلفة فيه ، حيث تحدثت عن علاقة أم كلثوم بالشاعر أحمد رامي الذي التقى بأم كلثوم سنة ١٩٤٢ ، وكان قد عاد منذ فترة قصيرة من بعثته إلي فرنسا ومنذ أن استمع إليها رامي لأول مرة ارتبط بها حتى نهاية عمرها ، ورامي من مواليد ١٨٩٢ أي أنه أكبر من أم كلثوم بست سنوات ، ومن المصادفات أن رامي توفى سنة ١٩٨١ أي بعد وفاة أم كلثوم بست سنوات أيضاً ، وقد ماتت أم كلثوم في السابعة والسبعين من عمرها ، أما رامي فقد مات في التاسعة والثمانين من عمره . وكان من الشائع المعروف أن رامي قد أحب أم كلثوم وقد بقى وفياً لهذا الحب حتى النهاية وأنه كتب أغانيه العاطفية الكثيرة من وحي حبه لأم كلثوم .. وحول حب رامي لأم كلثوم تقول الدكتورة نعمات فؤاد :

« هل أحب رامي أم كلثوم » منذ لقائه الأول معها سنة ١٩٢٤ كما يقول ويردد في أحاديثه ؟ هل أحبها كما يحب الرجل المرأة ؟ الأقرب إلي العقل والمنطق أن أقول : لا .. فهو في ذلك الوقت شاعر متعلم في مصر والخارج ومملوء بالأحلام والآمال والمطامع ، وهي فتاة ريفية بسيطة لم تخلع العقال والقفطان بعد . حتى الفن لم تكن قد ثبتت قدميها فيه ، إنها في أول الطريق المسالة فيما أحسب أنه شاعر رومانسي وهو بطبيعته مرهف الشعور والمذهب الأدبي الذي كان سائداً في ذلك العصر هو « الرومانسية » والمذهب السائد في السلوك هو « فروسية » العصور الوسطى .. فرامي كان يحب أم كلثوم للحب في البداية ربما ، ولكنه ما لبث أن أحبها حبًا كبيراً وثابتاً وأصيلاً بعد ذلك .

ثم تقول الدكتورة نعمات فؤاد :

يقول رامي عن هذه الفترة : أن أم كلثوم أقنعته وقتئذ بالانتقال من الشعر إلي الزجل ولا أحسب أم كلثوم في ذلك الوقت سنة ١٩٢٤ كانت قادرة بحكم سنها وريفيتها وغربتها العلمية والفنية في المدينة الكبيرة ـ القاهرة ـ علي إقناع شاعر بتحول فني ، ولكن المسألة في تقديري أن رامي وجد فيها صوتاً واعداً وتذكر أن شوقي أمير الشعراء ألف الأغاني وقبله الشاعر إسماعيل صبري .. والأغنية جناح يطير بشهرة أصحابها فاندفع بوعي تفكيره وعاطفته الوليدة معاً في طريق الزجل ، ولعل نفسه حدثته أن عبد الوهاب مغني شوقي فلتكن هذه الفتاة ذات الصوت الجميل مغنيته ، أي مغنية كلماته .. وكل شاعر شاب يحلم بخلافة شوقي في الإمارة ولو بصورة من الصور».

هذا بعض ما كتبته الدكتورة نعمات فؤاد عن علاقة رامي بأم كلثوم وهي علاقة بالغة الأهمية في حياة أم كلثوم ، فرامي بمعنى من المعاني هو أستاذ أدبي لأم كلثوم فقد كان بينهما لقاء أسبوعي كل يوم اثنين ، وكان رامي يحمل إليها دائماً نماذج راقية من الشعر العربي قديمه وحديثه ، ويقرأ معها هذه النماذج شارحاً ومفسراً ومتذوقاً كما كان يقدم إليها كتباً أدبية وثقافية متنوعة يختارها بعناية

ودقة ليساعدها بذلك علي تكوين شخصيتها الثقافيـة ، ومـن ناحيـة أخـرى فـإن رامي هو كاتب أهم مجموعة من أغاني أم كلثـوم العاطفيـة الشـهيرة وكـانت هـذه الأغاني تفيض بالرقة واللطف والشفافية والجمال ، مما ساعد أم كلثـوم علـي أن تصل إلي ما وصلت إليه من نجاح ومجد فني ، ومـن الواضـح أن أغـاني رامـي في الحب كانت كلها من وحي علاقته بأم كلثوم ، فقد كان قلبه مليئـاً بـالحب لهـا سواء جاء هذه الحب في بداية معرفته بها أو جاء بعد ذلك ، وقد كان حب رامي لأم كلثوم حباً صادقـاً وعميقـاً وهـو مزيـج مـن الإعجـاب غـير المحـدود بصوتـها والعاطفة القوية المرتبطة بشخصية أم كلثوم الإنسانية .

وننتقل إلي لقطة جميلة أخرى من كتاب عاشقة أم كلثوم الدكتورة نعمات فـؤاد حيث تقول : « في سنة ١٩٢٦ أطلق الشعب علي أم كلثوم اسم « سومة » تحبباً ولم يكن الشعب يدري بالطبع أن اسم التدليل الذي اختاره لها وهو «سومة» هو عند الهنود اسم محبوب ومعبود ، ففـي الأسـاطير الهنديـة أن «سـومة » عندهـا قدرات عجيبة فلديها رحيق مقدس من الورد المذاب والشهد المصفى وعصير التفاح والرمان يذوب في ضوء القمر .. ولديها صوت البلابل الذي يشفي المريض ويعود به الشباب ، ويؤوب الغائب ولو كان ميتاً وتتحقق بها السعادة و « سومة » الهندية تستطيع أن تظهر في صورة القمر وان تشرق مثل الشمس وأن تغني كالعصفورة وأن ترفرف سعادة وتهفهف نسـمة وأن تكـون الشـباب بعذوبتـه وأن تكـون السـماء في الصفاء وأن تكون .. ما أكثر ما تستطيعه « سومة » الهندية في الأساطير وما أكثر ما تستطيعه سومة المصرية في دنيا الواقع وما أكثر توفيقات ابن البلد».

وتقول الدكتورة نعمات فؤاد عاشقة أم كلثوم :

« في العشرينيات من القرن العشرين حاولت أم كلثوم التجديد في الغناء بنفسها وذلك بالالتفاف إلي دور الكلمة الجيدة في الأغنية واختيارها بدقة وعناية بالأداء ، كما حاولت التجديد في الغناء بما وجده الملحنون فيـها مـن اسـتعداد ممـا أغراهـم بالتجديد وأعانهم عليه ، فيقول الأستاذ كمال النجمـي : بـدون صـوت أم كلثـوم

كانت حركة التجديد والتطوير الغنائي سوف تبقى حلماً يلوح للنائمين ولا سبيل إلي تحقيقه في اليقظة ».

ويمضي كتاب عاشقة أم كلثوم الدكتورة نعمات فؤاد متابعاً رحلة الفنانة العظيمة من البداية إلي النهاية علي مدى أكثر من خمسمائة صفحة مليئة بالمعلومات التفصيلية الدقيقة والمشاعر الدافئة الصادقة ، ولذلك جاء هذا الكتاب دراسة علمية وعملاً فنياً في الوقت نفسه ونحن نخرج من الكتاب بصورة حية لأم كلثوم وعصرها والرجال والنساء الذين أحاطوا بها وأثروا فيها وكأننا بعد قراءة هذا الكتاب قد عشنا مع أم كلثوم يوماً بيوم ، وعرفنا كل ما يتصل بتفاصيل حياتها وفنها ورحلتها الغنية الطويلة في الحياة ، فكتاب الدكتورة نعمات فؤاد موسوعة كاملة عن أم كلثوم وعصرها .. موسوعة تستحق أن يخرج منها ذلك المسلسل المتألق عن أم كلثوم والذي شاهده العرب جميعاً في ديسمبر ١٩٩٩ وأوائل يناير ٢٠٠٠ .

♫ ♫ ♫

الفهرس

منافذ بيع مكتبة الأسرة

الهيئة المصرية العامة للكتاب

مكتبة المعرض الدائم

١١٩٤ كورنيش النيل - رملة بولاق

مبنى الهيئة المصرية العامة للكتاب

القاهرة - ت : ٢٥٧٧٥٣٦٧

مكتبة ساقية

عبد المنعم الصاوى

الزمالك - نهاية ش ٢٦ يوليو

من أبو الفدا - القاهرة

مكتبة مركز الكتاب الدولى

٣٠ ش ٢٦ يوليو - القاهرة

ت : ٢٥٧٨٧٥٤٨

مكتبة المبتديان

١٣ش المبتديان - السيدة زينب

أمام دار الهلال - القاهرة

مكتبة ٢٦ يوليو

١٩ ش ٢٦ يوليو - القاهرة

ت : ٢٥٧٨٨٤٣١

مكتبة ١٥ مايو

مدينة ١٥ مايو - حلوان خلف مبنى الجهاز

ت : ٢٥٥٠٦٨٨٨

مكتبة شريف

٣٦ ش شريف - القاهرة

ت : ٢٣٩٣٩٦١٢

مكتبة الجيزة

١ ش مراد - ميدان الجيزة - الجيزة

ت : ٣٥٧٢١٣١١

مكتبة عرابى

٥ ميدان عرابى - التوفيقية - القاهرة

ت : ٢٥٧٤٠٠٧٥

مكتبة جامعة القاهرة

بجوار كلية الإعلام - بالحرم الجامعى -

الجيزة

مكتبة الحسين

مدخل ٢ الباب الأخضر - الحسين - القاهرة

ت : ٢٥٩١٣٤٤٧

مكتبة رادوبيس

ش الهرم - محطة المساحة - الجيزة

مبنى سينما رادوبيس

مكتبة أكاديمية الفنون

ش جمال الدين الأفغانى من شارع

محطة المساحة - الهرم

مبنى أكاديمية الفنون - الجيزة

ت : ٣٥٨٥٠٢٩١

مكتبة الإسكندرية

٤٩ ش سعد زغلول - الإسكندرية

ت : ٠٣/٤٨٦٢٩٢٥

مكتبة الإسماعيلية

التمليك - المرحلة الخامسة - عمارة ٦

مدخل (أ) - الإسماعيلية

ت : ٠٦٤/٣٢١٤٠٧٨

مكتبة جامعة قناة السويس

مبنى الملحق الإدارى - بكلية الزراعة -

الجامعة الجديدة - الإسماعيلية

ت : ٠٦٤/٣٣٨٢٠٧٨

مكتبة بورفؤاد

بجوار مدخل الجامعة

ناصية ش ١١، ١٤ - بورسعيد

مكتبة أسوان

السوق السياحى - أسوان

ت : ٠٩٧/٢٣٠٢٩٣٠

مكتبة أسيوط

٦٠ ش الجمهورية - أسيوط

ت : ٠٨٨/٢٣٢٢٠٣٢

مكتبة المنيا

١٦ ش بن خصيب - المنيا

ت : ٠٨٦/٢٣٦٤٤٥٤

مكتبة المنيا (فرع الجامعة)

مبنى كلية الآداب -جامعة المنيا - المنيا

مكتبة طنطا

ميدان الساعة - عمارة سينما أمير - طنطا

ت : ٠٤٠/٣٣٣٢٥٩٤

مكتبة المحلة الكبرى

ميدان محطة السكة الحديد

عمارة الضرائب سابقًا

مكتبة دمنهور

ش عبدالسلام الشاذلى - دمنهور

مكتبة المنصورة

٥ ش الثورة - المنصورة

ت : ٠٥٠/٢٢٤٦٧١٩

مكتبة منوف

مبنى كلية الهندسة الإلكترونية

جامعة منوف

طبعة خاصة بمكتبة الأسرة

أطلس للنشر والإنتاج الإعلامي

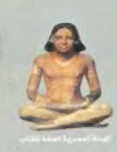
٢٠٠٩



استوقفتني صورة منشورة في كتاب يتناول دلالة أهمية اعتياد ممارسة القراءة
التقطت الصورة بعد قصف بالقنابل لإحدى المكتبات، حيث تظهر بقايا المكتبة
التي أصابها القصف وقد انهارت، فسقطت أعمدتها الخشبية وأركانها
وتحطمت قطع الأثاث وتناثرت، لكن رفوفها المثبتة على الجدران بقيت في
مكانها، تصطف داخلها الكتب في حالة جيدة. المثير للتأمل أنه في وسط
الدمار والفوضى تقف ثلاث شخصيات، الشخصية الأولى تتفحص الكتب مترددة
والثانية تمد يدها لالتقاط أحد الكتب، والثالثة تقرأ في كتاب مفتوح
لا شك أن معنى الصورة تؤكد أن القراءة، بوصفها أهم ممارسات الوجود
الإنساني، هي التي تعزز طاقة مواجهة كل صور معاداة الحياة، وتمنح
الحياة إمكانية التواصل، فالقراءة تصوب فهمنا للماضي، وتعمق
إدراكنا للحاضر، وتشحذ استشرافنا للمستقبل، لذا ستظل
دوما دعوتي أن نقرأ لجودة الحياة.

سوزان مبارك









٢ جنيه